

فلاديمير بلياكوف

ترجمة

د. محمد رياض

دار نشر

أنباء روسيا

Russia News

بالتعاون مع

معهد الاستشراق

أكاديمية العلوم الروسية

مصر في عيون روسية

منذ القرن ١٥ - ١٨ م



فلاديمير بلياكوف

ترجمة

د. محمد رياض

دار نشر
أنباء روسيا
Russia News

بالتعاون مع

معهد الاستشراق
أكاديمية العلوم الروسية

مصر في عيون روسية

منذ القرن ١٥ - ١٨ م

ЕГИПЕТ ГЛАЗАМИ РОССИЯН
XV-XVIII ВЕКОВ

В. В. Беляков

2015 г.

بالتعاون مع

معهد الاستشراق
أكاديمية العلوم الروسية

الجمعية المصرية الروسية للثقافة والعلوم

При содействии
египетско –российской
ассоциации по культуре и науке

الناشر

أنباء روسيا
Russia News

رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير
د. حسين الشافعي
h.elshafie57@mail.ru

المراسلات
القاهرة – مدينة العبور
44971 مكتب بريد جمعية أحمد عرابي
ص. ب. 72

Tel. & Fax: + (202) 24 77 38 70 & 71
E-mail: secertary_ert@yahoo.com

التصحيح والمراجعة
حامد أحمد محمد
نور الهدى شفيق الحسن

إدارة الترجمة
منى فرج حامد

الإخراج الفني
مـى مجـدى

الطباعة
دار الطباعة المتميزة
مدينة العبور – القاهرة
Tel. & Fax: + (202) 4478 96 44 & 46

الطبعة الأولى 2015
دار نشر أنباء روسيا

رقم الإيداع
2014 / 15424

مصر في عيون روسية

مقدمة الناشر

«مصر فى عيون روسية» هو أول قراءة بالعربية لما خَطه الرحالة الروس الذين قصدوا مصر فى طريقهم لزيارة الأماكن المقدسة فى فلسطين وسيناء فى الفترة ما بين القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر .

عمل الباحث الروسى فلاديمير بلياكوف على مذكرات هؤلاء الرحالة ـ أو بالأدق مذكرات الحجاج الأرثوذكس الروس ـ على مدى سنوات ، فقام بجمعها وتحقيقها وتدقيقها لتخرج فى هذا الكتاب فى إطار مشروعنا للتعاون والإصدار المشترك مع معهد الاستشراق الروسى العريق – والذى تأسس عام 1812 ـ ، وهو المعهد الذى يعمل ضمن كوكبة باحثيه فلاديمير بلياكوف ، ويديره المستشرق المعروف فيتالى ناؤمكين .

الجانب الأكبر من أصول هذه المذكرات التى صاغها الحجاج الروس الأرثوذكس كان متناثرا ، فقام المعهد الفرنسى لعلوم الآثار الشرقية فى القاهرة بتكليف أوليج فولكوف (1913 ـ 1987) بجمعها فى مجلد واحد ، وأصدرها فى كتاب بالفرنسية «الرحالة الروس فى مصر» ، أضف إلى ذلك المذكرات المحفوظة بأرشيف «السياسة الخارجية للأمبراطورية الروسية» وهو ما يؤكد أن بعضًا من هؤلاء الحجاج كانوا فى رحلة حجهم للأماكن المقدسة – مبعوثين من قبل الإمبراطورية فى مهام عمل .

لم تخل هذه المذكرات ـ أو قل بعضها ـ من شطحات الرحالة فى وصف بعض ما يرونه من مبالغاتٍ تارة ، أو ربط ما يرونه بترهاتٍ أو معجزاتٍ يبدو أنها كانت منتشرة آنذاك ، ولم يتركها المؤلف دونما تعليق رغم أنها لم تكن لتمر على فطنة القارئ .

لكن يبقى أن هذه المذكرات التى بين أيديكم للحجاج الروس الأرثوذكس حوت وصفًا للبلاد والعباد هو بالقطع هام ، نتلمس منه كيف عاش الأهل فى القرون الغابرة، فما بين وصف الأسواق والحارات والزحام بين الناس لضيق الشوارع وفيضان النيل مع ندرة الأمطار إلى وصف القاهرة والأسكندرية ورشيد ودمياط وسانت كاترين

كيف عاش المصريون آنذاك .. وما هى عاداتهم .. كيف رآهم الحاج القادم من البلاد البعيدة ، وكيف فهم طقوسهم ، وسلوكياتهم ، وطرائق حياتهم .. هذا هو ما نقدمه لكم، أضف إلى ذلك وصفًا جميلاً للكنائس المصرية العريقة ، وسير قديسيها ، وحياة رهبانها فى تلك الأوقات .. وهو وصف يندر أن يحاكيهم فيه غيرهم من حجاج لما حواه من شروح وتفاصيل لعلنا نقرأها للمرة الأولى بهذه الصورة الجميلة الودودة .

يتعرض كتابنا «مصر فى عيون روسية» لمذكرات الحجاج الروس الأرثوذكس خلال الفترة ما بين القرنين الخامس عشر إلى الثامن عشر ، بدءًا من رحلة القس فارسونوفى إلى المدينة المقدسة «أورشليم» عام 1462 ، حتى رحلة كير برونيكوف عام 1820 ، والتى أصدرها فى «رحلة للأماكن المقدسة بأوروبا وآسيا وأفريقيا التى قام بها فى أعوام 1820 – 1821 ساكن قرية بافلوفا كير برونيكوف موسكو إصدار 1841 .

مرورًا بمذكرات الحاج فاسيلى فى 1466 ، والتى صدرت ضمن المجموعة الأرثوذكسية الفلسطينية الإصدار 6 لمكتبة سانت بطرسبورج عام 1884 تحت عنوان «رحلة التاجر فاسيلى فى آسيا الصغرى ومصر وفلسطين» ، ورحلة مصيور مونيخين عام 1493 والمنشورة فى «رحلة مصيور مونيخين إلى الشرق» ونشرتها الأكاديمية الإمبراطورية للعلوم فى 1899 ، وتضمن الكتاب أيضًا مذكرات الراهب جريجورى عام 1547 ، ومذكرات مبعوث القيصر إيفان جروزنى حاملاً الصدقة الإمبراطورية لبطريرك الأسكندرية لنيل البركة من أجل صحة ولديه إيفان ، وفيودر ، وهو فاسيلى بوزيناكوف عام 1558 ، كذا يحتوى الكتاب على وصف رحلة تريفون كوربينكوف عام 1582 وقد كان ضمن بعثة إيفان الرهيب المرسلة إلى أرض الشرق المقدسة عام 1582 محملة بالصدقة لتأبين روح ولى إيفان المقتول بيد والده . هنا نشير إلى أنه يبدو وكأن مذكرات كوربينكوف هذا لم تكن إلا إقتباسًا وتكرارًا لمذكرات فاسيلى بوزنياكوف ، وهو أمر لا تخطئه عين باحث أو قارئ .

إلى ذلك تأتى مذكرات فاسيلى جاجارا عام 1643 المنشورة تحت اسم «الحياة والرحلة إلى أورشيليم ومصر من 1634 : 1637 ، وهى مذكرات حكت عن إنتقال العائلة المقدسة إلى مصر محمولين على السحاب إلى المطرية .

يحوى الكتاب إضافة إلى ما سبق ما خطه أرسينى سوخانوف عام 1651 ، وهو مبعوث القيصر الروسى لمشاهدة وملاحظة الطقوس الكنسية فى الشرق . كذا ما جاء بكتاب «حكايات الشعب الروسى التى جمعها الرحالة ساخاروف عام 1849» والذى تضمن رحلة الشماس إيونا عام 1651 لمصر ، ومذكرات لضابط روسى غير معروف ما بين عامى 1662: 1664 ، ومذكرات القديس الموسكوفى إيوان لوكيانوف عام 1701 والتى نشرت فيما بعد فى إصدار «رحلة إلى الأرض المقدسة» ، ورحلة مكارى وسيليفورست عام 1705 ، ورحلة أندرى إيجناتيف عام 1707 والتى نشرت ضمن «قراءة فى تاريخ المجتمع الإمبراطورى والآثار الروسية فى جامعة موسكو عام 1873» ، ورحلة الأب إيبوليت فيشينسكى إلى أورشيليم وسيناء وجبل أثوس عام 1707 – 1709 ، ومذكرات الرحالة بارسكى 1727: 1730 والتى نشرت فى إصدار «رحلات فاسيلى بارسكى إلى الأماكن المقدسة فى الشرق – عام 1723 إلى عام 1747 . وكذا رحلة الأب إيجناتى دينشين فى 1770 ، ورحلة الأرشمندريت قنسطنطين عام 1429 والتى تركها مكتوبة بالروسية ، واليونانية وهو ما يرجح كونه فى ظن بلياكوف – يونانى الأصل وهى الرحلة التى بدأها بالأسكندرية فيسهب فى وصفها لينتقل منها ليحكى عن الآثار حول هذه المدينة البديعة . يتضمن

الكتاب أيضا عودة لمذكرات كير برونيكوف عام 1820 ليحكى هذه المرة فيها عن رحلته من سيناء للقاهرة .

الجزء الأهم فى هذا الكتاب - كما سنقرأ - يأتى متمثلاً فيما يكتبه المؤلف بلياكوف قارئًا ما بين سطور المذكرات التى سجلها الحجاج الروس ، فيعمل المؤلف فى الفصل الختامى من الكتاب لإستعراض مقارن لرؤى الحجاج عن طبيعة المدن التى زاروها، ومناخها ، والنيل ، ومملكة الحيوانات ، والناس والاقتصاد والقاهرة والأسكندرية وغيرهما من المدن والآثار المسيحية والمصرية القديمة .

ترجمة هذه المذكرات إستغرقت وقتًا طويلاً ، فما بين مصطلحات كنسية ومعلومات من زمن ماض ، وأسماء لكنائس ولقديسين عديدين أخذت فى ترجمتها جهدًا إضافيًا بذل فيه المترجم - الدكتور محمد رياض غلوش - أقصى درجات التدقيق والتمحيص ساعده فيها آباء وقساوسة كثيرين لجأ إليهم لإستشارتهم ، فلم يبخلوا بعطاياهم ، فلهم ، وله الشكر الجزيل .

الكتاب يأتى فى إطار مشروع مشترك للتعاون مع معهد الإستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية لنشر التراث و الكتابات المعاصرة عن بلدينا : مصر و روسيا

ما تبقى بين أيديكم فى هذا الإصدار «مصر فى عيون روسية» هو رؤية للحجاج الأرثوذكس عن بلد النيل «مصر» ترصد ما كانت عليه البلاد والعباد منذ قرون مضت ، فلعلها رؤية تضيف ، فتغنى .. وأثق أنها كذلك .



د. حســـين الشافعى

رئيس مجلس إدارة

ورئيس تحرير مجلة «أنباء روسيا»

رئيس الجمعية المصرية الروسية للعلوم و الثقافة

يناير 2015

مقدمة المترجم

لاشك أن كتاب مصر فى عيون روسية من الكتب الهامة ، إذ أنه يلقى الضوء على فترة لم يتطرق إليها المؤرخون كثيراً ، وهى فترة حكم الباشوات الأتراك التى كانت تتصف بالعزلة والجمود . وكان هذا أسلوباً تتبعه الدولة العثمانية فى كل الولايات التى حكمتها. وقد تعرض الكتاب لهذا الموضوع ، حين كان الوالى العثمانى لا يمكث طويلاً فى ولايته كى لا يستقل بها ، مما جعل كل همه أن يسلب البلد مالها وخيراتها .

يتضمن الكتاب معلومات كثيرة عن مصر ، ومدنها ، ونيلها ، وسكانها ، وآثارها القديمة الفرعونية ، ومعالمها الدينية الإسلامية والمسيحية . وشغلت المعالم المسيحية مكاناً متميزاً فى كتاباتهم كونهم كانوا حجاجاً مسيحيين أرثوذكس ، وكان لبعضهم رتباً كنسية . وقد قاموا بزيارة ووصف الأماكن المقدسة فى مصر القديمة والمطرية ، وكذلك المعالم الأرثوذكسية الدينية ، خاصة دير القديس جيورجى (مار جرجس) والقديس سابا، ومقرات دير سيناء فى بعض المدن ، والذى يطلق عليه ميتوخ أو ميتوخا ، وكنيسة القديس سابا فى الإسكندرية . ووصفوا الأيقونات الشهيرة التى تحدث عنها معجزات وبشارات . وتناولوا بعض المواضيع المسيحية الشهيرة ذات الطابع الإعجازى ، والتى يؤمن بها المسيحيون فى مصر . ولعل من أبرزها قصة تحريك جبل المقطم بفضل دعوات وصلوات القديس سمعان الخراز ، وسنلقى عليها الضوء إذ أنها وردت أكثر من مرة فى مذكراتهم .

غير معروف على وجه التحديد الكثير من التفاصيل عن القديس سمعان الخراز .. ولكن التاريخ يؤكد أنه كان موجوداً فى بابليون (مصر القديمة) فى زمان البطريرك الأنبا إبرآم السريانى (975 ـ979م) ، وفى عهد الخليفة المعز لدين الله الفاطمى ، أول حكام الدولة الفاطمية فى مصر ، وكانت حرفته دباغة الجلود ، ومعها صناعة الأحذية وخلافه .

هناك قصة مشهورة عنه ، أنه فى أحد الأيام جاءت إليه امرأة لتصلح حِذائها ، وكانت هذه المرأة جميلة الصورة ، فبينما كانت تخلع حِذائها ، انكشفت ساقاها ، فنظرت عيناه إليهما بشهوة . ففى الحال ضرب المِخراز فى إحدى عينيه فأفرغها ، تنفيذاً لوصية الرب : " إن كانت عينك اليُمنى تعثرك ، فاقلعها ، وألقها عنك .. لأنه خيرٌ لكَ أن يهلك أحد أعضائك ، ولا يُلقى جسدك كله فى جهنم" .

لقد نَفَّذ الوصية حرفياً ببساطة ، ولكن الكنيسة لا تسمح بهذا ولا تُعَلِّم به ، إنما هو تصرف بحرية وبساطة ، فسامحته الكنيسة .

كان القديس سمعان الخراز زاهداً متقشفاً ، ظهر هذا من ثنايا حديثه مع الأب البطريرك الأنبا إبرآم حينما سأله عن حياته .. وإنه من المؤكد أنه كان رجل صلاة عجيب.. وكان يقوم بخدمة الشيوخ والمرضى ويوصل لهم الماء كل يوم .. وكان يوزع الخبز والطعام يومياً على المحتاجين فى المنطقة . وكان القديس مُتواضعاً للغاية ، وذا إيمان قوى جداً .

كان المُعز لدين الله الفاطمى رجلاً مُحِباً لمجالس الأدب ، والمباحثات الدينية .. وكان هناك رجلاً يهودياً متعصباً ، اعتنق الإسلام لينال منصبه ، اسمه " يعقوب بن كلس" . وكان مبغضاً للمسيحيين ، خاصة " قزمان بن مينا الشهير بأبى اليمن" .

فى يوم من الأيام أرسل الخليفة للأب البطريرك ليحدد موعداً ليُحاجج اليهود أمامه .. فاصطحب معه الأنبا ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونيين (بالصعيد) .. فبدأ الأسقف باتهام اليهود بالجهل ! ، وأفحم اليهودى باستشهاده بالآية القائلة : " الثور يعرف قانيه ، والحمار معلف صاحبه . أما إسرائيل فلا يعرف ! شعبى لا يفهم" (إش1:3) . كان من أثر ذلك أن تضايق الوزير بن كلس للغاية ، وأخذ هو ورفيقه موسى فى التفتيش فى الإنجيل عن أى آية ترد له اعتباره .. فوجد " لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل ، لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل ، ولا يكون شىء غير ممكن لديكم" (مت 20:17) .

فأسرع وأراها للخليفة ، وطلب منه أن يجعل النصارى يثبتون صحة هذا الكلام .. فأعجب الخليفة بالفكرة ، وخاصة أنه فكَّر فى إزاحة الجبل الجاثم شرق المدينة الجديدة (القاهرة) . أما إذا عجز النصارى عن تنفيذ هذا الكلام ، فهذا دليل على بُطلان دينهم ، ومن ثم تحتم إزالة هذا الدين .

أرسل الخليفة للبابا وخيَّرهُ ما بين تنفيذ الوصية ، أو اعتناق الدين الإسلامى ، أو ترك البلاد ، أو الموت ! فطلب البابا من الخليفة ثلاثة أيام ، ونادى بصوم واعتكاف إلى جميع الشعب .. وفى فجر اليوم الثالث ظهرت السيدة العذراء للبابا ، وأرشدته بأن يخرج ، وسيلتقى عند خروجه برجل يحمل جرة ، وهو الذى ستحدث المعجزة على يدية .

خرج البابا بالفعل ، وقابل القديس سمعان ، وتحدَّث معه ، عن حياته وروحياته ، وسبب فقده لعينه.. إلخ . فقال القديس للبابا أن يصلى مع الشعب كيرياليسون 400 مرة ويصلى صلاة القداس ، وهم يحملون الأناجيل والصلبان والشموع .. وهو سيقف معهم خلف البابا كواحد من الشعب . وبعد ذلك يجب على البابا السجود مع الكهنة ويرسم الجبل بعلامة الصليب المقدسة ، وسيرى مجد الله .

وبالفعل تم كل هذا .. وبعد أن رفع البابا يده ورسم علامة الصليب المقدسة على الجبل،

إذ بزلزلة عظيمة تحدث ، ومع كل قيام من سجدة يرتفع الجبل ، ومع كل سجدة يندك الجبل وتظهر الشمس من تحته وهو يتحرك .

وانزاحت الغُمة ، ولكن القديس سمعان الخراز هرب من المجد الباطل إلى ساعة موته ، وظهور جسده فى مصر بعد ذلك ، و تقع كنيسته على جبل المقطم .

ومن القصص الأخرى التى وردت فى هذا الكتاب قصة بطرس عديم الرحمة الذى تحول بفضل رغيف ضرب به أحد الفقراء إلى بطرس العابد .

بدأ بطرس حياته عشاراً قاسياً فى معاملته ، شديداً فى شحه و بخله حتى لقبوه بالذى لا رحمة فيه قصده فقير ذات يوم يسأل صدقة ، فلم يجبه إلى طلبه - لكن السائل استمر فى إلحاحه ، واتفق أن وصل غلامه يحمل خبزاً ، فأخذ خبزة وألقاها فى وجه الفقير قاصداً ضربه و ليس بقصد الرحمة - لكن ذلك الفقير انحنى نحو الخبزة و أخذها وانصرف . وأراد الرب أن يغير قلب ذلك الرجل ، و يحطم تمثال الذهب الذى نصبه فى قلبه ، فرأى بطرس فى تلك الليلة حلما و كأنه فى يوم الدينونة ، واقفا للمحاكمة أمام الملائكة . و لم توجد له حسنات سوى تلك الخبزة التى قد ضرب بها الرجل الفقير . واستيقظ من نومه مذعورا مرتجفا - وأخذ يفكر فى ذلك الحلم ، و معه أخذ يلوم نفسه على عدم رحمتها . و كان ذلك سببا فى ان تحول شحه و بخله إلى رحمة بالغة - حتى أنه بعد توزيع ثورته على الفقراء لم يجد شيئا يتصدق به إلا ثوبه الذى يرتديه ، فخلعه و تصدق بثمنه ، و قيل أنه لما لم يبق له شئ ترك بلده ومضى ، فباع نفسه عبداً و تصدق بالثمن على الفقراء . و لما اشتهر أمره وذاعت فضيلته قصد برية شيهيت ، وأمضى بقية حياته فى عبادة و نسك أهلته فى النهاية إلى أن يعرف ساعة انتقاله من العالم .

و من المعالم الإسلامية التى جذبت انتباه الرحاله الروس و أثارت دهشتهم بئر يوسف الذى نسبوه خطأ إلى نبى الله يوسف ، حتى أن أكثر من عاش منهم فى مصر (بارسكى) قال أنه لم يتسن له أن يرى مثل هذا الشئ فى أى مكان زاره ، . و منهم من اعتبره جب يوسف ، و منهم من اعتبره الزنزانة التى سجن فيها يوسف . لكن الحقيقة أن النبى يوسف لم يعش فى هذا المكان مطلقاً ، إذ قبل القرن الثانى عشر الميلادى لم يكن هناك فى هذا الموقع شئ على الإطلاق . و البئر ينسب إلى الناصر يوسف صلاح الدين بانى القلعة فى القرن الثانى عشر الميلادى ، و البئر بالفعل معجزة هندسية مائية معقدة .

تقع البئر بالناحية الجنوبية من جامع الناصر محمد بن قلاوون . و قد اشتهرت هذه البئر باسم يوسف حيث نسبته الأساطير الشعبية إلى النبى يوسف عليه السلام . كما تسمى أيضا بئر الحلزون .

وقد نُسبَت خطأ إلى نبى الله يوسف بن يعقوب عليهما السلام ، بينما الصحيح أنه تنسب إلى الناصر يوسف صلاح الدين . وقد ذكر المؤرخ المقريزى وصفا لهذه البئر ، حيث قال : " هذه البئر من العجائب استنبطها قراقوش ... وهذه البئر من عجائب الأبنية تدور البقر

من أعلاها فتنقل الماء من نقالة فى وسطها ، و تدور أبقار فى وسطها تنقل الماء من أسفلها ، ولها طريق إلى الماء ينزل البقر إلى معينها فى مجار ، وجميع ذلك حجر منحوت ليس فيه بناء . وقيل أن أرضها مسامتة أرض بركة الفيل وماؤها عذب . سمعت من يحكى من المشايخ أنها لما نُقِرَت جاءت حلوة عذبة فى أول الأمر ، و لما أراد قراقوش زيادة مائها وسع نقر الجبل فخرجت منها عين مالحة غيرت حلاوتها .

" وفى أعلى البئر ساقية عادية يجرها ثوران ، وفى منتصف البئر حوض أول يمتلئ بماء هذه الساقية . وفى هذا المكان توجد ساقية أخرى يديرها حصان أو ثور لرفع الماء من قاع البئر إلى هذا الحوض . ويوجد منحدر ينزل منه الإنسان إلى الحوض الأول من البئر ، وقد نحت فى الصخر فى مدار حلزونى ذى خطوط مستقيمة" .

" وعمق البئر يبلغ تسعين متراً منها حوالى 85 متراً محفورة فى الصخر ، وتتكون من طابقين أو بئرين متساويين فى العمق تقريباً . وتبلغ مساحة مقطع البئر العلوية خمسة أمتار ، بينما تبلغ مساحة مقطعه السفلية 3 , 2 متر مربع . وكان البقر ينزل إلى البئر لتدوير ساقية تقع أعلى البئرين ، وكان الغرض من هذه البئر عند حفرها هو توفير المياه اللازمة للشرب" .

ولعل الوصف التالى كان أقرب إلى ما وصفه الحجاج الروس . " وثمة بقرتان كانتا توجدا أعلى البئر . كانتا تقومان بإدارة الساقية ، التى تقوم برفع سلسلة من القواديس المملوءة بالمياه من حوض أول يوجد فى منتصف الارتفاع الإجمالى للبئر ، حيث كانت توجد ساقية أخرى يديرها حصان لرفع المياه من قاع البئر إلى الحوض الأول" .

وهناك معلومات أكثر دقة عن هذا البئر العجيب ، إذ أن هذان القسمان بالبئر لا يقعان على مستوى عمودى واحد . فأولهما تبلغ مساحته خمسة أمتار مربعة أو 54 قدم مربعة ، والثانى تبلغ مساحته 2.3 متر مربع أو 25 قدم مربعة . وتقدر المسافة بين كل قادوس وآخر بثمانين سنتيمتراً أو 31.5 بوصة . ويبلغ عدد القواديس فى البئر الأولى 138 قادوساً ، ويبلغ قطر الساقية 1.98 متراً أو 6.5 قدم . والوقت اللازم لرفع المياه بوساطة هذه القواديس من الحوض الأول إلى مستوى القلعة هو 24 دقيقة .

ومن المعلوم أن بئر النبى يوسف لا يوجد فى مصر يقيناً ، لأنه كان يعيش مع أخوته فى البادية . وهناك بئر فى منطقة الخليل على طريق القوافل فى فلسطين ، وهناك بئر آخر فى نابلس أيضاً ينسبونه إلى يوسف أيضاً ، ويسمى بئر يوسف بالجب الذى ألقى فيه يوسف وهو صغير بسبب غيرة أخوته منه .

وعن أن الحجاج رأوا فى القلعة قصور يوسف ومخازن غلال يوسف ، فهذا الكلام بعيد جداً عن الحقيقة . وكل ما وصفوه على أنه قصر يوسف ينطبق - على ما يبدو - على مسجد الناصر محمد بن قلاوون بقبته وأعمدته . وقد حدث هذا الخلط بسبب الفكرة المسبقة التى كانت عندهم بأنه حيث يوجد بئر يوسف توجد قصوره ومخازنه .

تطرق الكتاب لمواضيع عديدة تخص الزراعة ، والتجارة ، والنيل ، والحيوانات وأشياء لم تكن معروفة للشعب الروسى . ولم يخلُ وصفهم لها من المبالغات والخرافات . ويمكن أن نرجع ذلك إلى أن هذا كان من سمات ذلك العصر . والكتاب يتضمن بعض النقد القاسى للعرب (المصريين) والأقباط . واقتضت الأمانة العلمية أن نقوم بترجمة الكتاب كما هو. ولم نرَ أن الحذف لبعض الجمل أو الانتقادات سيجمل الصورة إذ أنك لابد أن تعرف كيف كان يراك الآخر ، وإن كان متجنياً بعض الأحيان فى وصفه .

الكتاب فى مجمله يستحق القراءة وجدير بالدراسة ، لأنه يضىء فترة مظلمة فى التاريخ المصرى ، ويبين الشغف الروسى القديم بمصر وأرضها ومعالمها الدينية الخالدة .

و أريد أن أتوجه بخالص الشكر و التقدير للأستاذ الدكتور حسين الشافعى على إتاحة الفرصة لى لترجمة هذا الكتاب الشيق ، كما أشكره مجدداً على النصائح والتوجيهات الغالية التى ساعدتنى فى أنجاز هذه المهمة الشاقة .

***

د. محمد رياض

المقدمه

كتب ف . م . لومونوسوف فى عام 1743 م : « لقد بنيت لنفسى رمز الخلود أعلى من الأهرامات ، وأمتن من النحاس » . وذكر لومونوسوف القاهرة كثيراً فى قصائده الأخرى « ملوك منف » أى فراعنة عصر الدولة القديمة ، الذين كانوا يتخذون منفاً[1] عاصمة لهم، ومن الواضح أن المثقفين الروس كانت لديهم بالفعل فكرة جيدة عن مصر فى منتصف القرن الثامن عشر ، والسؤال الذى يطرح نفسه كيف تكونت هذه الفكرة ؟

تولى عالم المصريات س . ن . بيتروفسكى الإجابة على هذا السؤال منذ ثلاثين عاماً فى مقالته التى نشرت فى ملحق كتاب التشيكى « فويتيخ زاماروفسكى » « أصحاب الجلالة الأهرامات » ، فقد قام بتحليل المصادر التى استمد منها مواطنونا معلوماتهم عن مصر القديمة[2] . وتوصل المؤلف إلى نتيجة أن هذه المصادر يمكن تقسيمها إلى مجموعتين: المجموعة الأولى ـ الأساسية ـ مذكرات الرحالة الروس الذين زاروا بلد النيل . والمجموعة الثانية تتضمن ترجمات أعمال الكتاب الأجانب عن مصر ، والتى نشرت فى روسيا .

وقد كان اهتمام س . ن . بيتروفسكى كعالم مصريات مُنصَباً فى المقام الأول على المعلومات التى تخص مصر القديمة ، على الرغم من أن مقالته تحتوى على آراء مواطنينا عن القاهرة ، والنيل ، وطبيعة البلاد . على كل حال ، فالمؤلف لم يستشهد بكل «الرحلات»ـ هذه الكلمة كانت تطلق على هذا النوع الأدبى ـ عندما شرع فى تفحص تلك الفترة الزمنية . وفى المقالة شىء من التحفظ ، مما يرجح أنها كتبت فى العهد السوفيتى . ولم يُذكر فى المقالة بشكل عام أن جميع الروس الذين زاروا مصر قبل بداية القرن التاسع عشر ، وكتبوا مذكرات عنها ، كانوا حجاجاً أرثوذكس متجهين إلى الأماكن المقدسة فى فلسطين وسيناء ، أو سفراء للشئون الكنسية . ولكن ليس مفهوماً لماذا قاموا بهذه الرحلات الطويلة الشاقة . وهذا النقص إلى حد ما عوضته مقالة عالم اللغة « ف. جومينسكى » التى نشرت على موقع « الأرثوذكس الروس »[3] بتاريخ 18/ فبراير/2006 . واقتصرت هذه المقالة على الحديث عن الحجاج الروس فقط .

1 ـ مؤلفات م . ف . لومونوسوف ، 1961 موسكو ـ لينينجراد 1961 ، ص 247 ، 53 ، 65 .

2 ـ س . ن . بيتروفسكى . مصادر المعلومات عن مصر القديمة فى روسيا فى القرن الـ 11 ـ 18 // فويتيخ زاماروفسكى ، أصحاب الجلالة الأهرامات . موسكو عام 1981 ، الطبعة الثانية ، موسكو عام 1986 م ، ص 387 ـ 406 .

3 ـ فيكتور جومينسكى . مصر وسيناء فى عيون الحجاج الروس http://www.pravoslavie.ru/orthodoxchurches/41563.htm

علاوة على ذلك فقد كان كتاب أ . س . كيريللينا[4] الرئيسى ، والذى نشر مؤخراً ، كان أيضاً مخصصاً للحجاج الروس ، إلا أن مصر لم تشغل فيه سوى مواضع محدودة، ولهذا فإن انطباعات مواطنينا عن مصر متناثرة على صفحات الكتاب الضخم .

وقد أورد مؤلفو الأعمال المشار إليها الرحلات بصورة انتقائية ، لذلك فاللوحة الكاملة «لاستيعاب» مصر من قبل مواطنينا لم تكتمل . وبالفعل فالاستشهاد القائم على النزاهة لا يغنى أبداً عن الاطلاع على الأصل . ومنذ حوالى نصف قرن تقريباً ، قام المهاجر الروسى الذى كان يقيم فى القاهرة أوليج فاسيليفيتش فولكوف (1913 ـ 1987) بناءً على تكليف من المعهد الفرنسى لعلوم الآثار الشرقية فى القاهرة بجمع النصوص الأصلية لكتابات هؤلاء الرحالة الروس فى مجلد واحد .

وكان من نتيجة هذا العمل ظهور كتاب فولكوف « الرحالة الروس فى مصر »[5] باللغة الفرنسية ، غير أن هذا العمل المتقن الذى يتناول الفترة الزمنية حتى منتصف القرن العشرين لم يخلُ من النقص . وتمثل النقص الرئيسى فى عدم قدرة أوليج فاسيليفيتش فولكوف الاستعانة بالمكتبات الروسية ، وعليه فقد استطاع فولكوف فقط جمع جزء من النصوص الخاصة بمواطنينا الذين زاروا مصر . لذلك فإن كتابه فعلياً لا يعد مرجعاً شاملاً للباحث الروسى[6] .

كل ذلك أدى إلى حتمية إعداد إصدار متخصص . يتضمن الجزء الأول لهذا الإصدار النصوص الأصلية للمذكرات المعروفة عن زيارة الروس لمصر حتى بداية القرن التاسع عشر بدون استثناء ، ويضم الجزء الثانى ترجمة هذه النصوص إلى اللغة المعاصرة ، أما الجزء الثالث فيشمل البحث القائم على دراسة و تدقيق النصوص للمعلومات التى تحويها تلك المذكرات . وكان الحد الفريد من نوعه فى تعرف مواطنينا على بلد النيل بداية القرن التاسع عشر .

فى أعقاب الحملة الفرنسية على مصر (1798 ـ 1801) تزايد الاهتمام بمصر فى أوروبا وروسيا بشكل ملحوظ . وكان اعتلاء محمد على العرش عام 1805 م ـ الذى بدأ تحويل وجه مصر شطر أوروبا – قد يسر للأوروبيين ، بما فيهم الروس ، زيارة بلد النيل . وكان قيام جان فرنسوا شامبليون بفك رموز الكتابة الهيروغليفية المصرية القديمة فى عام 1822 م إيذاناً بميلاد علم جديد هو علم المصريات . وأخيراً فإن بداية القرن التاسع عشر كانت فترة ازدهار الأدب الروسى ومن بين روافد هذا الأدب .. أدب الرحلات الذى نحن بصدده .

كل هذه العوامل جعلت التعبير فى الأدب الروسى عن مصر حتمياً ، وأصبحت «

4ـ س . أ . كيريللينا ـ الرحالة المفتونين . العالم العربى ـ العثمانى بأعين الحجاج الروس فى القرن الـ16 - 18 ، 2010 .

5ـ Volkoff , Oleg V.Voyageurs ruses en Egypte. Cairo,1972.

6ـ ذلك كان دليلاً على أن كيريللينا لم تستعن به فى عملها ، إذ أن فهارسه ترجع إلى أربعمائة عام تقريباً .

الرحلات» تظهر كثيراً ، وأضيفت إليها مؤلفات الرحالة غير الكنسيين ، والتى كانت كثيراً ما تتصف بالإتقان والارتكاز على مبادئ العلوم . ومن أمثلة هذه الكتب، الكتب الخاصة بالآتية أسماؤهم « أوسيب سينكوفسكى »[7] ، و « أندرى مورافيف»[8]، و « افرام نوروف »[9] ، و « يجور كوفاليفسكى »[10] ، و «ألكسندر أومانتس»[11] .

بعد ذلك أصبح هذا التعميم نسبياً للغاية ، إذ أن الأرشمندريت « قنسطنطين » ـ الذى زار الإسكندرية عام 1795 ـ لم يصف ما رآه فحسب ، بل كان يستدل عقلياً عن المكان الذى تم جلب المواد الخام منه لبناء المدينة القديمة ، وزمن شق قناة المياه العذبة إلى الإسكندرية، ولماذا بقيت « مسلات كليوباترا » ، أما كيربرونيكوف الذى زار مصر فى الربع الأول من القرن التاسع عشر فلم يخرج فى كتابه عن إطار « الرحلة » التقليدية . لذلك تحديداً ، يتضمن هذا الإصدار مقتطف منها .

منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر تزايدت أعداد الكتب عن مصر مثل كتلة الثلج . ووفقاً لإحصاءاتنا فإنه بعد الحرب (الروسية – التركية 1877 ـ 1878) ، وحتى نهاية القرن ، كان قد تم نشر عشرة كتب حوت مقالات عن مصر[12] ، بالإضافة إلى المطبوعات الصحفية . وعلاوة على كتب المقالات ، ظهرت أيضاً كتب عن الحج[13] وعن العلوم . وقد تم إعادة إصدار العديد من هذه الكتب والكتب الأكثر قدماً[14] فى السنوات الأخيرة .

على مر القرون لم يكن الدافع الأساسى الباعث للروس على زيارة مصر رغبتهم فى مشاهدة الآثار أو الأغراض التجارية ، وإنما سعيهم إلى الصلاة فى الأماكن المقدسة فى

---

7 ـ مذكرات سينكوفسكى عن رحلة إلى الشرق ، ومن ضمنها عن رحلة إلى مصر ، ونشرت عام 1822 م فى مجلات " الأرشيف الشمالى " و " ابن الوطن " . وعام 1858 كانت جزءاً من المجلد الأول لمجموعة أعمال . ف . كافيرين البارون برامبيوس . تاريخ أوسيب سينكوفسكى ، صحفى ، محرر " مكتبات للاطلاع " ، 1966 ، ص16ـ5 ،210 .

8 ـ أ. ن . مورافيف .. رحلة إلى الأماكن المقدسة . مكتبة سانت بطرسبورج ، 1834 م .

9 ـ رحلة فى مصر والنوبة عام (1834ـ 1835) نوروف افرام . أجزاء 1 ـ 2 ، مكتبة سانت بطرسبورج،1840 م .

10 ـ ى . ب . كوفاليفسكى . . رحلة فى أعماق أفريقيا . أجزاء 1 ـ 2 ، مكتبة سانت بطرسبورج، 1849 .

11 ـ أ . أومانتس . رحلة إلى سيناء والأرض المقدسة مع مقتطفات عن مصر . مكتبة سانت بطرسبورج ، 1850 .

12 ـ ف . ف . بلياكوف . " إلى ضفاف النيل المقدس " الروس فى مصر ، 2003 ، ص 78 .

13 ـ استعراض أدب الرحلات فى القرن الـ 19 أفجوستين (نيكيتين) ، الأرشمندريت . الحجاج الروس بجوار المقدسات المسيحية لمصر . مكتبة سانت بطرسبورج ، 2003 .

14 ـ انظر على سبيل المثال ف . ج . جريجورفيتش ـ بارسكى ، التجول فى الأماكن المقدسة للشرق . فى أربعة أجزاء . 2007 ، أ . س . نوروف رحلة فى الأرض المقدسة عام 1835 ، 2008 ، د . د. سميشلياف. سيناء وفلسطين . من مذكرات الرحلات عام 1865 ، 2008 ، أ . أ . اوختومسكى ـ رحلة إلى الشرق صاحب السمو الإمبراطورى وريث العرش عام (1890 ـ 1891 م) . المجلد 1 ـ 2 ، 2007 ، وآخرين .

سيناء مثل العليقة المشتعلة وجبل موسى ، وزيارة الحراس الذين كانوا هناك (ومازالوا) رهبان دير سانت كاترين الأرثوذكسى الذى شيد فى منتصف القرن السادس . وعلى الأرجح فإن مواطنينا قد علموا عن وجود هذه المزارات المقدسة من القساوسة البيزنطيين بعد تعميد روسيا فى عام 988 م .

فى عام 1001 م ، وفقاً لمدونات « نيكونوفسكى » ، قام الأمير « فلاديمير » بإرسال أول سفراء إلى مصر . فى صيف 9056 ... أرسل فلاديمير ضيوفه كسفراء إلى روما ، وآخرين إلى أورشليم ومصر وبابل[15] لكى يروا البلاد ، ويتعرفوا على عادات شعوبها[16] .

لم يكن واضحاً هل وصل السفراء بالفعل إلى المكان المحدد لهم ؟ ؛ وإذا ما كانوا قد وصلوا إلى تلك الأماكن هل كان ذلك يعنى أنهم شاهدوها بالفعل ، وعادوا بسلام إلى وطنهم ؟ ؛ ولكن كما يبدو من جغرافية السفارات ، فإن هؤلاء السفراء تم إرسالهم لشئون الكنيسة . ولم تستطع الأسباب التجارية أو الأسباب السياسية أن تبرر فى ذلك الوقت إرسال السفارات إلى هذه المناطق البعيدة عن روسيا .

ترجع أوائل الذكريات المكتوبة والمعروفة حالياً عن الحج فى سيناء إلى عام 1370م تقريباً ، والتى كانت نتاج قريحة أرشمندريت دير أرفراميفسكى أجريفينى السمولينسكى . وكانت مذكرات هذا الحاج مختصرة للغاية ، ولم يكن بها وصف للأماكن المقدسة فى سيناء . فقد كانت تقتصر فقط على تقدير المسافات من فلسطين « المسافة من غزة إلى مصر تستغرق 12 يوماً ، ومن مصر (القاهرة) إلى الإسكندرية 6 أيام، أما المسافة إلى جبل سيناء 15 يوماً ، والمسافة من غزة إلى جبل سيناء 15 يوماً ، وحتى الآن يتوافد المسيحيون الأرثوذكس إلى هناك ، ولم يذهب المسيحيون الأرثوذكس لأبعد من ذلك المكان[17] » .

غير واضح من النص المختصر ، هل زار أجريفينى سيناء بالفعل ، وغير مستبعد أنه إستقى هذه المعلومات فى فلسطين ، إلا أن الأرشمندريت السمولينسكى يتحدث عن زيارة الحجاج الأرثوذكس لسيناء كشىء اعتيادى جداً ، وهذا يشير إلى أن الحجاج الروس قد توافدوا إلى سيناء قبل ظهور مذكرات « أجريفينى » بمدة طويلة ، ولتعضيد هذا الافتراض يمكن أن نورد الحجة التالية : من المعروف أن الحجاج الأوائل من روسيا زاروا فلسطين بالفعل فى القرن الحادى عشر . وأشار ن . م . كارامزين[18]: « نحن نعرف من الأدلة المعاصرة ، والتى لا تقل عن كونها أدلة حقيقية ، بأن الروس فى القرن الحادى عشر عاهدوا السماء كثيراً بزيارتها (فلسطين ، ملاحظة ف . بلياكوف) والأماكن المقدسة » .

---

15 ـ تحت مسمى بابليون كما هو واضح ، يقصد به القاهرة المسيحية القديمة ، والمعروفة أيضاً ببابليون المصرى .

16 ـ المجموعة الكاملة للمخطوطات الروسية . المجلدات 9 ـ 10 . المخطوطة البطريركية أو مخطوطة نيكونوفسكى ، موسكو 1965 ، ص 68 .

17 ـ رحلة الأرشمندريت أجريفينى // المجموعة الفلسطينية الأرثوذكسية ، الإصدار الـ 48 ، مكتبة سانت بطرسبورج ، 1896 ، ص 2 .

18 ـ ن . م . كارامزين .. تاريخ الدولة الروسية . 2002 ، ص 131 .

وبدوره استشهد « ب . م . دانتسيج » بـ « حياة القديس فيودوسيى » ، والتى نشرت عام 1856 م ، وكتب أنه « فى عام 1022 م التقى فيودوسيى بيتشيرسكى فى كورسك بالرحالة القادمين من الأماكن المقدسة ، وعزم على زيارة فلسطين[19] » . وفى نفس العام أوفى بعهده « فقد اغتسل فى نهر الأردن ، وسجد لقبر الرب[20] » . ومن الصعب تصور أنه بعد قطع هذه الطريق الطويلة والخطرة إلى الأرض المقدسة لم يصل أحد من الحجاج الروس فى القرن الحادى عشر إلى هناك ، ثم أنها ليست ببعيدة عن سيناء .

لكن الحجة الأساسية التى تثبت أن مواطنينا قد زاروا سيناء قبل عام 1370 م بوقت كبير هى العثور على اثنتين من المخطوطات القديمة التى تم جلبها من روسيا إلى مكتبة دير سانت كاترين . المخطوطة الأولى هى مخطوطة « سفر المزامير » ، التى أرخ لها الباحثون الأوائل بداية القرن الحادى عشر[21] . ولاحقاً أرجعت المخطوطة إلى نهاية القرن الحادى عشر، وبداية القرن الثانى عشر[22] .

أما المخطوطة الثانية فقد عثر عليها الباحث الروسى « يا . ن . شابوف » عام 1995 م . بعد أن اطلع شابوف فى مكتبة دير سيناء على مخطوطة نهاية القرن الثانى عشر « سين سلاف 39 » ، والتى اعتبرت مخطوطة صربية ، توصل إلى أن هذه المخطوطة هى مخطوطة - سفر أعمال الرسل مع تقويم للأعياد المسيحية - وهى مخطوطة روسية قديمة ، إذ يوجد فى هوامش الصفحات تذييل بالأسماء . وأشار يا . ن . شابوف أنه بلا شك ، وتحديداً من أجل هذه الأسماء ، ومن أجل الصلاة عليهم صلاة الغائب فى دير سيناء المقدس ، فقد تم إحضار هذا الكتاب من روسيا إلى سيناء ، وهو الأمر الذى كان يجب أن يقوم به أحد أبناء روسيا ، خاصة بعد وفاة صاحب هذه الوديعة فى القرن الثالث عشر[23] .

كان توجب على الحجاج الروس الوافدين لزيارة سيناء من فلسطين ، زيارة القاهرة من أجل الحصول على تصريح مكتوب لزيارة دير سيناء من المقر التابع للدير فى القاهرة ، وبدون ذلك التصريح - الذى ظل سارياً حتى نهاية القرن التاسع عشر - لم يكن يمكن بأى حال من الأحوال الوصول إلى الدير . لذلك كانت جميع الرحلات تتضمن أخبار عن مصر نفسها . ولم تكن هذه الأخبار فى أحيان كثيرة تُعبر عن مشاهدات عينية ، وإنما إعادة سرد للمعلومات التى حصلوا عليها من القساوسة الأرثوذكس اليونانيين ، وفى كثير من الأحيان كانت معلومات غير صحيحة، إذ أنها كانت تروى للزوار فيما يطلق عليه « من أجل مزحة لطيفة » . وكان الرحالة أنفسهم يزخرفون ما رأوه لكى يدهشوا مواطنيهم بقوة .

19 - ب . م . دانتسيج . الشرق الأقصى فى العلوم الروسية والآداب (فترة ما قبل أكتوبر) 1973 ، ص 7 .

20 - م . ب . سولوفيوف . الأرض المقدسة وروسيا . مكتبة سانت بطرسبورج ، 1844 ، ص 12 .

21- Altbauer M., Lunt H.G An Early Slavonic Psalter from Rus. Harvard.1978.

22- Tarnanidis I.C. The Slavonic Manuscripts Discovered in 1975 at St. Catherine´s Monastery on Mount Sinai. Thessaloniki,1988, p. 109.

23 - يا . ن . شابوف .. ثلاثة أيام فى دير سانت كاترين // جيناديوس . مجموعة مقالات بمناسبة مرور 70 عاماً ، الأكاديمى ج . ج . ليتافرين .. موسكو 1999 ، ص 287 .

وجه الحجاج الروس عند مشاهدتهم القاهرة والمدن المصرية الأخرى جل اهتمامهم إلى الآثار والمزارات المسيحية المقدسة ، وضمنوا فى وصفهم بغزارة موضوعات من الكتاب المقدس. وكان هذا الوصف يبدو أقرب إلى الحقيقة ، حيث أن هذه الأماكن المذكورة مازالت قائمة حتى وقتنا هذا . ولذلك فإن رحلات المواطنين الروس لا تبين لنا فقط الكيفية التى تراكمت بها المعلومات فى روسيا عن مصر ، بل تعد مصدراً قيماً لتاريخ المسيحية فى هذا البلد .

يحظى وصف دير سانت كاترين والمزارات المقدسة فى سيناء باهتمام كبير لنفس السبب ، وهو بقاء تلك الأماكن التى شاهدها الحجاج الروس قائمة حتى الآن . غير أن ذلك الوصف غير مدرج فى هذا الإصدار . سيتم تخصيص بحث مستقل لهذا الوصف بصورة لائقة.

لم يقتصر إهتمام مواطنونا بالطبع على التعرف على الآثار المسيحية والمزارات المقدسة ، بل كانت هناك أشياء كثيرة بالنسبة للمواطن فى مصر تثير دهشته ، مثل : الطبيعة والمناخ والمملكة الحيوانية وأساليب الزراعة ونمط الحياة ، فضلاً عن الآثار . كل هذه الموضوعات وغيرها تم تناولها بطريقة أو بأخرى فى مذكرات الحجاج .

جميع النصوص التى يتضمنها الإصدار الحالى أخذت بالفعل من المنشورات العلمية فى نهاية القرن التاسع عشر ، وبداية القرن العشرين . وهذا لا يعنى أن هذه النصوص أصبحت معروفة فى تلك الفترة فقط ، بل إنه قبل ظهور هذه المنشورات بسنوات عديدة انتشرت نصوص الرحلات فى العديد من السجلات ، والتى احُتفظ بها فى مكتبات الدير والمجموعات الخاصة ، وكانت متاحة للاطلاع لعدد كبير من مواطنينا . من النصوص المشهورة التى لم تدرج فى هذا الإصدار مذكرات الأرشمندريت « ليونتى » منتصف القرن الثامن عشر ، حيث أنها لم تنشر حتى الآن ، باستثناء مقتطفات قصيرة[24] . وتوجد المخطوطة الأصلية لتلك المذكرات فى أرشيف السياسية الخارجية للإمبراطورية الروسية [25] .

لم أرى ضرورة سرد معلومات تفصيلية عن المؤلفين وكيف وصلوا إلى مصر ، إذ أن قضيتى تكمن فى تتبع الكيفية التى تراكمت بها المعلومات فى روسيا عن مصر بفضل الحجاج والرحالة الروس . ويستطيع الراغبون فى الحصول على مثل تلك المعلومات بدون أى مشقة بالتوجه إلى المصادر الأولى .

فى الختام أعرب عن شكرى الصادق لطالبة الدراسات العليا « يكاترينا فيكتوروفنا فيودوروفا » بكلية اللغات والآداب فى جامعة موسكو الحكومية المسماة ف . م . لومونوسوف على إعداد النصوص الأصلية للنشر ، وترجمتها إلى اللغة المعاصرة .

---

24 ـ أ . ب . بابوف . جريجوروفيتش الصغير . الحاج المكتشف حديثاً عبر الأماكن المقدسة . كرونشتادت ، 1911 ، الأرشمندريت ليونتى . تاريخ حياة جريجوروفيتش الصغير (مقتطفات) // رحلات إلى الشرق فى عصر كاترينا الثانية ، 1955 ، ص 300 ـ 305 .

25 ـ أرشيف السياسية الخارجية للإمبراطورية الروسية . فرع " مكتبة القسم الآسيوى " 505 ، د4 ـ 13 .

أما شكرى الجزيل فنقدمه للصديق العزيز الدكتور حسين الشافعى رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير دار نشر " أنباء روسيا " ، وهو كذلك رئيس الجمعية المصرية - الروسية للثقافة والعلوم ، وهو المضطلع بدور كبير وأساسى - بل ورائد حقاً - فى نشر وتدعيم التواصل الثقافى والتاريخى بين بلدينا . الدكتور حسين الشافعى - إضافة إلى تبنيه لمشروعات جمع التراث والمخطوطات العربية بدول الاتحاد السوفيتى السابق - يقوم كذلك بتبنى مشروعات ثقافية - كالمؤتمر الدولى للعلاقات الثقافية المصرية - الروسية، والذى عقدت دورته الأولى بالقاهرة سبتمبر 2013 ، كذا مشروع الاحتفاليات الكبرى بالذكرى الـ 50 لتحويل مجرى نهر النيل كأكبر مشروع للتعاون المصرى - السوفيتى فى القرن العشرين ، أضف إلى ذلك دوره فى مشروع إطلاق القمر المصرى ايجيبت سات فى أبريل 2014 كنتاج للتعاون المصرى - الروسى فى القرن 21 .

يتبنى الدكتور حسين الشافعى إلى جانب كل ذلك مسئوليات هامة فى إصدار ترجمات عربية لأعمال كبار المستشرقين الروس ، وترجمات للأدب العربى للروسية ، وله على كل ذلك - جزيل شكرنا وتقديرنا . ولعلنا بهذا الإصدار لهذا الكتاب قد نكون قد خطونا خطوة إضافية فى برنامج الإصدار المشترك الذى يتبناه الدكتور حسين الشافعى مع معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية وعميده المستشرق المعروف فيتالى ناؤمكين.

ف . ف . بلياكوف

***

الفصل الأول



الفصل الأول :

- **الراهب فارسونوفى (عام 1462 م)[26] :**

توجهت من هنا (من قبرص) إلى دمياط[27] فى الأراضى السورية[28] ، ثم توجهت من دمياط إلى مصر (القاهرة) عبر النيل ، ووصلت القاهرة فى يوم ذكرى الرسول القديس « أندرى بيرفوزفانى »[29] فى فترة صيام « فيليبوف[30] » ، ولقد مكثت فى القاهرة ستة أسابيع. ومدينة مصر (القاهرة) مدينة كبيرة وقائمة فى أرض مستوية على سفح جبل[31] ، و يجرى بجوارها نهر من الجنة ، هو نهر النيل ذو المجرى الذهبى . والاسم الآخر لهذا النهر هو جيون . ويبلغ عرض مدينة القاهرة ميلين ، أما طولها فيبلغ اثنى عشر ميلاً ، ورأيت فى مصر وحش ضارى[32] .

يوجد على مسافة ميلين ونصف من القاهرة نبع للماء المقدس يسمى « البلسم » . وقد جاء إلى هنا ربنا يسوع المسيح من مدينة أورشليم مع أمه العذراء الطاهرة مريم ويوسف حارسهما . كما يوجد فى الجهة الشمالية مكان مقدس ، حيث أقام فيه الرب مختبئاً من الملك هيرودس . وتوجد هناك أيضاً مزرعة للعنب مع كرمات مقدسة يتدفق منهن المز فى عيد « كوكولنيتسا[33] » ، وعيد ميلاد « يوحنا المعمدان » ، ويقطعون رأس كل كرمة، و يحنون جميع الكرمات للأرض ويضعون أسفلها آنية . ويتدفق المز المقدس لمرة واحدة فى العام ، وتحديداً فى هذا العيد ، ثم يجمع ويقدم للملك المصرى[34] .

---

26 ـ مقتطفات من وصف الرحلة الثانية للشرق عام (1461 ـ 1462 م) . أثناء الرحلة الأولى عام 1456 ، زار فارسونوفى فقط فلسطين . يعتقد الباحثون أنه من سمولينسك أو بولوتسك (فيكتور جومينسكى) . نشر النص لأول مرة : رحلة القس فارسونوفى إلى المدينة المقدسة أورشليم عام 1456 ، وعام (1461 ـ 1462) // المجموعة الأرثوذكسية الفلسطينية ، مجلد 15 ، الإصدار 45 . مكتبة سانت بطرسبورج ، 1896 ، ص 15 ـ 17 ، وقامت ى . ف . فيودوروفا بالترجمة .

27 ـ داميطا (بالعربية ـ دمياط) مدينة تقع على مصب الفرع الشرقى للنيل فى البحر الأبيض المتوسط .

28 ـ غير صحيح . تقع دمياط فى مصر .

29 ـ يوم 30 نوفمبر بالتقويم القديم .

30 ـ هو نفسه صيام عيد الميلاد المجيد الذى يبدأ يوم 28 نوفمبر .

31 ـ يقصد به هضبة المقطم ، وتحد وادى النيل من الشرق .

32 ـ فيما يبدو التمساح .

33 ـ كوكولنيتسا ـ عيد إيفان كوبال ، يحتفل به فى يوم عيد ميلاد يوحنا المعمدان ، يوم 14 يونيو بالتقويم القديم .

34ـ فى فترة زيارة فارسونوفى لمصر كان يحكمها سلطان المماليك ظاهر سيف الدين خوشكاد (1461 ـ 1467) .

يوجد هناك أيضاً حجر من الإردواز[35] جلس عليه ربنا يسوع المسيح. هذا الحجر أصبح مزاراً مقدساً. وقد تم صنع تابوت خشبى حول هذا الحجر له باب من الناحية الشرقية تنبعث منه رائحة طيبة. أمام التابوت المقدس يوجد جرن المعمودية المشيد من الرخام، حيث يغتسلون فى الماء المقدس، ويصل الماء فيه حتى صدر الإنسان. كما توجد هناك أيضاً شجرة التين[36] (الجميز) التى اختبئ فيها ربنا يسوع المسيح من جنود الملك هيرودس.

وصلت إلى نبع «البلسم» وهناك قبلت الحجر المقدس الذى استراح عليه الرب، وشربت الماء المقدس، واغتسلت فى جرن المعمودية المبنى فى الحجر، وقد كان هذا الماء دافئاً وعذباً. وتجولت فى مزرعة الكرم حيث تنمو هناك الكرمات المقدسة. وأعطانى الساراتسينى (المسلمون)[37] حراس هذه المزرعة كرمة واحدة، وقبلت شجرة الجميز التى اختبئ فيها الرب وقطعت غصناً منها[38].

يوجد هناك أيضاً مكان مقدس آخر فى القاهرة نفسها بالقرب من «ميصيور»[39]، حيث عاش ربنا يسوع المسيح ووالدته الطاهرة، وحارسهما يوسف. وفى هذا المكان المقدس توجد كنيسة كبيرة للطاهرة «أم الإله[40]»، ويوجد بجوارها أيضاً كنيسة أخرى، وفيها أربع خدمات دينية: مار جرجس العظيم، القديس ديميترى، القديس نيقولاس صانع المعجزات، والقديس يوحنا المعمدان[41]، والذين يطلق عليهم «ميسترى»[42]. وهذا الدير مخصص للراهبات. ويوجد هناك أيضاً بالقرب من مكان المسيح، كنيسة القديس الشهيد «مرقوريوس[43]».

35ـ إردواز ـ أسود، جاء الاسم من لون الطين الأسود.

36 - فى الحقيقة ـ ليست شجرة تين وإنما قريبة لها، وهى شجرة الجميز. (Meinardus, Otto F. A The Holy Family in Egypt. Cairo, 1986, P.39)

37 - ساراتسينى اسم أطلقه الأوروبيون على المسلمين منذ الحملات الصليبية.

38 - يدور الحديث عن المكان المقدس الخاص بالمسيحيين على حدود مدينة القاهرة المعاصرة، فى المطرية، والمعروف الآن بـ" شجرة العذراء مريم ".
فى هذا المكان، طبقاً لأعراف الأقباط المصريين، فإن العائلة المقدسة قد مكثت هنا أثناء فترة هروبها إلى مصر من الملك هيرودس.

39 - " ميصيور " ـ الاسم العربى المحرف لمصر. فى هذه الحالة يقصد بها القاهرة المسيحية القديمة.

40 - حالياً هى الكنيسة القبطية المعروفة « الكنيسة المعلقة «. تقع الكنيسة فوق حصن بابليون، والذى أنشأه الإمبراطور الرومانى تراجان فى بداية القرن الثانى الميلادى. أنشئت الكنيسة المعلقة على الأرجح فى منتصف القرن السابع .* من المعروف أن الكنيسة المعلقة ،طبقاً للمراجع المسيحية، بنيت فى أواخر القرن الثالث الميلادى، وأوائل القرن الرابع الميلادى (تصحيح المترجم د ـ محمد رياض).

41 - ليس واضحاً أى من الكنائس كان يقصد فارسونوفى. يوجد فى القاهرة القديمة كنيستان: الكنيسة القبطية، والكنيسة اليونانية الأرثوذكسية، وكلاهما باسم القديس مار جرجس.

42 - كما هو واضح، يقصد الدير الأرثوذكسى اليونانى باسم مار جرجس، الموجود فى القاهرة القديمة حتى منتصف القرن العشرين.

43 - كنيسة قبطية شيدت فى بداية القرن السادس.

ولقد ذهبت مرتين إلى المكان المقدس بالقاهرة ، حيث توجد هناك كنائس كثيرة تسمى ميسترى ، وقمت بزيارة كنيسة أم الإله المقدسة ، حيث يوجد مكان مقدس للسيد المسيح ينبعث منه العطر يقع خلف مذبح الكنيسة الكبيرة لأم الإله ، وهناك صليت وقبلت المكان المقدس .

وتوجد خلف نهر النيل مقابل ميصيور (مصر) القديمة مخازن غلال يوسف الجميل[44] ، وتوجد كذلك أشجار النخيل والعديد من الأشجار الأخرى حول النبع المقدس . ورأيت الأشجار التى ينمو عليها العسل البرى والعديد من الأشجار الأخرى ، غير أنى لا أعرف أسمائها .

وتوجد هناك كنيسة باسم القديس نيقولاس صانع المعجزات وسط القاهرة بالقرب من السوق الكبير ، حيث يوجد دير وكنيسة أخرى[45] . وتعد هذه الكنيسة هى المأوى لجميع الرحالة المسيحيين الأرثوذكس .

ويجرى نهر النيل الذهبى العظيم من الجنوب إلى الشمال ، ويصب فى البحر الأبيض المتوسط جنوب مدينة دمياط .

احتفلت بالعيدين العظيمين فى مصر - عيد ميلاد السيد المسيح ، وعيد الغطاس - وتوجهت بعد الاحتفال بعيد ميلاد السيد المسيح إلى جبل سيناء .

44 - يوسف الجميل - ابن يعقوب الذى ذكر فى الكتاب المقدس . قام أخوته ببيعه كعبد فى مصر . وهناك بفضل حكمته وصل إلى منصب الوزير الأعظم وأنقذ البلاد من المجاعة ، ويبجله المسلمون أيضاً . وله سورة فى القرآن باسمه ، رقم 12 ، " يوسف " . كما هو واضح كان يقصد بمخازن الحبوب أهرامات الجيزة .

45 - الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية باسم نيقولاس ، توجد فى حى الحمزاوى بجوار سوق خان الخليلى ، وفى عام 1839 م تم بناءها من جديد بالأموال التى تم استلامها من روسيا (رحلة الأرشمندريت بورفيرى اوسبنسكى فى مصر ، وفى دير القديس أنطون العظيم ، ودير القس بافل فيفيسكى عام 1850 ، مكتبة سانت بطرسبورج ، 1856 ، ص 98) .

- **التاجر فاسيلى (1466 م)[46] :**

من هذا المكان (رام الله فى فلسطين) يمتد الطريق إلى مصر عبر الصحراء ، ويستغرق الطريق من كازى (غزة) إلى قاطى مسافة أربعة أيام . يوجد هنا الكثير من النخيل والمياه المتدفقة من نهر النيل ، ويستغرق الطريق من هذا البلد حتى الخانكة مسافة يومين، ويوجد هنا العديد من الأسواق على بعد خمسة بوبريشى[47] (فراسخ) . ومن القاهرة صوب الخانكة على الضفة اليمنى (للنيل) توجد قرية المطرية ، وبجوار هذه القرية توجد شجرة جميز غير مثمرة . وبحلول المساء اختبأت فى هذه الجميزة أم الإله مع الطفل الأبدى ويوسف عندما فروا من أورشليم إلى مصر . وشجرة الجميز هذه مازالت تنمو حتى هذا اليوم . وعندما أرادت أم الإله أن تشرب ماء فإنها أخذت الصبى ووضعته على الرمال ، وذهبت إلى قرية حيث قابلت هناك امرأة وقالت لها : « أعطنى شربة ماء » ، فأجابتها المرأة : « لا يوجد عندى ماء ، وأنا مثلك أريد أن أشرب ونحن نشرب الماء من نهر النيل » ، فرجعت أم الإله من حيث أتت ، ووجدت تحت قدمى الصبى ينبوعاً متدفقاً . وبعد أن روت ظمأها، عثرت على حجر فوق الرمال ، وغسلت عليه الصبى وملابسه ، ثم أعادته إلى مكانه . وفى هذا المكان نمت أشجار صغيرة ، ومنها يستخلصون الزيت ، ومن يتناول هذا الزيت يشُفى سواء كان مسيحياً أو من أصحاب الديانات الأخرى ، والحجر والشجرة مازالا فى نفس المكان حتى الآن . وتستغرق المسافة من ذلك المكان إلى القاهرة مسيرة نصف يوم .

ووصلنا إلى مصر قبيل عيد ميلاد السيد المسيح بأسبوع فى شهر ديسمبر ، فى يوم ذكرى الشهيد المقدس « سيباستيان »[48] . واستغرق قدومنا من بورصا[49] إلى مصر مائة يوم .

القاهرة مدينة كبيرة جداً ، ويوجد فيها 14 ألف شارع ، ولكل شارع بوابتان ، ومزغلان لضرب السهام ، وحارسان يشعلان الزيت فى الشمعدان . ويوجد فى بعض الشوارع حوالى خمسة عشر ألف منزل ، وفى شوارع أخرى حتى ثمانية عشر ألف فناء[50] ، ويوجد فى كل شارع سوق كبير ، والناس من الشوارع المتجاورة لا يعرفون بعضهم البعض فيما عدا الوجهاء.وسافرنا من مصر يوم 17 يناير[51] فى يوم ذكرى أبونا القس أنطون[52] .

---

46 - مقتطفات من " رحلة التاجر فاسيلى فى آسيا الصغرى ، مصر وفلسطين " . نشر لأول مرة فى : المجموعة الأرثوذكسية الفلسطينية ، إصدار 6 ، مكتبة سانت بطرسبورج ، 1884 . وطبقاً لكلمات المؤلف " تمنيت رؤية الأماكن المقدسة والمدينة " ، وهذا يعنى أنه كان حاج . قامت بأعمال الترجمة ف . ف . فيودوروفا فى إصدار عام 1884 ، ص7 ـ 8 .

47 - بوبريشى ـ وحدة قياس روسية قديمة ، تساوى 750 ساجين ، بما يساوى 1620 متر .

48 - يوم 18 ديسمبر بالتقويم القديم .

49 - بورصا ـ مدينة فى تركيا ، فى شمال غرب الأناضول .

50 - هذه مبالغة واضحة .

51 - هنا ولاحقاً بعد ستكون جميع التواريخ طبقاً للتقويم القديم .

52 - أنطون العظيم (251 ـ 356) ـ مؤسس الإقامة فى الصحراء وأب الرهبنة . فى عام 312 م بجوار مغارة فى الصحراء الشرقية (فى مصر) حيث عاش أنطون ، أقيم الدير الحالى وحتى يومنا هذا ، وهو أول دير فى التاريخ المسيحى .

- م . ج مصيور مونيخين (1493 م)[53] :

عن المدينة العظيمة مصر :

يوجد فى القاهرة العظيمة أربعة عشر ألف مسجد . يحتوى كل مسجد على مائة عمود حجرى (مأذنة) ، ويصعد على العمود مائة شخص وخمسون غيرهم يؤذنون54 .

يوجد فى القاهرة أيضاً أربعة عشر ألف خان . ويسع الخان حتى 300 تاجر . وفى القاهرة يوجد أيضاً 14 ألف شارع ، وفى كل شارع أربعة عشر فناء .

قصر السلطان المسمى بالملكى حجمه بحجم كرملين موسكو[55] . غير أنه لا أحد يعرف السلطان . وتدفع رواتب العمال (بسطاء الناس) ، مثل سواس الخيل والطهاة والخبازين والجزارين والوقادين ، يومياً فى القصر الملكى ، ويبلغ عددهم أربعة عشر ألف فرد[56] .

تقع مصر وراء أورشليم ، ويستغرق الذهاب إليها مسافة 15 يوماً . وما وراء مصر لا يعيش أحد .

ومن مصر إلى المدينة ، حيث قبر محمد يكون السفر على ظهور الإبل فى الصحراء الرملية خمسين يوماً ، ولا يوجد شىء حولك سوى السماء والأرض ، ولا توجد أية غابات . وسرد هذه الرواية أمين خزانة القيصر العظيم ميخائيل جريجوريف[57] ، الذى زار مصر كسفير لمدة أربعين يوماً .

---

53 - نشر فى إصدار : أ . أ . شاخماتوف . رحلة مصيور مونيخين إلى الشرق ، وإصدار كرونوجراف عام 1512 م // قسم أخبار اللغة الروسية والآداب بالأكاديمية الإمبراطورية للعلوم . مجلد 4 (1899 م) الكتاب الأول ، ص 21 ـ 22 . قام بالترجمة من اللغة الروسية القديمة ى . ف . فيودوروفا . ى ..

54 - كما هو واضح ، يقصد المؤذنون الذين يدعون المسلمين للصلاة .

55 - قلعة القاهرة التى أنشئت فى نهاية القرن السابع (التاريخ الصحيح ، القرن الثاني عشر ـ المترجم) .

56 - كل هذه (الآلاف) كما هو واضح مبالغ فيها .

57 - جريجوريف (فى نص آخر جيرييف) ـ هنا هو اللقب من اسم الأب الخاص بميخائيل جيورجيفيتش مونيخين وفقاً للاسم المستعار مصيور .

- **الراهب جريجورى (عام 1547 م)58 :**

يوم 27 فبراير عام 7055 (1574 م) ، حكى عجوز جبل سيناء القس (الراهب جريجورى) للأسقف مكارى مطران عموم روسيا أنه يوجد فى مصر (القاهرة) 14 ألف شارع ، فى كل شارع يوجد 14 ألف فناء حجرى . وفى وسط الضاحية توجد قلعة[59] بحجم مدينة موسكو ، حيث عاش هناك يوسف الجميل[60] . وتوجد فى هذه القلعة كنيسة واحدة هى كنيسة « نيقولاس صانع المعجزات »[61] . ويقوم بالخدمة الدينية فى هذه الكنيسة بطريرك الإسكندرية « يواكيم » .

58 - نشر فى إصدار : أ . أ . شاخماتوف . رحلة مصيور مونيخين إلى الشرق ، وإصدار كرونوجراف عام 1512 م // قسم أخبار اللغة الروسية والآداب بالأكاديمية الإمبراطورية للعلوم . مجلد 4 (1899م) الكتاب الأول ، ص 21 ـ 22 . قام بالترجمة من اللغة الروسية القديمة ف . ى . فيودوروفا ..

59 - قلعة القاهرة .

60 - العديد من الرحالة الروس (على ما يبدو ، نقلاً عن القساوسة اليونانيين) ربطوا بين قلعة القاهرة مع المكان الذى عاش فيه يوسف الجميل . ويوجد هناك مبنى للهندسة المائية ، والمعروف حتى هذا اليوم بـ " بئر يوسف " .

61 - لا توجد الكنيسة فى القلعة ، وإنما غير بعيد عنها فى حى الحمزاوى .

- فاسيلى بوزنياكوف (عام 1558 م)[62] :

فى الصباح أمرنا بطريرك الإسكندرية « يواكيم » بالذهاب معه إلى القاهرة القديمة[63]. تبلغ المسافة إلى القاهرة القديمة ثلاثة فراسخ ، وقد وصلنا من جديد مع البطريرك إلى القاهرة القديمة . وفى القاهرة القديمة توجد كنيسة كبيرة للقديس الشهيد جيورجى (مار جرجس)[64] ودير للراهبات[65] . فى هذه الكنيسة فى الجانب الأيسر توجد على الحائط أيقونة للقديس الشهيد مار جرجس خلف مشربية نحاسية . بجوار هذه الأيقونة تحدث المعجزات والشفاءات ، فهى لا تشفى المسيحيين فقط ، ولكن الأتراك والعرب واللاتينيين[66]، و الجميع بدون انتقاء .

وهناك أيضاً توجد كنيسة أخرى هى كنيسة أم الإله الطاهرة[67] . وتوجد فى القاهرة القديمة أيضاً كنائس للشهداء سيرجيوس وواخس ، وكنيسة رقاد أم الإله المقدسة ، وكنيسة القديسة الشهيدة المسيحية باربارا . ويسيطر على هذه الكنائس فى الوقت الحالى الأقباط المهرطقون[68] . ويوجد لدى الأقباط فى الكنائس أيقونات ومذبح ، إلا أنه لا

---

62 - أرسل فاسيلى بوزنياكوف إلى الشرق بتكليف من القيصر إيفان جروزنى يحمل صدقة لبطريرك الإسكندرية ورئيس أساقفة جبل سيناء من أجل صحة ولدى القيصر إيفان وفيودر . نشرت فى إصدار : رسالة القيصر إيفان فاسيليفتش لبطريرك الإسكندرية يواكيم مع التاجر فاسيلى بوزنياكوف ، والرحلة الخاصة بالتاجر بوزنياكوفى فى أورشليم ، وعن الأماكن المقدسة الأخرى . 1884 م ، ص 8 ـ 9 . قام بالترجمة ف . ى . فيودروف .

63 - مصر القديمة (القاهرة القديمة) تقع فى الحصن الرومانى بابليون ، وأنشأها الإمبراطور تراجان فى القرن الثانى ، وتتركز فيها الكنائس المسيحية .

64 - الكنيسة الأرثوذكسية باسم القديس مار جرجس فى القاهرة القديمة ، ووفقاً للمصادر اليونانية ، ذكرت هذه الكنيسة لأول مرة فى عام 530 م ، إلا أنه من غير الواضح إن كانت تلك الكنيسة موجودة فى هذه الفترة . بداية منذ القرن الرابع عشر كانت توجد الكنيسة داخل إحدى الأبراج المستديرة فى حصن بابليون ، فى عام 1904 م التهمها الحريق ، ولكن بعد خمس سنوات أعيد إنشاءها (см : Beliakov, Vladimir. BYZANTINE Cairo // Places in Egypt, Cairo, May- June 1994.p.37.)

65 - دير الراهبات كان موجوداً حتى منتصف عام 1950 م ، وكان مجاوراً لكنيسة القديس مار جرجس . ويعد جزء من المجمع الذى يضم المدرسة الدينية ، والمستشفى ، ومأوى العجزة والمقابر . وحالياً يقع فى مبنى الدير مقر أسقف بابليون الأرثوذكسى .

66 - كما هو واضح يقصد المسيحيون الأرثوذكس .

67 - من المحتمل أنه يقصد الكنيسة المعلقة .

68 - الأقباط ـ المسيحيون المصريون أصحاب المعتقدات المونوفيزية (الوحدانية) ،المنشقون عن الكنيسة البيزنطينية بعد مجمع خلقيدونية عام 451 م ، كما توجد جميع الكنائس المذكورة حتى يومنا هذا .

يوجد عندهم تعميد[69] ، فهم يختتنون[70] طبقاً للعهد القديم . والآن القاهرة القديمة خاوية ويعيش فيها عدد قليل من العجائز المصريين والأتراك ، ولا يسكنها المسيحيون . وكان يوجد فيها حصن حجرى[71] ، ولكنه هدم ولم يبقَ منه سوى البوابات ، ودخلت من هذه البوابات القديسة أم الإله مع المسيح ويوسف من أورشليم[72] .

أقمنا فى القاهرة القديمة مع البطريرك أربعة أيام ، ثم توجهنا منها إلى دير القديس أرسينى . وتبلغ المسافة من القاهرة إلى دير القديس أرسينى[73] الذى علم القراءة والكتابة لأبناء الملك (هونوريوس وأركاديوس)[74] سبعة فراسخ . يقع الدير على جبل حجرى مرتفع[75]، وبه كهوف حجرية ، حيث يعيش الزهاد الكبار . وكان الدير جميل للغاية ، وفيه قلايات عالية بحالة جيدة داخل الحوائط الحجرية . وفى الوقت الحالى أصبح هذا الدير فارغاً من جراء غزوات العرب[76] .

---

69 - ليس صحيحاً إذ يقومون بتعميد الأطفال قبل أن يبلغوا ستة أعوام فى الكنيسة عن طريق غمسهم ثلاث مرات فى جرن المعمودية المليء بالمياه المقدسة .
. См: Kamil , Jill. Coptic Egypt. History and Guide. Cairo, 1993, p.46
70 - يتم ختان أولاد الأقباط قبل التعميد مباشرة .
71 - الأدق حصن .
72 - طبقاً للتقاليد القبطية : أقامت العائلة المقدسة فى القاهرة القديمة (فى المغارة) أثناء هروبها إلى مصر ، وقد أنشئ أعلاها فيما بعد كنيسة القديس سيرجيوس وواخس .
73 - أرسينى العظيم (354 - 449) قديس مسيحى . فى عام 394 م انتقل من القسطنطينية إلى مصر ، وترهب وتوارى سريعاً عن الأنظار .
74 - هونوريوس وأركاديوس - أبناء الإمبراطور ثيودوسيوس ، الذى استدعى أرسينى الذى اشتهر بثقافته من روما لتربية أبناءه .
75 - كما هو واضح ، يدور الحديث عن جبل المقطم ، الذى يحد وادى النيل من القاهرة إلى الشرق .
76 - لم يبقَ الدير حتى يومنا هذا ، وغير معروف موقعه بدقة .

• تريفون كوربينكوف (عام 1582 م)[77] :

فى الصباح أمرنا البطريرك بالسفر معه إلى القاهرة القديمة ، وبلغت المسافة إلى هناك ثلاثة فراسخ . ووصلنا من جديد مع البطريرك إلى القاهرة القديمة . توجد فى القاهرة القديمة كنيسة كبيرة للقديس الشهيد المسيحى العظيم مار جرجس ، ودير للسيدات. فى هذه الكنيسة فى الجانب الأيسر توجد على الحائط أيقونة للقديس الشهيد مار جرجس خلف مشربية نحاسية ، وبجوار هذه الأيقونة تحدث العديد من البشارات ، فهى لا تشفى المسيحيين فحسب ، بل الأتراك أنفسهم واللاتينيين .

الكنيسة الأخرى هى كنيسة أم الإله الطاهرة . ويوجد فى القاهرة القديمة كنائس مسيحية مثل كنيسة الشهيدين القديسين سيرجيوس وواخس ، ورقاد القديسة أم الإله المقدسة ، والقديسة الشهيدة باربارا . وفى الوقت الحالى يسيطر الأقباط على هذه الكنائس. ويوجد لدى الأقباط فى الكنائس أيقونات ومذبح ، غير أنه لا يوجد عندهم تكريس ولا تعميد . ويختتن الأقباط وفقاً للعهد القديم . القاهرة القديمة فارغة حالياً ، ويعيش فيها فقط القليل من الغجر المصريين العجائز ، ولا يعيش فيها الأتراك والمسيحيون. وكان هذا الحصن بأتلاله من الحجر ، وفى الوقت الحالى تهدم هذا الحصن ، ولم يبقَ منه سوى البوابات ، ومن هذه البوابات دخلت القديسة أم الإله مع المسيح ويوسف من أورشليم .

مكثنا مع البطريرك فى مصر القديمة أو القاهرة أربعة أيام ، ثم توجهنا من هنا إلى دير القديس أرسينى ، الذى عَلم أبناء القيصر " أونوريى وأركادى " القراءة والكتابة . وتبلغ المسافة من القاهرة إلى دير القديس أرسينى سبعة فراسخ ، ويوجد هذا الدير على جبل حجرى مرتفع ، حيث يقيم الزهاد الكبار . وكان الدير غاية فى الجمال ذو قلايات رخامية عالية . وفى الوقت الحالى صار الدير خاوياً من جراء غزوات العرب .

---

77 - كوروبينكوف كان تاجراً موسكوفياً أو ربما كان موظفاً ضمن بعثة إيفان الرهيب المرسلة إلى أرض الشرق المقدسة فى عام 1582 محملة بالصدقة لتأبين روح ولى العهد إيفان المقتول بيد والده - وتكرر رحلة كوربينكوف حرفياً نص رحلة فاسيلى بوزنياكوف كما تشير كل الدلائل إلى أن رحلة كوربينكوف ما هى إلا إعادة صياغة للرحلة السابقة - وقد قام كوربينكوف أو المؤلف الذى كتبت هذه المذكرات تحت اسمه عن الأماكن المقدسة باستغلال مذكرات بوزنياكوف صراحة وضمنها كتابة كاملة حرفياً فى أغلب النص ، وفى أماكن أخرى أعاد ترتيب الكلمات حاذفاً بعض السطور طبقاً لأحداث ذلك الزمن . وكان نادراً ما يضيف كلمة من عنده (إى - ى - زيبلين فى مقدمة رسالة القيصر إيفان فاسيليفيتش ص 3) . غير أن رحلة كوربينكوف ، وليس بوزنياكوف ، انتشرت انتشاراً واسعاً إذ أنها مذكورة فى 400 فهرس (انظر : الرحلات إلى الأرض المقدسة - موسكو - 1995 ص 250) . وأرجح أن إيفان الرهيب أراد أن يظهر تقواه والتوبة عن الذنب الذى اقترفه فأمر كوربينكوف بإعداد مذكرات عن رحلته - وقام كوربينكوف باستغلال رحلة بوزنياكوف كاملة ، وبدون أى زيادة . وربما أنه لم يتواجد فى جميع الأماكن التى وصفها - ولقد لاقت رحلة تريفون كوربينكوف انتشاراً واسعاً بأمر من القيصر - وقد صدر النص فى إصدار (رحلة تريفون كوربينكوف إلى أورشليم ومصر وجبل سيناء فى عام 1583 الطبعة الخامسة 1846 ص 60 - 62 . وقامت بالترجمة ى - ف - فيودوروفا .

- ## فاسيلى جاجارا (عام 1643 م)[78] :

أقمت فى أورشليم ثلاثة أيام وثلاث ليال ، ثم توجهت فى اليوم الرابع إلى مصر . كان الطريق إلى مصر متعباً وشاقاً للغاية يشبه البحر الرملى . ومن المستحيل اجتياز هذا الطريق على ظهور الخيل أو سيراً على الأقدام ، بل يمكن اجتيازه على ظهور الجمال . ويخلو الطريق تماماً من الماء باستثناء المياه الراكدة فى الترع ، وهى غير صالحة للشرب كونها مالحة وذات مذاق مُر ، لذلك فهم يحملون المياه العذبة معهم فى قرب جلدية على ظهور الجمال .

توجد مدينة بجوار البحر يستغرق الذهاب إليها من أورشليم ثلاثة أيام تسمى أريحا[79] ، وباللغة التركية كازيا . وفى هذا الطريق من حيث تهب الرياح ، تأتى الموجات (الرملية) مثل أمواج البحر .

على مسافة سبعة فراسخ من القاهرة توجد قرية تسمى المطرية ، وباليونانية ماريا . وعندما هربت أم الإله مع يسوع على الحمار بصحبة يوسف من بيت لحم إلى مصر ، حملت على السحاب بعيداً عن الملك هيرودس ، ثم هبطت على الرمال[80] بجوار هذه القرية . وعندما أرادت أم الإله أن تروى ظمأها ذهبت إلى هذه القرية وطلبت الماء . غير أنهم لم يعطوها الماء ، وقالوا : « لقد وصلنا أمر من الملك هيرودس بقتل الأطفال الصغار ، وأنتِ تطلبين أن تشربى». ورجعت أم الإله المقدسة إلى يسوع ويوسف غاضبة ، ذلك أن الناس قد أهانوها فى هذه القرية. وكان يسوع الصغير واقفاً على الرمال ، ورأت أمه تحت أقدامه ينبوع متدفق من المياه العذبة ، فروت ظمأها وخلعت ملابسه وقامت بغسلها ، ثم سكبت الماء ، وفى ذلك المكان نبتت شجرة . من هذه الشجرة تقاطر الزيت فى عهد الملوك اليونانيين والملك التركى عام 1430 م . ويطلق على هذا الزيت سميرنا (المرّ) الليفان (البخور) . وقد أبرأت هذه الشجرة والزيت جميع المسيحيين المشلولين والمجذومين والأكفاء . وذات مرة جاءت امرأة من الكفرة الأتراك ودهنت عينيها ، فذبلت الشجرة فى نفس تلك اللحظة ، وظلت جافة أعواماً عديدة . واشترى الألمان هذه الشجرة ودفعوا مقابلها ثمناً كبيراً ، ونقلوها إلى أرضهم .

على مسافة أربعة فراسخ من القاهرة يوجد حجر ذو أربعة أضلاع وقمة حادة ، يبلغ ارتفاعه 12 ساجين[81] ، وعرضه 4 ساجين ، ويطلق عليه الأتراك « رمح الفرعون » .

78 - نشر النص فى إصدار : الحياة والرحلة إلى أورشليم ومصر الرحال فاسيلى ياكوفليف جاجارا (1634 ـ 1637) // المجموعة الفلسطينية الأرثوذكسية ، مجلد 6 ، الإصدار الثالث ، مكتبة سانت بطرسبورج ، ص 13 ـ 31 . قام بأعمال الترجمة ف . ى . فيودوروفا ...

79 - ليست هى مدينة أريحا التى تقع فى وادى نهر الأردن شرق أورشليم ، وإنما مدينة العريش تقع فى شمال سيناء على شاطئ البحر الأبيض المتوسط .

80 - رواية جاجارا عن هروب العائلة المقدسة إلى مصر تختلف عن التقاليد القبطية التى تقول أن العائلة المقدسة انتقلت إلى مصر سيراً على الأقدام ، وليس بشكل إعجازى محمولين على السحاب إلى المطرية .

81 - الساجين يساوى 2.16 متر .

وقد كتب عليه اسمه[82] . وعندما تقترب من القاهرة تظهر أمامك كما لو أنها غابة مظلمة فتلك منارات أجراس المسلمين (المآذن) فوق مساجدهم . لا ينبت فى القاهرة أى نوع من أنواع الثمار باستثناء قصب السكر والنخيل ، ولا يوجد أى نوع من البساتين بسبب الحرارة الهائلة[83] . وبالإضافة لذلك توجد فى القاهرة قصور ضخمة ومخيفة كالجبال العالية وراء نهر النيل الذى يطلق عليه باليونانية جيون ، وتبلغ المسافة إلى نهر النيل ستة فراسخ ، تلك قصور مربعة الشكل قائمة على الجبل لها قمم كقمم الأبراج ، وقام الإسرائيليون ببنائها عندما كانوا مستعبدين من قبل الملك الفرعون[84] فى مصر ، وقد بنيت خصيصاً للفرعون . يوجد ذاك النهر على مسافة ثلاثة فراسخ من القاهرة . ويجلب العرب الماء منه للمدينة ويبيعونه فى القاهرة . وهم يحملونه على الجمال والبغال فى قرب جلدية ويبيعونه بالرحال والأباريق ، وذاك النهر « جيون » يماثل نهر الفولجا .

يوجد فى القاهرة حصن قائم على جبل عال ،حيث يقيم الباشا التركى[85] ، أما الحصن الآخر فيشغل الضاحية بأكملها ، وهو أيضاً مبنى من الحجر وكبير للغاية . ولا يوجد فى أى مكان آخر مثل هذا الحصن الكبير باستثناء القاهرة . توجد على مسافة ثمانية بوبريشى (فراسخ)[86] وراء نهر جيون (أى فى الضفة الأخرى للنهر بالجيزة) (المترجم) بحيرة[87] تصير دامية بداية من يوم الجمعة العظيمة[88] حتى يوم صعود المسيح إلى السماء . وبجوار هذه البحيرة أيضاً بداية من يوم الجمعة العظيمة ، حتى يوم صعود المسيح إلى السماء[89] ، تخرج من الأرض عظام بشرية ورؤوس وأيدى وأرجل وضلوع يتحركون كأنهم أحياء ، وتخرج الرؤوس بشعورها إلى سطح الأرض[90] . وكان يوجد فى القاهرة باشا تركى اسمه

---

82 - يدور الحديث تحديداً عن مسلة الفرعون سنوسرت الأول (1971 - 1928 قبل الميلاد) التى توجد فى المدينة القديمة للكهنة (هليوبوليس) . ودخلت أطلال المدينة ضمن حدود القاهرة المعاصرة ، وتقع بالقرب من المطرية . توصل جاجارا بدقة إلى ارتفاع المسلة الذى يبلغ 22 متر (12 ساجين تساوى 26 متر) .

83 - على الأرجح يقصد جاجارا فصل الصيف ، حيث لا تنبت الخضروات فى الواقع بسبب الحرارة .

84 - الرواية تتحدث عما دار ويدور الآن عن أن الذين شيدوا الأهرامات العظيمة بالجيزة فى فترة الأسر المصرى ، غير أن هذه الرواية لا تطابق الواقع إطلاقاً ، فقد تم تشييد أهرامات الجيزة قبل هجرة اليهود إلى مصر بمئات السنين ، هذا وقد برهنت حفريات العشر سنوات الأخيرة أن الأهرامات شيدها أناس أحرار وليس العبيد .

85 - يقصد قلعة القاهرة حيث كانت حتى نهاية القرن التاسع عشر مقر الحاكم المصرى .

86 - بوبريشى - وحدة قياس روسية قديمة ، تساوى 750 ساجين ، أى 1620 متر .

87 - غير واضح عن أى بحيرة يدور الحديث . فلا توجد بحيرات فى ضواحى الجيزة ، ولماذا تتحول المياه فيها إلى اللون الأحمر فهذا لم يفسره جاجارا . من الممكن أن تكون مجرد أسطورة .

88 - الجمعة العظيمة : يوم صلب يسوع المسيح .

89 - يوم الصعود : هو يوم صعود يسوع المسيح إلى السماء بعد أربعين يوماً من عيد الفصح .

90 - يدور الحديث على الأرجح عن مدينة الموتى القديمة بالجيزة . ومن الملاحظ أن أرسينى سوخانوف أيضاً يقص هذه الرواية (انظر) ، ولذلك فإن كليهما يشير أن هذا يحدث « منذ يوم الجمعة العظيمة حتى يوم الصعود إلى السماء » ،وهذه الفترة الزمنية تتوافق تقريباً مع موسم رياح الخماسين ، وهى رياح جنوبية غربية قوية . ومن المحتمل أنها أظهرت العديد من المقابر التى كانت مختبئة تحت الرمال .

« سفير » يبغض الديانة المسيحية . أمر هذا الباشا بوضع كل العظام فى حفرة كبيرة وردمها . وفى الصباح التالى كما فى السابق خرجت تلك العظام إلى سطح الأرض ، ذلك لأنه ينبغى عليها أن تتحرك حتى اليوم الموعود ، وهو يوم صعود المسيح إلى السماء . تقع القاهرة القديمة على مسافة أربعة فراسخ من مدينة القاهرة . ويوجد فى القاهرة القديمة معبد أم الإله المقدسة[91] الذى يقوم فيه الأقباط بخدمة ديننا . فى ذاك المعبد ، ولمدة سبع سنوات ، عاشت أم الإله مع ربنا يسوع المسيح ويوسف[92] مختبئين من الملك هيرودس ، عندما كان هذا الملك يبحث عن ربنا المسيح - الطفل - لكى يقتله .

توجد تلك الحجرة فى المعبد أسفل المذبح ، ويهبطون إليها عبر عشرة سلالم ، ولا ينزلون إلى هناك بدون شموع إذ أن الغرفة مظلمة . وأنا - العبد كثير الخطايا - ذهبت خصيصاً إلى مصر القديمة لأشاهد وأصلى حيث عاشت أم الإله مختبئة مع يسوع ويوسف من الملك هيرودس . وقد قدمت عن نفسى وعن ذلك الشخص الذى كان معى ثمان قطع من النقود ، واشتريت شمعة ، ونزلت إلى تلك الحجرة حيث عاشت أم الإله مع يسوع . كل شىء جميل فى هذه الحجرة فيما عدا أنها مظلمة . وعلى مدار تلك السنوات السبع كانت النار توقد ليلاً ونهاراً بلا توقف ، أى أن زيت الزيتون الخام كان يحترق طوال الوقت ، والذى بسببه تسخمت الحوائط والسقف . وقد خصص لأم الإله مكاناً مسوراً ، وكان السور عبارة عن مشربية خشبية هناك ، حيث أقامت أم الإله . وللأساقفة الوافدين للصلاة ، أقيم فى الحائط مكان يمكن لشخص الجلوس فيه . وكانت الغرفة مفروشة بالحصير المصنوع من ألياف القصب ، ومن فوقه وضعت السجاجيد .

فيما يخص اللوح الخشبى الذى تعلم عليه ربنا يسوع المسيح القراءة والكتابة ، فقد دفع الألمان الكثير من الأموال لعدة سنوات ، غير أن الأقباط رفضوا أن يبيعونه لهم ، فقام الألمان بسرقة هذا اللوح وأخذوه معهم . أما القس القبطى الذى أرشد هؤلاء الألمان إلى الكنيسة ، فقد أراد الأقباط رجمه بالحجارة حتى الموت ، ولكنه مكث فى العذاب الأليم. وقد سرق هذا اللوح منذ خمسة عشر عاماً . وقد مُدت المياه من نهر « جيون » إلى الجبل عن طريق حائط حجرى إلى قلعة الباشا . وتم عمل ميزاب على الحائط ، والذى من خلاله تتدفق المياه من هذا النهر[93] . وفى نهاية هذا الحائط تم بناء برج ترتفع إليه المياه بواسطة ساقية ، يديرها خمسة عشر ثوراً .

فى القاهرة يوجد قصر يوسف الجميل . كما يوجد فى هذا القصر ثمان وثلاثون عموداً رائعة الصنع بينها عقود ، أما الأرضية فذات لون رصاصى . وسقف القصر منقوش، والنقش به زخارف رائعة مطلية بالذهب وبألوان مختلفة ، وقد تهدمت قبته ، ولم يكمل الباشوات بناء هذا القصر ولم يقيموا فيه لأن هذا قصر الرجل المقدس يوسف الجميل ، وليس

91 - يطلقون على هذا المعبد أيضاً اسم الكنيسة المعلقة ،إذ أنها شيدت على أحد أبراج حصن بابليون .

92 - غير دقيق . مكثت العائلة المقدسة فى المغارة الواقعة أعلى المذبح المجاور للكنيسة القبطية للقديس سيرجيوس وواخس ، ووفقاً للتقاليد القبطية فإن العائلة المقدسة مكثت فى مصر لمدة ثلاثة أعوام .

93 - مجرى مائى من النيل إلى القلعة على امتداد 3400 متر شيد فى مطلع القرن 15 - 16 ، وكان مستخدماً حتى عام 1872 م ، ولايزال قائماً حتى الآن على صورة جيدة .

من المناسب الإقامة فيه . وعبر هذا القصر يأتى الوجهاء لتحية الباشا . أما أهل البندقية فقد أعطوا الباشا التركى الكثير من الذهب والفضة مقابل ذلك السقف ، إلا أن الباشا لم يجرؤ على بيعهم إياه ، وهم يطلقون على يوسف الجميل « النبى »[94] . أما السجن الذى سجن فيه يوسف الجميل فباق حتى هذا اليوم[95] .

يوجد فى القاهرة أيضاً قصر تحت الأرض بناه أيضاً يوسف الجميل . وبالقرب منه يسيرون تحت الأرض إلى قصر الباشا عبر ممر حجرى . يبلغ طول هذا الممر خمسة عشر ساجين ، أما عرضه وارتفاعه فيبلغ اثنين ساجين . ولهذا القصر أبواب مصنوعة من شجر البلوط ومغطاة بقضبان حديدية ، وعندما استحوذ الأتراك على مصر ، حاول الكثير من الباشوات (الأتراك) تحطيم تلك الأبواب بواسطة المدافع ، إذ يقولون أنه يوجد فى هذا القصر خزانة ما للأموال ، إلا أنهم لم يقدروا على هدم هذه الأبواب . ولم يصبهم من جراء ذلك إلا الضرر ، فكلما يقوم المدفعى بالضرب ، ينفجر المدفع ، وبعد ذلك ينسحبون ، وحتى هذا اليوم لا أحد يعرف ماذا يوجد فى هذا القصر[96] .

توجد فى القاهرة القديمة اثنتا عشرة شونة (مخازن للغلال) ، وبعضها يماثل القصر فى الحجم ، وأخرى بحجم الكرملين ، وتلك الشون ليس لها أسقف ، وفيها يكدسون القمح والشعير[97] . ولا تسقط عليها الأمطار صيفاً أو شتاءً ، فهذه أبنية الفرعون الملك ، والتى لا ينفد القمح والشعير فيها أبداً ، ويرجع ذلك لكون المكان خصب . يستغرق الوصول إلى أعالى النيل مبحراً مع التيار مدة شهر ونصف بمحاذاة المراكز المصرية من القرى والعزب . ويوجد البحر الأحمر بالقرب من مصر (القاهرة) ، ويتم الوصول إليه خلال يومين على ظهور الجمال[98] . يوجد فى القرى المصرية بيوت طينية بداخلها أفران . وفى كل بيت يوجد اثنى عشر فرناً ، على كل فرن صناديق يضعون فى كل منها حوالى 6000 بيضة ، ويرشون فى هذه الأفران روث الخيل المغربل المجروش ، ثم يوقدون الفرن وتظل النار فيه مشتعلة باستمرار ، فمن الضرورى أن يكون دافئاً دائماً ، ولا ينقطع عنه الدخان أبداً . وعندئذ تولد الأفراخ فى المفرخة بعيداً عن الأمهات ، إذ أنه فى اليوم الثانى عشر تقوم الأفراخ بأنفسها بالنقر والخروج من القشرة ، وعندما تكبر الأفراخ قليلاً يتم توزيعها على الساحات والقرى. ويبيعون الفرخ الواحد بأربعة دراهم . وعندما يكبرون إلى ما يقارب الدجاجة يبيعون الواحدة منهم بثلاثة قروش ودرهمين[99] .

94 - من المحتمل أنه يدور الحديث عن أحد القصور فى القلعة .

95 - توجد فى القلعة سجون أيضاً .

96 - غير واضح عن أى مبنى يدور الحديث . فحكاية أن الأبواب المصنوعة من خشب البلوط المغطاة بالحديد لا تخترقها المدافع تعد أسطورة .

97 - من المحتمل أن جاجارا كان يقصد أبراج حصن بابليون .

98 - أغفلت القصة القصيرة عن دير سانت كاترين فى سيناء ، وكذلك الحكاية الشهيرة عند المسحيين المصريين عن أن قوة الإيمان فى المسيح قد حركت جبل بالقرب من القاهرة .

99 هى شبيهة به ، ولكن الوصف الأكثر دقة لحضانة الطيور المنزلية أوردها العالم العربى الشهير عبد اللطيف البغدادى ،الذى زار مصر فى مطلع القرن الثالث عشر (البغدادى ، عبد الطيف). أسرار العصور الوسطى لمصر ، 2004، ص 93 ـ 103 . وقد أشار ناؤمكين . ف . ف فى مقدمة هذا الكتاب أن " جميع الرحالة الذين زاروا مصر فعلياً فى القرون الوسطى والعصر الحديث ، قد نوهوا فى قصصهم عن هذه الحرفة " ، حيث أن هذه الحرفة انتشرت فى أوروبا فى القرن الـ 18 فقط (ص 13،14) .

علاوة على ذلك يصنعون فى مصر « فيرياك »[100] ، فهم يشترون عبداً غالِ الثمن ، ويطعمونه بلح فى الحديقة ويسمنونه جيداً ، ثم يقومون بقتله ووضعه فى صندوق حجرى ويغمرون جسده كله فى العسل الأسود لكى يتشبع الجسم بالكامل ، ولا يقومون بفحصه لمدة عشر سنوات ، وعندما تنقضى عشر سنوات يقومون بفحصه ، ثم يغمرونه مرة أخرى فى العسل الأسود ، ويفعلون ذلك لمدة أربعين عاماً طالما أنه خلال هذه السنوات لم تذب العظام فى العسل الأسود[101] .

ويقوم العرب فى مصر بشراء العائلة الكاملة للنمور الرقطاء[102] بمبلغ 400 يفيمك (عملة أجنبية فضية) ، ويقومون بإطلاق سراح النمر ، ودائماً ما ترغب أنثاه أن ترتع معه، غير أن جميع أعضائه السرية منزوعة منه فلا يستطيع إلا اللعب فقط ، ولكن عندما يحين الوقت يظهر لدى الأنثى فى حلمتى ثديها لبن يشبه القشدة الرائبة يقوم العرب بحلبه ، ثم يسخنونه جيداً ويصنعون منه المسك .

بالإضافة لذلك يزرع القصب فى مصر ، ويصنعون منه السكر[103] . يزرعون القصب بالجذور بالقرب من البحر ، ويبلغ ارتفاعه شبر واحد ، وينثرون فضلات الحمام تحت القصب، أما الجذور فيروونها بالعسل الأسود . وإذا نمى القصب وأخرج الثمر ، فإنهم يروونه حتى الشبع (بالماء المحلى بالعسل) . وعندما ينضج القصب يأكلونه مثل شهد العسل .

فى مصر توجد حديقة جميلة جداً تجرى فيها المياه ، والقصور هناك مزينة بصورة رائعة من أجل الباشوات (الأتراك) . وعندما يحضر (الباشوات الأتراك) لمقر الولاية يظهر المواطنون للباشا عظيم الاحترام ، فيقومون ببسط السجاد الذهبى من البوابة حتى القصر ، والذى يبلغ عدده أكثر من ثلاثمائة سجادة ، ويسير الباشا على ذلك السجاد ، ثم يقوم الخدم بجمع السجاد لحفظه . ويقيم الباشا هناك لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ . وفى هذه الأيام الثلاثة يظل الباشا يشترى من اليونانيين للخدم وللعبيد معاطف من فرو السمور والسنور البرى حتى يتخمون ، وكان الشراء يتم بالأجل بدون أن يدفع مالاً[104] .

فى مصر يوجد وحش مائى فى نهر النيل يسمى التمساح ، رأسه كرأس الضفدعة

---

100 - بشكل أدق (ترياق) ، وسيلة علاجية معقدة . استخدم فى علاج الأمراض على نطاق واسع ، وانتشر قبل منتصف القرن الـ 18 ، ولمعرفة التفاصيل انظر س . أ . كيريللينا ، والمقالة المشار إليها ص 212 ـ 214 .

101 - التخيل واضح ، وقد كان لحم الثعابين السامة هو المكون الأساسى للترياق .

102 - تعتقد أ . س . كيريللينا أن الحديث يدور عن " قطة المسك " . يستخلصون من الغدد الأربية لقطط الزباد رائحة المسك القوية ، والتى تستخدم كمادة عطرية (أ . س . كيريللينا . المقال المشار إليه ، ص 180) .

103 - قصب السكر .

104 - وكما ترجح أ . س . كيريللينا ، فإن جاجارا يصف زيارة الوالى العثمانى الجديد فى القاهرة ـ الوالى . انظر أ . س . كيريللينا فى كتابها المشار إليه ص 384 .

وعيونه مثل عيون الإنسان ، ولديه 4 أقدام طول كل واحدة منها أكبر قليلاً من البياد[105]، أما جسد وأعضاء التمساح مثلها مثل جسد وأعضاء الإنسان ، وعموده الفقرى فى الظهر كما عند الإنسان ، والذيل يشبه ذيل القرموط . والتمساح يلهو مع أنثاه على الشاطئ، وعندما يرى إنسان يطارده ، وحين يدركه يلتهمه . ويقوم العرب بصيد التماسيح بطريقة ماكرة ، ثم يحضرونها إلى الباشا فى القلعة .

وقد عشت فى مصر - أنا الرحال الآثم - لمدة عامين وثلاثة أسابيع .

يزرعون فى مصر الحبوب المختلفة ، التى يبذرونها قبل أسبوعين من صيام فيليبوف (عيد الميلاد) . والحبوب وثمار أخرى تنضج بحلول عيد ميلاد المسيح وعيد الغطاس . وآخر محصول ينضج فى عيد المسلينيتسا (يعتبر عيد الـ « مسلينيتسا » أو أسبوع المرافع أو أسبوع السمن عيداً سلافياً يعود تاريخ الاحتفال به إلى الطقوس والعادات الوثنية السلافية، وتجرى خلال هذا الأسبوع احتفالات شعبية يرجع عهدها إلى القرون الماضية ، حين كانت الشعوب السلافية تحتفل بانتهاء فصل الشتاء بإقامة مهرجان الشمس . ويستعد المؤمنون الأرثوذكس للصوم الكبير الذى يستمر 48 يوماً ، و يختتم بالاحتفال بعيد الفصح المجيد) (المترجم) . وينمو القمح ، والشعير ، وجريش الدخن بصورة جيدة ، لأنه عندما يفيض نهر جيون (النيل) فى المروج والحقول تبقى المياه لمدة طويلة وتروى الأرض . والأرض هناك ذات تربة سوداء .

توجهت من مصر إلى أورشليم بعد أن بدأت الصيام بعد أسبوع فيودوروف[106] ، ورأيت أنه قد تم جنى الحبوب فى أماكن بالقرب من القاهرة ، وفى أماكن أخرى لا تزال الحبوب تبدأ فى النضج . أما فى المدينة المقدسة أورشليم حيث وصلت قبل أسبوعين من يوم القيامة العظيمة، فإن الحبوب هناك لم تكن قد نضجت بعد ، لقد نضج الخيار فقط وثمار أخرى يصعب نطقها لأنه لا يوجد لدينا مثلها . وينضج الزبيب فى منتصف فصل الصيف . وينضج متأخراً لأن مدينة أورشليم تقع على الجبل - وهو مكان بارد - عكس الطقس فى مصر .

105 - البياد وحدة قياس روسية شعبية قديمة للأطوال ، تساوى المسافة بين أصبع الإبهام والسبابة المفرودين .

106 - أسبوع فيودوروف - الأسبوع الأول من أيام الصوم العظيم .

• أرسينى سوخانوف (عام 1651 م)[107] :

فى اليوم الثانى عشر أبحرنا فى طقس معتدل (من كريت) . وفى اليوم الثالث عشر عند بزوغ الفجر رأينا شاطئاً ، وظننا أن هذا هو شاطئ الإسكندرية ، فانعطفنا قليلاً إلى اليسار ، ووصلنا وقت الغداء عند خور مدينة أبو قيريا (أبو قير) . وهنا رأينا سمكة بأجنحة جلدية[108] . وهى تطير مثل الفئران الطائرة ، وعليها ريش كزعانف السمك ، وقشرها لونه أبيض مثل قشر السمك .

تقع مدينة أبو قير على مسافة عشرين فرسخ من مدينة الإسكندرية بالطريق البرى . وفى منتصف ذلك اليوم أبحر العجوز أرسينى مع العجائز فى مدينة أبو قير بعد أن استأجر صندلاً (مركباً) . وهم لا يسمحون لأى أحد من المسيحيين بدخول هذه المدينة ، وهنا دفعنا الرسوم لمحصل الأتاوات ، ثم استأجرنا عربتى كارو ، وذهبنا إلى الإسكندرية ، وقد وصلنا هناك عند حلول المساء . ودخلنا المدينة سيراً على الأقدام . وشاهدنا الأتراك الذين يقفون عند البوابات للحراسة ، ولم يقولوا أى شىء لأرسينى . وعندما وصلت ، وجدت دير المبجل القديس « سابا » ، حيث يقيم البطريرك[109] . وهنا استقبل العجائز أرسينى بلطف وأطعموه وأجلسوه معهم . وهنا قضينا ليلتنا . ومع شروق الشمس فى اليوم الرابع عشر تجولنا فى المدينة بجوار البحر ، وبعد الغداء سرنا إلى خارج المدينة فى اتجاه الجنوب .

فى صباح اليوم الخامس عشر قمنا باستئجار قارب شراعى ذى ثلاثة مجاديف ، ثم أبحرنا من الإسكندرية إلى حيث يوجد مركبنا ، ووصلنا فى منتصف اليوم .

---

107 - أرسل القيصر أليكسى ميخائيلوفيتش أرسينى سوخانوف إلى فلسطين ومصر «لمشاهدة وملاحظة الطقوس الكنائسية فى الشرق » . نشر النص فى إصدار « العابد أرسينى سوخانوف » // المجموعة الفلسطينية الأرثوذكسية ، مجلد 7 ، الإصدار الثالث ، مكتبة سانت بطرسبورج ، 1889 ، ص 31 ـ 41 . قامت ف . ى . فيودوروفا بأعمال الترجمة .

108 - من المحتمل أنه كان سمك الرعاد . تعد الزعانف الصدرية الكبيرة للرعاد هى العضو الأساسى للحركة ، وتشبه الأجنحة .

109 - الدير الأرثوذكسى اليونانى باسم القديس سابا . أنشئ فى العصور الوسطى المبكرة حول الكنيسة التى تحمل نفس الاسم ، وهو أقدم معبد مسيحى فى الإسكندرية . تم بناء الكنيسة عام 318 م ، وهدمت فى القرن السابع من جراء زلزال ، وتم بناؤها من جديد وظلت محتفظة بشكلها منذ ذلك الوقت وحتى الآن . وقد كان دير القديس سابا لمدة طويلة مقر بطريرك الإسكندرية الأرثوذكسى .

فصل 11.

تعد مدينة الإسكندرية مدينة ذات مبان عجيبة . ولا توجد أى مدينة تشبهها فى زينتها. الآن أصبحت هذه المدينة خاوية على عروشها ، وكان يعيش فيها عدد قليل من الناس عند دخولنا إليها . والمدينة فارغة من الداخل ، فقد انهارت جميع المنازل . وهنا يوجد بيت والد الشهيدة العظيمة كاترينا[110] . البيوت الكبيرة مثل الجبال ، والمبنية من الطوب الأحمر انهارت جميعها ، غير أنه مازالت بعض القباب قائمة . وكانت هنا كنيسة الرسول المقدس والإنجيلى « مار مرقس »[111] حيث قاموا بتعذيبه . و يعيش هنا الآن أحد الأتراك . ومن ثم يأتى المسيحيون إلى هنا فقط لتقبيل الحجر حيث تم تعذيبه . وكانت الكاتدرائية كبيرة جدا ، أما الآن يعيش هنا أحد الأتراك ، إذ قد تم بناء بيت مثل القلعة وما عاد أحد يدخل إلى الكنيسة .

يوجد فى الإسكندرية ذاتها عدد لا يحصى من الأعمدة الرخامية الحجرية العالية والمتوسطة والصغيرة ، والتى صنع كل واحد منها من حجر واحد ، فضلاً عن الأعمدة المستديرة . وتندفع مياه البحر الأبيض المتوسط حتى سور المدينة نفسه ، حيث توجد بوابات كبيرة تؤدى إلى البحر . وبجوار هذه البوابات ـ داخل المدينة ـ يوجد وادٍ ضيق (خمسة ساجين تقريباً) ، ويوجد فيه عمود مدهش ذو أربعة أضلاع منحوت من حجر واحد ، ويبلغ ارتفاعه 12 ساجين تقريباً . وقد نقشت عليه من أعلى إلى أسفل رموز كتابة غير معروفة مثل السيوف والأقواس والأسماك ورؤوس بشرية وأيدى وأقدام وفؤوس ، وبعض الرموز ـ بل جميعها ـ غير معروف . ويقولون أن حكمة ما مكتوبة عليه . ويوجد عمود آخر بالقرب من العمود الأول. وهذا العمود مماثل له تماماً فى الشكل والحجم ، لكنه وقع ويرقد إلى جانبه[112] . ويقال أن هذين العمودين قد تم نصبهما فوق قبر المحارب الشجاع الملك الإسكندر المقدونى كما لو أن أحدهما عند الرأس ، والآخر عند الأقدام[113] . ويوجد على مسافة ثلاثمائة ساجين تقريباً

---

110 - كاترينا (287 ـ 305) ولدت واستشهدت فى مدينة الإسكندرية ، ولذلك دخلت فى التاريخ الكنسى باسم كاترينا الإسكندرانية .

111 - نشر مار مرقس الرسول الدعوة فى الإسكندرية ، ويعد مؤسس كنيسة الإسكندرية وبطريركها الأول . استشهد يوم 25 أبريل عام 68 م .

112 - يصف سوخانوف " مسلات كليوباترا " ـ مسلتان كل واحدة منهما بارتفاع 21 متر، وتم تشييدهما بناءً على أمر الفرعون تحتمس الثالث (1457 ـ 1438 قبل الميلاد) ، وفى البداية تم وضعهما بالقرب من معبد الشمس فى هليوبليس ، ومع بداية العصر الميلادى تم نقلهما إلى الإسكندرية ، ولكن فى نهاية القرن التاسع عشر تم إهدائهما لإنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية . وتم وضع إحداهما فى لندن عام 1878 م ، والأخرى فى نيويورك عام 1890 م ، وليس لهذه المسلات علاقة بكليوباترا .

113 - مقبرة الإسكندر المقدونى (356 ـ 323 ق.م) مطمورة فى الإسكندرية ، ولم يتم العثور عليها حتى الآن . وللمزيد من التفصيل عن ذلك الموضوع انظر :

Saunders, Nicholas J. Alexander´s Tomb. The Two Thousand Year Obsession to find the lost conqueror. Cairo, 2006.

أو أكثر من مدينة الإسكندرية ـ على اليابسة ـ إحدى الساحات الكبرى . البناء هناك كبير حيث توجد قصور مدهشة بعضها كامل ، والبعض الآخر مهدم . ويوجد بالجوار العمود الأكثر إدهاشاً من بين كل الأعمدة، إذ أن ارتفاعه خمسة عشرة ساجين كأن المخرطة قد خرطته من حجر واحد ذو لون أرجوانى. ويقف كالخازوق لا يميل يمنة ولا يسرى[114] . ويمكن العيش فى المدينة نفسها تحت الأرض ، إذ أنها مبنية بشكل مدهش تحت القصور.[115]

لا يوجد نهر فى مدينة الإسكندرية ، غير أنه فى وقت الفيضان تتدفق المياه فى روافد من النيل إلى الإسكندرية ، ومن هذه الروافد تصل المياه للمدينة عن طريق أنبوب يملئ جميع الآبار المبنية فى الأرض ، ويعيش سكان المدينة على هذه المياه مدة عام كامل . ودير بطريرك الإسكندرية له سور شاهق الارتفاع ، إلا أن مساحة الأرض ليست كبيرة ، فبالداخل توجد كنيسة واحدة فقط ، ويوجد بجوار الكنيسة مجموعة من الغرف ، ولا توجد أى مساحة خالية . هنا يعيش عجائز بطريركية الإسكندرية . وفى نصف الكنيسة الأول يقوم بعض الناس بخدمة البطريركية ، أما فى النصف الآخر فيوجد مذبحين ، وهما المذبح البندقى والفرنسى حيث يجيء الرهبان اللاتينيون للخدمة، إذ يعيشون خلف الدير . ويوجد هنا عمود حجرى مخروطى مصنوع من الرخام الأبيض ، ويوجد بجواره تابوت خشبى له نافذة صغيرة تفتح قليلاً ، وله يسجدون ويقولون أن على هذا الحجر تم ربط القديسة الشهيدة العظيمة كاترينا أثناء تعذيبها .

وعلى مسافة فرسخ واحد شمال الإسكندرية توجد على قمة حجرية ـ فى البحر ـ قلعة غير كبيرة مليئة بالقصور . وفيها يعيش والى الإسكندرية . والبحر بالجوار ـ كأنك على جزيرة ـ ومن البحر يمتد إلى الشاطئ جسر حجرى ، وفى مقابل الجسر على الشاطئ توجد المدينة[116] . وعلى امتداد الطريق من هذه القلعة حتى مدينة الإسكندرية القديمة توجد جميع الساحات والقصور . والأسواق هنا مختلفة ، ونادراً ما تكون متقابلة لأن المكان هنا مسطح وفسيح . ومرسى السفن هنا أكبر وأفضل ، وتأتى إلى هنا الجاليونات الكبيرة (السفن الحربية والتجارية الكبرى) ، والسفن القادمة إلى مصر من مختلف الأقطار . وتقف جميعها هنا ، ولا تبحر إلى الأعلى فى مجرى النهر حيث أن المياه ضحلة هناك .

---

114 - عمود بومبى مصنوع من الجرانيت الأحمر ، ويبلغ ارتفاعه 27 متر ، تمت إقامته فى مطلع القرن الرابع بأمر من حاكم الإسكندرية بوستوموس ليعبر عن امتنانه للإمبراطور دقلديانوس ، الذى أمر بتوزيع الخبز على الجائعين من سكان المدينة .

115 - عمود بومبى أقيم بجوار معبد السرابيوم ، الذى هدمه المسيحيون فى القرن الرابع ، ولم يبقَ منه سوى السراديب حيث دفنت الثيران المقدسة التى يطلق على كل واحد منها أبيس . أخطأ سوخانوف عندما أكد أن « فى المدينة نفسها كان من الممكن أن تعيش فى أى مكان تحت الأرض » .

116 - قلعة السلطان قايتباى ، شيدت عام 1480 م على الطرف الشرقى لشبه جزيرة فاروس ، فى مكان منارة فاروس الشهيرة .

فصل 12.

فى يوم التاسع عشر من أغسطس أبحر أرسينى على متن مركب إلى مصر (القاهرة) ، بعد أن جمع كل أمتعته فى صندوق ، وكذلك كتبه وجميع الأشياء الصغيرة التافهة . ووضع فى الصندوق مائة قطعة معدنية للطوارئ ليفتدى نفسه فى حالة حدوث أى كارثة. أما الراتب المرسل لبطريرك أورشليم من قبل القيصر ، وهو ثـمانون قطعة من فراء السمور، فقد وضعها أرسينى أيضاً فى الصندوق ، لأنه كان من الصعب نقلها فيما بعد ، إذ أنهم يقومون بالتفتيش فى كل مكان ويأخذون ضريبة كبيرة ، ولذلك فإن الأمر كان رهيباً أنهم يستطيعون أخذها جميعاً . ولقد أعطيت هذا الصندوق لجيورجى كيرييس، وأمرته بإعطائه للأرشمندريت أمفيلوجى فى القسطنطينية . وقد أعطاه أيضاً تقرير لقيصر عموم روسيا أليكسى ميخائيلوفيتش وللسيد العظيم القديس يوسف بطريرك موسكو وعموم روسيا ، وأمره بإعطاء هذه التقارير للأرشمندريت أمفيلوجى . وأرسل معه أيضاً رسالة للأرشمندريت لكى يرسل هذه التقارير إلى موسكو مع التجار ، أما الصندوق فقد احتفظ به لأرسينى عندما يعود إلى هنا من أورشليم . وبعد أن أعطوا هذا، أبحروا إلى رشيد على متن المراكب . ووصلنا إلى هناك فى وقت متأخر من المساء . وفاض نهر النيل ودخلت المياه إلى الشواطئ ، وفى بعض الأماكن الأخرى تجاوزت الشواطئ .

يوجد فى مدينة رشيد طائر النعام الذى يبلغ طوله حتى صدر الإنسان ، ويصل حتى كتف الشخص متوسط الطول ، وعندما يرفع رأسه يكون طوله مثل الأرجاماك [117] ، ورأسه غير كبيرة ، وأنفه إوزى ليس كبيراً وليس جميلاً ، وأرجله عارية وليست جميلة جداً ، فيها أصبع كبير ، وآخر غير كبير من الخارج . وللأصبع الكبير ظفر كبير ، أما للصغير فغير معلوم . ولا يوجد ريش ابتداء من الرأس حتى الحوصلة بل زغب أبيض وأصفر. ويوجد ريش أسود قصير ليس له مثيل على الصدر حتى السرة ، وعلى الظهر حتى الذيل، وأيضاً على الأجنحة . ويغطيه الريش الناعم من القدم حتى الذيل ، أما من الأعلى بجوار الذيل فخال من الريش ، ونادراً ما يوجد ريش فى هذا المكان ، ولون جلده أحمر مع أبيض . وتتغذى النعامة على الشجر والأحجار والحديد ، وأيضاً الحبوب ، وتسير مع الأشخاص فى الشوارع ، وهى لا تتعارك ولا تطير ، والريش على الأجنحة ليس بطويل ، وإنما هو غاية فى القصر .

117 - أرجاماك - ظهر الخيل من السلالة العربية .

فصل 13.

فى يوم التاسع والعشرين من أغسطس الموافق يوم قطع رأس يوحنا المعمدان[118]، قمنا باستئجار سفينة عربية تسمى « جيرما » ، وأبحرنا فى منتصف اليوم من رشيد إلى مصر ، وهى (يجيبت) باللغة اليونانية ، أما باللغة اللاتينية فتسمى القاهرة . أبحرنا حتى المساء وقضينا ليلتنا فى السفينة . أبحرنا من مدينة رشيد فى منتصف اليوم ، وفى اليوم التالى مررنا حتى الساعة الثانية بسبعة أماكن على جانبى نهر النيل . وجميع المبانى هنا مبنية من الطوب ، أما المساجد فمن الأحجار والطوب . والمآذن عالية . وفى يوم الثلاثين من أغسطس أبحرنا فى مركب شراعى مساء يوم السبت ، وحتى مساء يوم الأحد . وفى يوم الأحد الموافق الحادى والثلاثين من أغسطس وصلنا مصر عند الغسق . ومن رشيد إلى مصر على ضفتى النيل تتدفق المياه من النهر بمساعدة السواقى ، والتى تديرها الثيران ، وتروى قصب السكر والبساتين الأخرى وقمح المسلمين[119] . والشواطئ على ضفتى النهر مستوية، وتتداخل المياه مع الشواطئ . وعرض النيل كعرض نهر أوكا عند مدينة سيربوخوف أو عند ضاحية مدينة كولومنا تقريباً ، وفى بعض الأماكن يتجاوزه . ويوجد العديد من الجزر على كلا الجانبين وتُشاهد القرى كثيراً ، والبيوت مبنية من الطوب اللبن ، غير أنه توجد بيوت مصنوعة من الطوب المحروق والأحجار ، ويوجد فى كل مكان مساجد رشيقة. وعلى ضفتى نهر النيل يوجد كثير من القطعان ، مثل الجاموس والبقر والأغنام ، وجميع النعاج بنية اللون ، ويصل ذيلها حتى الأرض ، والأذان طويلة . كما توجد أيضاً الجمال والحمير ، وهى كثيرة أيضاً .

تصل إلى مدينة رشيد سفن ليست كبيرة الحجم ، ولا تصعد أعلى من رشيد إلى القاهرة، وتبحر إلى هناك فقط الجيرما العربية التى تشبه مركب ستروجا ، ويوجد منها الحجم الصغير أما الكبير فهو قليل . وعلى مسافة عشرين أو ثلاثين فرسخاً عند مدخل مدينة القاهرة يرى على الجانب الأيمن للنهر عمودان فرعونيان صنعا على هيئة الجبال[120]. وتقع القاهرة على الضفة اليسرى للنهر ، إذا أبحرت مع التيار إلى الأعلى فى مقابل هذه الأعمدة أو الجبال الفرعونية . وبعد أن وصلنا ، قضينا ليلتنا على الشاطئ قرب القاهرة . يوجد عند المجرى السفلى للنهر الكثير من الجزر ، ومن جراء الفيضان يتفرع النهر إلى الكثير من الأفرع. وفى فصل الشتاء يُقال أن مراكب ستروجا لا تبحر إلى القاهرة ، بل تقف بعيداً فى المجرى السفلى. يرتفع منسوب المياه من ميلاد القديس يوحنا المعمدان[121] إلى يوم تمجيد الصليب[122]. وتبقى المياه وتروى (الشواطئ) فى كلا جانبى النهر عندما يبدأون فى زراعة الكرنب . وفى يوم الرابع من سبتمبر رأينا الليمون والبلح قد نضجا للتو، وكان الأرز ينضج أيضاً ، وبعض السنابل وقعت ، والأخرى كانت فى طور النضج ، كما رأينا أيضاً اللبن الطازج . وتم جمع الشمام الجيد ، وهو كثير جداً . وسينضج قصب السكر بحلول شهر ديسمبر .

118 - يوم قطع رأس يوحنا المعمدان ، يحتفل به يوم 29 أغسطس .

119 - يقصد الأرز .

120 - رأى سوخانوف الهرمين خوفو وخفرع ، أما الهرم الثالث من أهرامات الجيزة (منقرع) فهو أقل حجماً منهما ، ومن المحتمل أنه قد حجب بسبب الهرمين الآخرين .

121 - يحتفل بميلاد القديس يوحنا المعمدان يوم 24 يونيو .

122 - يوم تمجيد الصليب ـ يحتفل به يوم 14 سبتمبر .

فصل 14.

فى اليوم الأول من سبتمبر 7160 (1651 م) نزلنا من الجيرما على الشاطئ ، ثم استأجرنا بغالاً وتوجهنا إلى الدير . وهنا قام الأتراك بتفتيش أمتعتنا وأخذوا الضريبة، وعندما وصلنا إلى الدير سلمت لكبير أساقفة سيناء خطاب الأرشمندريت أمفيلوخى من القسطنطينية . وفى هذا الشأن قال كبير الأساقفة : « إننا وبدون هذا الخطاب سعداء بكم من أجل جلالة القيصر » ، وأمر بإعطاء أرسينى قلاية خاصة ، وأرسل فراشاً وسجادة ووسائد ولحاف ، ثم أرسل كبير الأساقفة يوسف مع أرسينى أحد العجائز إلى يوحنا بطريرك الإسكندرية . وقال البطريرك وكبير الأساقفة والعجائز : « الشكر لكَ يا رب . إننا نراك هنا قادماً من هذا البلد البعيد ، فمن قبل لم يتواجد هنا أحد من موسكو باستثناء سفير القيصر إيفان فاسيليفيتش »[123] .

فى اليوم الرابع من سبتمبر قمنا باستئجار أربعة من الحمير ، وذهبنا لرؤية المكان المقدس حيث وصلت إليه أم الإله عندما سارت من أورشليم مع المسيح وغسلت هناك ملابسه . ويوجد هنا بئر ماؤه عذب وصافٍ تماماً . وترفع المياه بواسطة ساقية تحركها الثيران . وعلى مسافة ساجين واحد من هذا البئر توجد سقيفة حجرية ـ يقال ـ أنها كانت كنيسة ، والآن تحولت إلى مسجد . وحائط المبنى الخلفى مبنى من الحجر . ويجرى الماء من البئر عبر هذا المكان ويصل إلى الحديقة . وهنا فى الجهة الشرقية تم صنع تابوت على الحائط يوجد فيه حجر صغير ذو أربعة أضلاع ، ويبلغ عرضه شبرين ، أما طوله فهو غير معروف لأنه موضوع بين الطوب . وهذا الحجر من الرخام الأبيض . وعندما يأتى المسيحيون فإنهم يقبلونه ويكتبون على الجدران أسماءهم مؤرخة بالعام الذى تواجدوا فيه . وهنا غنينا بارقليط أم الإله ، وأشعلنا شمعتين بجوار هذا التابوت ، ولدى الحجر أشعلنا البخور ثم غادرنا . ويسمى هذا المكان " المطرية " . ويقولون أنه على هذا الحجر المرمرى الأبيض جلس السيد المسيح عندما كانت أم الإله تغسل ملابسه . وفى هذا اليوم أرسل بطريرك الإسكندرية ضيافة إبريق من النبيذ الساخن[124] وبطارخ وثلاث أسماك مملحة .

القاهرة مكان كبير ومزدحم بالسكان مثل القسطنطينية ، غير أنه من الصعب أن ندرك أيهما أكبر ، فكلتاهما كبيرتان ومزدحمتان بالسكان وغنيتان . وفى القاهرة المبانى مبنية من الحجر . وتقع المدينة ذاتها بالقرب من النهر على مسافة فرسخ واحد من النيل أما الضواحى والقرى فتقع على ضفة نهر النيل ذاتها . وخصيصاً من أجل الفيضان عندما يتجاوز النهر ضفافه تم بناء أخدود حجرى كبير كما لو أن نهراً كبيراً يتدفق. على ضفة ذاك النهر ـ على الجدار الحجرى ـ وضعت علامات ينظرون إليها لمعرفة مدى ارتفاع وانخفاض منسوب المياه ، ويحددون هل ستكون الحبوب رخيصة أم غالية فى ذلك العام[125] .

123 - من الواضح أنه يقصد فاسيلى بوزنياكوف الذى زار مصر عام 1558 م .

124 - النبيذ الساخن قوى شبيه بالفودكا .

125 - يصف سوخانوف مقياس النيل الذى يحدد منسوب الفيضان ، وبالتالى الضرائب على

تقع مصر (القاهرة) على مكان منبسط عكس القسطنطينية القائمة على التلال. وجميع المبانى والبيوت والأسواق مبنية بالحجر فى صورة بديعة . والقلعة ليست كبيرة، وفيها يعيش الباشا ، وتقع على جزيرة ، أى على حافة الجبل . [126] وقد تم تزويدها بالمياه من النيل ، وتقوم الثيران بتحريك الساقية . وهنا بجوار قصر الباشا يوجد أيضاً قصر يوسف الجميل بن يعقوب . والقصور خاوية منها ما هو قائم ، ومنها ما هو مهدم . وأحد هذه القصور معجزة معمارية . والآن يوجد بداخله 32 عمود من الحجر والمرمر ، ويتراوح ارتفاعهم من 9 إلى 10 ساجين ، وكذلك أعمدة مستديرة كما لو أنها نحتت من حجر واحد وليس من أجزاء مركبة ، وعليها شيدت قبة القصر .

ومن الأعلى حول القصر توجد كتابة ـ سطر خشبى ـ وهو كلمات قطعت من الخشب ، ولصقت على الحائط . ومقاس تلك الكلمات 3 ساجين ، وكانت مطلية بالذهب ، وبعضها باق فى بعض الأماكن ، وفى أماكن أخرى أصابها التلف[127] . ومن هذا المكان على مسافة بعيدة فى الأسفل يرى قصر من الحجر ـ يقولون ـ أنه مخزن الحبوب الخاص بيوسف الجميل. والحبوب توجد بالفعل هناك حتى وقتنا هذا ـ ويقولون ـ أنه يوجد حارس أيضاً .

وفى القاهرة توجد كنيسة مسيحية[128] يأتى إليها بطريرك الإسكندرية لإقامة القداس. ويعيش البطريرك بعيداً عن هذه الكنيسة . ولدى البطريرك مقر جميل مبنى من الحجر، وكنيسة بديعة البناء . والجسر والأشياء الأخرى مزينة بالمرمر الملون ، ولكن يقال أن القداس الصباحى وفترة الظهيرة لا يقامان فى هذه الكنيسة . كما توجد كنيسة أخرى [129] فى القاهرة القديمة .

يقال أنه يوجد فى القاهرة 600 مواطن مسيحى محلى من العرب واليونانيين[130] . وبالقادمين يكون عددهم ألف شخص . (وكما قال يوسف كبير أساقفة سيناء أن فى مصر يوجد 14 مسجد كبير وصغير) . ويوجد فى القاهرة مقر لدير سيناء ، وهناك يعيش كبير الأساقفة وكبار السن الشرفاء ، ولديهم ثلاثة مقرات للضيوف ، ولدى البطريرك ثلاثة مقرات كذلك . ويقيم فى هذه الغرف نزلاء من مختلف الأديان من التجار والحرفيين ، يدفعون شهرياً مقابل السكن . ويأخذون عن الحانوت قطعة من فئة الخمسين كوبيكا، وعن حوانيت أخرى اثنين أو ثلاث يفيميك .

فى القاهرة الجو حار للغاية ، ونادراً ما تسقط الأمطار ، أما الثلج والجليد فهم لا يعرفونه. وهنا يفقس البيض فى المفرخة بدون دجاجات بسبب الحرارة إذ يقولون أنه ـ فجأة ـ يخرج

المحصول .

126 - قلعة القاهرة .

127 - ليس واضحاً عن أى مبنى يدور الحديث .

128 - يذكر الرحالة أن هذه الكنيسة هى كنيسة القديس نيقولاس فى حى الحمزاوى .

129 - الكنيسة المذكورة هى كنيسة القديس مار جرجس فى القاهرة القديمة .

130 - كما هو واضح يدور الحديث عن المسيحيين الأرثوذكس فقط .

من البيض حوالى 500 أو 600 أو ألف فرخ . ولذلك فإن الدجاج والبيض هناك رخيص الثمن، وكذلك السكر وعسل قصب السكر والنشادر رخيصة الثمن لأنهم يقومون بصنعها محلياً . وأغلى شىء فى القاهرة الحطب والأخشاب المختلفة . كما أن ثمار البلح كثيرة جداً . ولا يوجد فى دير سيناء شراب العنب ، فهم يشربون على المائدة جميع أنواع النبيذ الساخن مثل نبيذ الحبوب عندنا ، والذى يصنعونه من ثمار البلح ، ومثل هذا أيضاً يوجد لدى البطريرك .

يوجد فى نهر النيل حيوان ضارى يسمى التمساح ، وهو يشبه السحلية غير أنه كبير وقوى ، ولديه أربعة أرجل ، وجذعه مثل جذع السحلية ، ويوجد على جلده حراشف تشبه حراشف الأسماك ، إلا أن لونها مزيج من الأصفر والأخضر ، وهى عنده أكثر صلابة ، والفم كبير ، والرأس طويل والأسنان كبيرة . ولقد رأيت فى فناء صيدلى من البندقية تمساحاً ميتاً ومجففاً ، أما التمساح الحى فقد رأيته ، إذ يبيعون الصغير وفمه مربوط لكى لا يلتهم أحداً .

ويوجد فى القاهرة أيضاً الكثير من الببغاوات الصغيرة والقرود وعدد لا حصر له من البضائع الهندية : الصبار سعره رخيص ، والاندراجيز[131] رخيص أيضاً . وقد اشتريت هذا «الاندراجيز» من الصيدلية الحكومية بمائة وثلاثين زولوتنيك ، وقد دفعت مائة وثلاثين روبل .

فى القاهرة على الضفة الأخرى لنهر النيل حيث الأعمدة الفرعونية القديمة توجد قبور مدهشة مثل الجبال ، فهى واسعة فى الأسفل ومدببة فى الأعلى . وهنا توجد أيضاً أرض منبسطة كبيرة ، حيث يخرج الأموات إلى سطح الأرض فى كل عام . وهم يقومون فى الليل قبل الجمعة العظيمة ، ودائماً ما يتكرر ذلك فى هذا اليوم على مدار السنوات ، أما بعد يوم الصعود تختفى هذه الأبدان مرة أخرى حتى يوم الجمعة العظيمة . وسأل أرسينى عن ذلك كثير من اليونانيين ، وفى القاهرة سأل كبير أساقفة سيناء والشيوخ ، وجميعهم قالوا أن هذه حقيقة غير أن الناس فى السابق كانوا يخرجون مكتملى الأعضاء ، أما الآن فالعظام والناس محطمى الأيدى والأرجل والرؤوس والأعضاء الأخرى ، ولا تجد شىء كامل إطلاقاً .

131 - الصحيح : أمبرجريس ـ العنبر ذو اللون القاتم أو الرمادى ، وهو مادة صلبة شمعية قابلة للاحتراق ينتجها الجهاز الهضمى للحوت . وقد يوجد طافياً على سطح الماء أو بالقرب من الشاطئ . وقديماً استخدم فى الطب وصناعة العطور .

- **الشماس إيونا (عام 1651 م)[132] :**

بلطف الرب نجونا ووصلنا إلى البلاد المصرية مع رياح مواتية بعد أربعة أيام من جزيرة رودوس إلى مدينة بوكير (أبو قير) . وهنا ينتقلون من المركب الكبير إلى مركب مصرى صغير ، ثم يبحرون إلى مصب نهر النيل العظيم حيث توجد مدينة رشيد على مسافة 15 فرسخ من البحر . وهنا يوجد الكثير من النخل وجريش الدخن (الأرز) وقصب السكر والثمار الحلوة[133] . ولقد مكثت فى هذه المدينة 12 يوماً . وتبلغ المسافة من هنا حتى مدينة الإسكندرية العظيمة 30 فرسخاً .

فى هذه المدينة ـ رشيد ـ كان عجائز بطريركية أورشليم يقومون بجمع الصدقات على السفن لقبر الرب بكنيسة القيامة ، ويشترون المؤن مثل السكر والشمع والأسماك ، ويرسلونها إلى أورشليم . واستقبلنا هؤلاء العجائز بابتهاج .

وفى هذه المدينة رأينا أيضاً طائر « سترافوكاميل » ، ويسمى هذا الطائر بالروسية الطائر ـ الجمل ، و « سترافو » تعنى طائر باليونانية ، و « كاميل » جمل . هذا الطائر يشبه الجمل ، وهو كبير الحجم ، وله حافر به أصبعين .

ومن هذه المدينة حتى دمياط يتحتم السفر على ظهور الجمال عبر البلد المصرى ، أى العربى . وتقع مدينة دمياط على الفرع الثالث للنيل . ويصل الفرع الأول إلى الإسكندرية[134] ، والثانى إلى مدينة رشيد ، والثالث إلى مدينة دمياط . ويصب نهر النيل العظيم بأفرعه الثلاثة فى البحر الأبيض المتوسط . ويوجد فيه كثير من الأسماك . ومن هذه الأماكن وصلنا إلى مدينة يافا على متن المركب عبر البحر المتوسط .

132 - نشرت فى إصدار : حكايات الشعب الروسى التى جمعها ى . ساخاروفى ، المجلد 2 ، الكتاب الثامن ، رحلات المواطنين الروس ، مكتبة سانت بطرسبورج ، 1849 م ، ص 162 ـ 163 ، قامت بالترجمة ف . ى . فيودوروفا .

133 - من المحتمل أنها الموالح .

134 - عدم دقة ، فلا يوجد بالقرب من الإسكندرية فرع للنيل . فى القدم كان يوجد هذا الفرع ، وكان يصب فى البحر الأبيض المتوسط عند خليج أبو قير ، إلا أنه فى أوائل القرون الوسطى رفعت التحركات التكتونية اليابسة إلى أعلى . قد جف هذا الفرع .

- **المؤلف المجهول (ما بين عام 1662 و1674 م)[135] :**

مصر (القاهرة) مدينة كبيرة ، وتقع بجوار أرض خالية ، أى القاهرة القديمة السابقة التى تهدمت[136] . وفى جنوب المدينة عند المجرى السفلى لذلك النهر المصرى (النيل) على الضفة الشرقية فى مكان منبسط تقع ضاحية مدينة القاهرة العظيمة داخل أسوارها. غير أن جدرانها ليست متينة ، والقاهرة حصينة فقط من جهة المدينة الدفاعية الثانية الصغيرة (القلعة) من الجهة الشرقية . وفى الزاوية الجنوبية ، أمام تلك الضاحية على الجبل الشرقى ، توجد أيضاً القلعة الصغيرة الثانية . وهى منفصلة عن تلك الضاحية للمدينة العظيمة . تعتبر القلعة الخاصة بهذه المدينة الصغيرة صلبة وحصينة بأسوارها وناسها ومدافعها . وفيها كثير من المدافع الكبيرة والصغيرة [137] . ويعيش فيها الباشا المصرى مع خدمه وحشمه ، ويدافع عن مصر (القاهرة) بأكملها . وفى حالة الهجوم أثناء الحرب يستطيع أن يدفع العدو عن الجدار الشرقى لضاحية المدينة الكبيرة من ناحية الجبل من تلك المدينة الصغيرة ، ويستطيع أيضاً أن يدافع عن السور الجنوبى لضاحية المدينة من المدينة الصغيرة حتى نهر النيل . غير أن الاستيلاء على مدينة القاهرة يحدث فقط إذا استولى العدو فى البداية على تلك المدينة الصغيرة على الجبل ، ثم قام بتمشيط هذا الجبل . حينئذ فقط يمكن من هذا الجبل الشرقى بواسطة المدافع أن يحطم مصر ويسوى المنازل بالأرض . وفى تلك الضاحية للمدينة الكبيرة يوجد كثير من المدافع الكبيرة والصغيرة ، وهى مدينة كثيرة السكان ، وهم جميعاً عرب . والمحاربون منهم سيئون للغاية ، فهم أثناء الحرب لا يقدرون على احتمال الحصار والمحافظة على القلعة .

سمعت من الناس أن عدد البيوت والمنازل هنا (فى القاهرة) يبلغ خمسة وعشرين ألفاً. وبالإضافة لتلك البيوت ففى المقاطعة المصرية كلها (مصر) بقراها جميعاً الكبيرة والصغيرة فى مجملها نفس العدد أيضاً خمسة وعشرون ألفاً . وفى الداخل ، فى ضاحية المدينة ذاتها من الجهة الغربية على امتداد ذلك النهر المصرى ، فبمجرد دخولك المدينة من خلال بوابات الدخول الكبيرة (بولاق) - التى تطل على الشرق - يبدو لأول وهلة أن أكثر من نصف ضاحية المدينة تشغلها الحقول والبساتين . أما النصف الآخر الذى يقع بجوار السور الشرقى فيتكون من المبانى السكنية .

ومن الجهة الشمالية لسور المدينة حتى السور الجنوبى تقع المبانى السكنية على شكل شريط عريض وطويل . وجميع المبانى السكنية على هذا النسق . وتتشابك البيوت والأفنية مع بعضها البعض بشكل متلاصق ، وتكون كالكتلة الكبيرة .

135 - نشرت فى إصدار : وصف الإمبراطورية التركية . (1662 - 1674) ، مكتبة سانت بطرسبورج ، 1890 م ، ص 5 - 12 ، عثر على هذا العمل ذو المؤلف المجهول لضابط روسى وقع فى الأسر لدى الأتراك ، مؤلفه من المفترض مولود فى يلتسبيارسكى ، ابن فيودور فيوتكيستوفيتش دوروخين ، قامت فيودوروفا بالترجمة .

136 - الفسطاط أول عاصمة عربية لمصر .

137 - يصف المؤلف قلعة القاهرة .

ويوجد فى جميع الأحياء السكنية شوارع ضيقة . علاوة على ذلك يربط الشوارع بعضها ببعض عدد كبير من الحارات شديدة الظلمة ، والممتدة بين المنازل . والأحياء السكنية هنا مأهولة بالسكان .

جميع سكان القاهرة ، وكل المقاطعة المصرية (مصر) ، عرب . أما ما يخص الشأن الحربى ، فإنهم لا يحسنون استخدام الأسلحة النارية لأنهم وجلون وجبناء . إنهم فقط يقاتلون بالرمح على ظهر الحصان . ونادراً ما يكون عند المصريين والعرب خوذ ودروع ، إلا أنه لديهم الكثير من دروع اليد . لذلك فإن اعتماد القاهرة كله على قلعتها . وأظهرت الحرب أن المصريين سيئون فى المعارك ، وهم كذلك بالفعل .

فى غرب القاهرة ، عند المرسى على شاطئ ذلك النهر المصرى ، توجد قرية فى مكان ذى طبيعة خاصة . ويطلق على هذا المكان « بولاق » . ويستغرق السفر من بولاق إلى المجرى السفلى لنهر النيل نصف يوم ، حيث يتفرع النهر إلى فرعين ، فالفرع الأول (أو الأيمن) يمتد إلى دمياط ، والفرع الثانى (أو الأيسر) يصل إلى رشيد . ويستغرق السفر من مكان تفرع النهر حتى رشيد يوم ونصف اليوم ، ونفس تلك المدة من مكان تفرع النهر إلى دمياط . تقع مدينة رشيد على الضفة الغربية (اليسرى) لنهر النيل . وتعد رشيد قرية كبيرة ، ولا يوجد فيها قلعة . تستغرق المسافة من البحر إلى رشيد ثلاث ساعات سفر . وجميع سكان رشيد عرب . وتبلغ المسافة من مدينة رشيد إلى الإسكندرية عن طريق البحر يوماً واحداً. وفى هذا الطريق ، على مسافة ثلاث ساعات سفر من الإسكندرية ، تقع على شاطئ البحر مدينة صغيرة تسمى أبو قير . وتعد هذه المدينة قلعة جيدة فيها كثير من المدافع . وجميع السكان هنا عرب ، والمحاربون منهم سيئون ، وهذه صفة ملازمة للعرب ، كما أن السكان هنا قليلون .

وتلك الإسكندرية السابقة تهدمت كلها وأصبحت خاوية . وفى مكان جديد أنشئت مدينة وسميت الإسكندرية ، ليس بها أية قلعة ، وتقع بالقرب من البحر فى مكان منبسط بجوار تلك المدينة الخالية القديمة من الناحية الغربية . وتشبه القرية من ناحية الشكل ، والمساكن قليلة جداً . وعلى شاطئ البحر ، عند انعطاف الخليج بالقرب من ميناء السفن على القمة الحجرية ، أقيم برج حجرى كبير[138] فى مكان منبسط نصب فيه من القمة إلى القاعدة الكثير من المدافع الكبيرة والصغيرة مصوبة باتجاه الضواحى. وهذا البرج كبير مثل القلعة ، ويحمى الإسكندرية من جهة البحر . وجميع سكان الإسكندرية عرب ، والمحاربون منهم سيئون ، وهذه صفة ملازمة للعرب ، فهم لا يقدرون على إدارة معركة بالأسلحة النارية .

من الممكن قطع مسافة 1800 فرسخ فى غضون ثمانية أيام إلى طرابلس[139] عند الإبحار من الإسكندرية - من الشرق إلى الغرب - مع رياح مواتية .

138 - يصف المؤلف قلعة قايتباى .
139 - فيما بعد يذكر المؤلف عدة مناطق سكنية على شواطئ البحر الأبيض المتوسط حتى الحدود الغربية للإمبراطورية العثمانية ، ومن هنا عاد المؤلف إلى القاهرة .

يستغرق الإبحار من القاهرة إلى المجرى السفلى للنهر المصرى عند مدينة دمياط ثلاثة أيام. وتقع مدينة دمياط على الضفة الشرقية لنهر النيل ، وتعد قرية كبيرة ، ولا يوجد بها قلعة . وجميع سكان مدينة دمياط عرب ، وتعداد سكانها قليل .

ومن دمياط مع رياح مواتية فى غضون يوم واحد يمكن الوصول عن طريق البحر فى المياه الضحلة إلى « لاتينا » (التينى) . ولاتينا قرية صغيرة . وجميع السكان فيها عرب ، والسكان هناك قليلون ، ونادراً ما تقابل أناساً هناك .

ومن « لاتينا » إلى أكاتيا مسيرة يوم واحد سفر فى الصحراء . وتقع أكاتيا فى الصحراء، وهى قرية صغيرة . وتستغرق المسافة من القاهرة العظيمة حتى هذه القرية 6 أيام فى الصحراء . وجميع سكان قرية أكاتيا عرب ، وهم قليلون .

تستغرق المسافة من أكاتيا إلى القلعة الصغيرة « العريش » يوم ونصف اليوم . وتقع العريش فى الصحراء ، وبالنسبة لقلعتها فهى سيئة ، ولا يرى فيها أى مدافع ، والناس فيها قليلون .

وتستغرق المسافة من العريش إلى القلعة الصغيرة « خان يونس »[140] يوم ونصف اليوم عبر الصحراء .

140 - خان يونس توجد بالفعل فى فلسطين ، وليست فى مصر .

• إيوان لوكيانوف (عام 1701 م)[141] :

فى الحادى عشر من أغسطس وصلنا إلى نهر النيل الذى يتدفق من الجنة . وهنا المياه عكرة ، فالبحر مختلط بالطين حول المصب على مسافة ثلاثين فرسخاً تقريباً[142] . وقبل الوصول إلى مصب نهر النيل ، على مسافة خمسة فراسخ ، رست سفينتنا لأنه بسبب النهر يكون البحر هنا غير عميق ومحملاً بالرمال ، ولا تستطيع السفينة المحملة بالشحنات الإبحار إلى المصب . لذلك وصلت السفن الصغيرة من مصر الصغرى « رشيد » ، وأخذت حمولتنا كلها ، أما السفينة الفارغة فاقتادوها إلى الخلف . واصطحبنا العرب فى سفينتهم، ووصلنا إلى رشيد .

مدينة رشيد جميلة للغاية ، وبها مرسى كبير . وتبلغ المسافة من مصب النيل إلى مرسى رشيد حوالى عشرة فراسخ ، والمبانى فيها أفضل من مبانى القسطنطينية[143] . وعندما هبطنا إلى الشاطئ ورأينا الشعب العربى أصابنا الذعر . فمن غير المألوف رؤية أشخاص كهؤلاء ، فهم كالوحوش تماماً ، وعلى ما يبدو يريدون أن يلتهموك . وآخرون يسيرون عرايا كما ولدتهم أمهاتهم ، وكلهم دميمون فمنهم الأحدب ، والأحول ، وذو الأنف المعوج ، والفم المعوج والأعمى . ولغتهم خشنة كنبح الكلاب . فلننظر ما سيكون بعد ذلك ، فنحن لا نعرف اللغة ، وأين نقف ـ الرب وحده يعلم ـ فلا يمكننا سؤال أحد . كان شيئاً يرثى له . وبدا كما لو أننا ذهبنا إلى العالم الآخر ، واعتقدنا أننا وصلنا إلى النهاية . أما هؤلاء العرب فقد قفزوا إلى السفينة وجروا أمتعتنا بعيداً ، أى أن العمال عندهم كذلك يفعلون ، وهذا هو العرف . وبواسطة الحبال جاءت أمتعتنا وبدأوا فى جرها ، ولكننا لم نعطها لهم لأننا لا نعرف إلى أين نذهب مع هذه الأمتعة . وبعد ذلك عندما تذكرت أنه يوجد لدى خطاب لرئيس الدير فى رشيد ، بدأت فى الصياح على العرب قائلاً : " ميتوخا ! " ، فقالوا : " نعرفه " ، وأخذوا أمتعتنا وحملوها . لكن هنا بدأ عمال الجمارك[144] التفتيش فأظهرت لهم مرسوم السلطان، ولم يكملوا التفتيش . قادنا العرب إلى ميتوخا ، أى إلى مقر الدير . غير أنهم ذهبوا بنا إلى ميتوخا الإسكندرية ، و نحن لا نعرف شيئاً عن ذلك . وأعطينا الخطاب لرئيس الدير ، فقال لنا أن « هذا الخطاب ليس موجه لى ، ولكن إلى رئيس دير أورشليم » . و ذهب للبحث معنا أحد اليونانيين .

141 - نشر النص فى إصدار : رحلة إلى الأرض المقدسة للقديس الموسكوفى إيوان لوكيانوف،(1703ـ1701) ، 2008 ، ص 64 ـ 67 . قامت بالترجمة ف . ى . فيودوروفا .

142 - وصل لوكيانوف مبحراً إلى مصر فى غمرة الفيضان السنوى للنيل عندما تحمل مياه النهر معها كميات كبيرة من الطمى .

143 - قام العثمانيون الغزاة لمصر عام 1517 م بتحويل رشيد إلى أكبر ميناء فى مصر على البحر الأبيض المتوسط ، وحتى يومنا هذا توجد مبانى حجرية ضخمة مزخرفة ببراعة ترجع لهذه الحقبة .

144 - يومروتشنيكى ـ عمال الجمارك (تاموجنيا بالعربية جمرك) .

وصلنا إلى ميتوخا ، ولم يكن رئيس الدير هناك . بالفعل مأساة فنحن كنا ننتظره ، وهم قد حكوا له عنا هناك فى السوق ، فاستأجر بعض الرجال من العرب لحمل أمتعتنا وجلبها إلى ميتوخا ، أما نحن فكنا نشاهد فقط . وانحنينا لرئيس الدير الذى كان سعيداً بوجودنا . وأعطيته الخطاب . فقرأه ، ثم قال : « حسناً كل ما جاء فى الخطاب ، سوف أبذل قصارى جهدى لتحقيقه لكم » . ولقد سمعت أنه يفهم اللغة الروسية قليلاً ، وابتهجت لذلك للغاية . حمداً للرب أنه على الأقل يعرف اللغة الروسية ولو قليلاً .

وبعد ذلك قال لنا : «لا تحزنوا » ، وبدأ فى إطعامنا الخبز ، وقدم لكل منا كأساً من النبيذ الكنسى . وأصبحنا نشعر بالراحة ، وبدأ الظلام يحل . وقد كان رئيس الدير هذا شخص طيب ولطيف للغاية ، ويعد ذنباً كبيراً أن ننسى فضله . وكان لا يخطو خطوة للتنزه أو الذهاب إلى السوق بدونى ، فقد كان يأخذنى من يدى ويذهب . وكان يقول لى : « حسناً ، لا تحزن سأعتنى بك ، وسأجد لك سفينة تقلك إلى القدس » .

كان الرعب من العرب كبيراً حتى أننا كنا نخشى أن نخرج من المقر . إنهم أشخاص مرعبون إذ يسيرون عرايا ، والفتيات فى عمر الثانية عشر أو الخامسة عشر يسرن عرايا كذلك . ولكن عندما أمعنا النظر ، وجدنا أنهم طبيعيين . هكذا يكون الأمر دائماً فى بدايته ، يبدو أى أمر فى بدايته غريباً ، وبعد ذلك تعتاد عليه ويصبح كل شىء مألوفاً . فنحن عندما وصلنا إلى بالييفشين ؛ قائد القوازق الأوكرانية باليى ؛ ، فإن هؤلاء القوقازيين بدوا لنا كالشياطين ، وعندما وصلنا إلى الأتراك فإننا قد فقدنا عقلنا تماماً « إنهم حقاً شياطين ! » . وعندما عرفنا الأتراك عن قرب أصبحوا بالنسبة لنا كالروس ، ولكن عندما جئنا إلى مصر ورأينا العرب ، فإننا تكلمنا فيما بيننا « إنهم شياطين حقيقيون ! » ، وعندما عرفناهم عن قرب فالأمر سيان ، كنا نخشاهم كما نخشى الشياطين ! ، وهؤلاء الناس لا يختلفون عن الشياطين فى طباعهم ، وسلوكهم ، وتصرفاتهم ، واندفاعهم . وتسرى عنهم الشائعات فى كل أرجاء الدنيا أنهم أناس طيبون ، ولكنهم شياطين جيدون .

أقمنا فى رشيد وتأقلمنا على العيش بين العرب وتنزهنا فى نهر النيل . ونهر النيل مساو للفولجا فى العرض ، والمياه فيه سريعة وعكرة . لا يمكن شرب الماء من النهر ، لذلك فهم يضعونه فى الأوانى ويضعون فيه نوى اللوز . ويصفى الماء ويصبح أفضل . ويكون النهر عكراً مدة ثلاثة شهور ، ثم يصبح بعد ذلك صافياً .

وفى الوقت الذى يكون الشتاء عندنا يكون الصيف قد حل فى أثيوبيا العظيمة ، إذ تنتقل الشمس من عندنا إليهم ، ويكون الصيف عندهم فى هذه الأشهر . ويحل الشتاء عندهم فى شهر مايو . وعندما تغادر الشمس من عندهم إلينا (فى البلاد الشمالية) يكون لديهم فى شهر مايو ويونيو ويوليو شتاء وصقيع وثلوج كثيفة . وبحلول شهر أغسطس تهطل الأمطار عندهم ، وينتهى فصل الشتاء ، ويتجاوز النهر ضفافه[145]. وفى تلك الفترة تكون المياه عكرة لمدة ثلاثة أشهر ومن ثم لا يتم صيد السمك ،

145 - كما هو واضح يعتقد المؤلف أن فيضان النهر يحدث بسبب الذوبان الربيعى للثلوج على المرتفعات فى أثيوبيا .

وبمجرد أن تصبح المياه نظيفة فى نوفمبر يبدأون فى الصيد على الفور . ويوجد فى نهر النيل أسماك كثيرة ، وخاصة سمك صرصور البحر ، أما الأسماك الأخرى فهى قليلة .

فى رشيد ، على امتداد نهر النيل ، يوجد الكثير من الحدائق والنخيل ، والبلح هنا رخيص الثمن ، فرطل واحد من التمر يساوى كوبيك ، أى قرش . وفى مصر لا تسقط الأمطار أبداً ، والنيل يروى الأراضى المصرية كلها . ومن النيل تم شق قنوات فى كل مكان ، ومن ثم تجرى المياه خلالها إلى الحقول . وشاطئ النيل ضيق . وفى مصر تنضج الثمار المختلفة مرتين فى العام . وفى الحقول يتم جمع الحبوب أيضاً مرتين فى العام ، أما الليمون فيتم حصاده كل شهر . ومن مصب نهر النيل إلى مصر الكبرى (القاهرة) يبحرون فى النهر مسافة 500 فرسخ ، ويصل المركب مع الرياح المواتية عبر النهر بعد ثلاثة أيام . وعلى امتداد نهر النيل حتى القاهرة يوجد هذا البعوض الذى لا أستطيع بالكلمات أن أعبر عنه ، فبدون ستارة سواء صيفاً أو شتاءً لا تستطيع أن تنام ليلة واحدة . وعندما وصلنا قام هذا البعوض بلدغنا ، وأصبحت وجوهنا كوجوه المخمورين مليئة بالبثور ، ولا يعرف بعضنا البعض ، أما المصريين فلم تظهر عليهم أى علامات .

أقمنا فى رشيد سبعة أيام ، واستأجر لنا رئيس الدير مركباً لتقلنا إلى دمياط المرسى الآخر ، حيث يجب الإبحار على المركب العربى إلى الأعلى عبر النيل . وقام رئيس الدير بتقديمنا للعربى وطلب منه تذليل كل الصعاب التى قد تواجهنا . قام ريس المركب[146] بإزالة العلف من أجلنا ، حيث وضعنا أمتعتنا وجلسنا ، وأحاطونا بالأطعمة المختلفة .

فى اليوم السابع عشر من أغسطس ركبنا السفينة ، وذهبنا إلى الأعلى عبر النيل إلى مدينة دمياط المرسى المصرى الآخر . وفى هذا اليوم هبت رياح مواتية حتى منتصف الليل ، وبعد منتصف الليل توقفت . ودفع كل واحد منا تالير مقابل النقل . ووقفنا هناك حتى منتصف النهار ، ورأينا على امتداد النهر عدد كبير من المدن العربية ، وتبعد كل مدينة عن الأخرى حوالى فرسخين تقريباً ، وهى نفس المسافة بين القرى . وكل المبانى مبنية من الحجر ، والقرى جميلة جداً . والأرض بالقرب من النيل سوداء وممهدة كما لو أنها صنعت خصيصاً بهذا الشكل ، بما يعنى أنه حتى البيض يمكن دحرجته . والناس كثيرون جداً. ومصر كلها تروى بماء النهر . وعندما تنظر من المركب تجد حولك السماء والماء . وحيث يكون الشاطئ عالياً فإنهم يرفعون الماء بواسطة الثيران . والسواقى صنعت مثل الطواحين وفيها ربطت الأوانى التى سرعان ما تمتلئ بالماء[147] . والناس كثيرون جداً .

وفى مكان ما يستخدم الناس قفف مجدولة . ويوجد أشياء كثيرة فى الأرض المصرية. ويمكن القول أن هذه الأرض بالنسبة للأتراك منجم ذهب ! ، وكثير من السلع المصرية تذهب إلى القسطنطينية عن طريق السفن .

146 - ريس - رئيس (بالعربية) ، هنا : قائد .

147 - عجلات رفع المياه - الساقية ، تقوم الجواميس بتحريكها .

وكلما اتجهت صوب الجنوب (الأعلى) يصير النيل أوسع . وفى الأماكن القريبة من القاهرة يبلغ عرضه خمسة فراسخ تقريباً . ولقد ذهبنا عبر النيل إلى الأعلى (جنوباً) فى ثلاثة أيام ، وعلى مسافة عشرين فرسخاً من القاهرة انعطفنا إلى الفرع الآخر (إلى الأسفل فى اتجاه دمياط) . وهنا من القاهرة يتفرع النيل إلى فرعين : فرع يمتد إلى رشيد ، والثانى يصل إلى دمياط .

والأرض المصرية عجيبة ! ، عندما تنظر إلى الشاطئ تجد فى كل مكان البطيخ والشمام متراصين مثل الجبال . ويعطونك مقابل كوبيك (قرش) واحد بطيخة كبيرة أو شمامة . وعندما اقتربنا من رشيد ، رأينا مدينة الإسكندرية من مصب نهر النيل . لم نذهب إليها ، ووقفنا على مسافة عشرة فراسخ منها . وعندما انعطفنا إلى الأسفل أبحرنا لمدة ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع وصلنا مدينة دمياط .

والمرسى فى دمياط مكان جميل وأكبر قليلاً من المرسى فى رشيد ، والمبانى على نفس المنوال . ومراسى السفن لدى الأتراك كبيرة للغاية ، والسفن المصرية كبيرة أيضاً . وعندما أبحرنا على السفينة مع العرب ، كان الأمر سيئاً للغاية ، فهولاء الناس مثل الشياطين فى شكلهم وأفعالهم . أما نحن الثلاثة فكنا كالأسرى ، فنحن لا نعرف لغتهم ، وإلى أين يسيرون بنا فالله وحده يعلم . وإذا قاموا ببيعنا فمن سيبحث عنا ؟ ؛ لا أحد . فليحفظ الرب رئيس الدير ! ، فهو شخص لطيف قد اعتنى بنا وأمر بحمايتنا ، لذلك قام السيد العربى بحمايتنا ، وعندما وصلنا دمياط استدعى أحد اليونانيين وعهد إليه أن يوصلنى إليه (اذهب به إلى ميتوخا) . واستأجر اليونانى بعض العرب لحمل أمتعتنا ، وذهبنا نحن إلى ميتوخا ، أى مقر الدير . واستقبلنا رئيس الدير بلطف ، وأعد لنا طعاماً ، وكان لا يعرف لغتنا ، ولكن لحسن حظنا كان عنده أحد كبار السن من صربيا يعمل طباخاً ويعرف اللغة الروسية ، وهذا ما أثلج صدورنا . حمداً للرب فقد ذهب الحزن . وسلمنا الخطاب لرئيس الدير . وقد قرأ الخطاب ، وقال لى (حسناً ، إن السفينة على استعداد للإبحار إلى أورشليم ، واستعدوا أنتم للسفر فى الصباح التالى) . انحنينا له وكنا فى غاية البهجة ، فالمجد للرب فبمشيئته سارت السفينة بدون تأخير .

• مكارى وسيليفيورست (عام 1705 م)[148] :

أبحرنا من مدينة رودس عبر البحر الأبيض المتوسط بسرعة كبيرة مدة ثلاثة أيام ، ووصلنا إلى الإسكندرية فى اليوم السابع عشر من يونيو . وبعد وصولنا إلى الإسكندرية توجهنا إلى مقر البطريرك المقدس ، وهناك قد استقبلونا بحفاوة . وتوجد فى مقر البطريرك المقدس كنيسة كبيرة للقديس سابا ، وفى الجهة اليمنى يوجد مبنى جانبى منفصل عن الكنيسة للقديس الشهيد العظيم جيورجى (مار جرجس) المنتصر ، وفى الجهة اليسرى يوجد أيضاً مبنى منفصل عن الكنيسة للقديسة الشهيدة كاترينا . وفى هذا المبنى الجانبى المنفصل عن الكنيسة يقوم الفرنجة بالخدمة الدينية . وقد أقمنا فى مقر البطريرك المقدس ثمانية أيام . وباستثناء كنيسة البطريرك لا توجد فى مدينة الإسكندرية كنائس أخرى .

كانت الإسكندرية مدينة كبيرة وجميلة أسسها الملك الإسكندر المقدونى . ولم يبقَ من تلك المدينة حالياً إلا القليل ، توجد فقط بعض الأجزاء قائمة ، والمدينة كلها خاوية ومهدمة القصور . وللمدينة سورين شاهقى الارتفاع مبنيين من الحجر ، وبينهما يوجد ممر يمكن لعربتين متقابلتين أن تسيرا خلاله . وعلى شاطئ البحر ، حيث ميناء السفن ، لم يبقَ غير عدد قليل من الناس . وغير بعيد عن الميناء توجد قلعة . وفى القلعة والمدينة يعيش العرب وحدهم . وفى وسط مدينة الإسكندرية يوجد مقر البطريرك المقدس ، وبجواره لا يعيش أحد ، كلها خاوية ، والعرب أنفسهم لا يدعون البطريرك المقدس يعيش فى هدوء .

وهنا أيضاً فى الكنيسة الكبرى ، وتحديداً فى المبنى الجانبى المنفصل عن الكنيسة المكرس للقديسة الشهيدة العظيمة كاترينا ، يوجد عمود صغير من الرخام الأبيض قطعت عليه رأس الشهيدة العظيمة كاترينا ، وحتى يومنا هذا ترى دماء القديسة الشهيدة العظيمة كاترينا على العمود ، وهنا يقوم المؤمنون بالانحناء وتقبيل الحجر. وقد منحنا الله رؤية دماء القديسة الشهيدة العظيمة كاترينا وتلقينا البشارة . وغير بعيد من مقر قداسة البطريرك من الجهة اليمنى توجد قصور القديسة كاترينا ، إلا أن جدرانها متداعية .

وهناك حيث كانت البوابة المؤدية إلى القصر يوجد سبعة أعمدة رخامية مستديرة، وكلها بحالة جيدة . وفى الجهة اليسرى توجد كنيسة القديس الإنجيلى مارك (مرقس)، غير أنها تهدمت بالكامل . ولا يمكن التعبير بالكلمات عن التنظيم الحكيم لكل شئ فى الإسكندرية المجيدة . أولاً ـ تم تزويد المدينة بالمياه رغم أنه لا يوجد فى الإسكندرية أى نهر ، حيث يوجد فقط البحر ذو الماء المالح غير الصالح للشرب ، وتبلغ

---

148 - نشرت فى إصدار : الحجاج الكتاب فى عهد بيتروفسكى وبعد عهد بيتروفسكى ، أو المسافرون إلى المدينة المقدسة أورشليم // قراءة فى تاريخ المجتمع الإمبراطورى والآثار الروسية فى جامعة موسكو ، كتاب 3 ، قسم ف.م ، 1873 ، ص 6ـ 9 ، 28ـ 30 . قام بالترجمة ى . ف . فيودوروفا .

المسافة من نهر النيل الذى يجرى عبر الأرض المصرية إلى الإسكندرية مسيرة أربعة أيام . وقد تم مد المياه تحت الأرض من هذا النهر مباشرة إلى الإسكندرية .

الإسكندرية مدينة كبيرة ، وفى أسفلها على عمق كبير للغاية تم بناء أعمدة رخامية تتدفق المياه خلالها من النيل تحت المدينة بأكملها . وترتكز مدينة الإسكندرية كلها على أعمدة حجرية بها فتحات مثل الآبار ، وتوجد فى جميع أنحاء المدينة ومنازلها . ويقول القاطنون هناك أن هذه الآبار يبلغ عددها أربعة عشر ألف بئر ، وعندما تأتى المياه من النيل تمتلئ جميع الآبار . وتأتى هذه المياه من الأرض المصرية فى وقت « سباسوفكا »[149] .

وأبحرنا من جديد من الإسكندرية عبر البحر الأبيض المتوسط يوماً كاملاً ، واقتربنا من القلعة التى تسمى بوجور « أبو قير » . ومكثنا بالقرب منها مدة يومين ، ورأينا هناك العرب الذين كانوا يسيرون مسرورين لوصول المياه[150] . وقد كانوا يسيرون عبر الساحات بالدفوف يغنون ويقفزون ، ويسيرون فى مواكب كما لدينا فى أيام عيد الميلاد عندما يتهلل المتنكرون . ومن هناك وصلنا إلى النيل المتدفق عبر الأرض المصرية ، وكان تيار النهر سريعاً جداً ، والماء عكراً .

توجهنا من هناك إلى مدينة رشيد ، حيث أقمنا ثلاثة أيام . وفى هذه المدينة رأينا اثنين من الطيور الكبيرة جداً ، والتى تسمى طيور النعام . ولهذين الطائرين أجنحة جلدية ، إلا أنهما لا يستطيعان الطيران ، وريشهما أشعث مثل ريش الدجاجة ، ولديهما أقدام كبيرة، والحافر مثل حافر « التوفارين »[151] (دابة النقل والأحمال) ، والرقبة طويلة ، والرأس صغير مثل رأس الإوز أو البط ، وإذا ما شاكسه أحد ، فإنه يضربه بحافره .

غادرنا هذه المدينة مبحرين فى النيل . وهذا النهر يروى الأرض المصرية كلها . وهناك لا يوجد شتاء أو أمطار ، وعندما يرتفع منسوب المياه فى وقت صيام " سباسوف "[152] ، يروى النيل كل الحقول المصرية بدلاً من الأمطار . بالإضافة لذلك يقوم السكان المحليون بملء القنوات وإطلاق المياه إلى الأراضى ، ويحتجزون المياه فى الحقول . وبفضل ذلك تعطى الأرض محصولين . ولا يوجد فى الأرض المصرية أى نوع من الثمار فيما عدا البلح . وتشبه خمائل النخيل فى الأرض المصرية غاباتنا الكبيرة . وحرارة الشمس مفرطة . والأرض المصرية كئيبة . والناس هنا سيئون للغاية .

أبحرنا عبر النيل مسافة مائتى ميل ، ومررنا بالقرب من جبال الفراعنة المبنية من الحجر، والتى ظهر للمصريين عليها معجزات شنيعة إذ يقولون أنه من هذه الجبال يطلقون المطر والرعد . ومن تلك الجبال وصلنا إلى مصر العظيمة (القاهرة) ، حيث أقمنا ثلاثة أيام لدى قداسة البطريرك فى المقر السكندرى . وتوجد هنا فى المقر كنيسة القديس نيقولاس.

149 - سباسوفكا هو صيام عيد رقاد أو انتقال العذراء ، ويبدأ من 1 أغسطس بالتقويم القديم.
150 - بداية الفيضان السنوى .
151 - التوفارين هو دابة النقل .
152 - صيام سباسوف هو نفسه صيام رقاد أو انتقال مريم العذراء .

وقد حكوا عن هذه الكنيسة المقدسة بأسلوب رائع إذ أنه كان هناك شخص مشهور من القسطنطينية فى الإمارة المصرية ، وأمر بانتزاع كنيسة القديس نيقولاس وبناء حمام فيها . وحزن البطريرك لذلك جداً ، وصار يصلى مع المسيحيين فى الكنيسة. وفى نفس الليلة ذهب القديس نيقولاس إلى الأمير ، وضغط بيده على حلقه ، وقال له : " لماذا أمرت أن تصنع من بيتى حماماً ؟ وإذا لم تأمر بإعادة بيتى للمسيحيين ، سوف آتى إليك فى الليلة القادمة وأهلكك " . فأمر الملك على الفور بإعادة هذه الكنيسة ، وأعيدت بسلام إلى البطريرك والمسيحيين . وحتى هذا اليوم يقيم البطريرك الخدمة الدينية فى هذه الكنيسة.

وفى اليوم التالى اصطحبونا إلى القاهرة القديمة . وفى القاهرة القديمة توجد كنيسة كبيرة للقديس جيورجى (مار جرجس) المنتصر المسيحى ، حيث يوجد فى الجهة اليمنى أيقونة نحاسية للقديس مار جرجس . ومن هذه الأيقونة تحدث العديد من البشارات والشفاءات ليس للمسيحيين فحسب ، ولكن أيضاً للأتراك والعرب والشعوب الأخرى والمهرطقين ، والكل يأتى إليها بدون حظر . كما يوجد العديد من الكنائس الخاضعة للمهرطقين مثل كنيسة رقاد أم الإله المقدسة ، والشهداء سيرجيوس وواخس ، وكنيسة القديسة الشهيدة العظيمة باربارا .

يعيش فى القاهرة القديمة عدد قليل من عجائز الغجر المصريين ، والغالبية من الأتراك والمسيحيين . وسور المدينة تهدم فى بعض الأماكن ، ولكن بقيت فقط عدة أبواب كاملة، والتى دخلت من خلالها أم الإله المقدسة مع المسيح ويوسف من أورشليم . ومن هنا عدنا مجدداً إلى مقر البطريرك.

أبحرنا من القاهرة مع التيار فى نهر النيل ، حيث يتفرع النيل إلى فرعين ، ووصلنا مدينة دمياط ، أى إلى (أسبانيا) . أقمنا هناك فى مقر دير أورشليم ثلاثة أيام . وفى مدينة دمياط توجد كنيسة يقوم فيها بالخدمة الدينية مطران بطريرك الإسكندرية المقدس . وفى يوم تمجيد الصليب[153] قمنا باستئجار مركب ، ودفعنا عن كل فرد منا واحد ليف ، وأبحرنا إلى البحر الأبيض المتوسط . ومضى يومان وليلتان فى لمح البصر ، ووصلنا إلى مدينة كاتريس التى كانوا يطلقون عليها فى الزمن القديم أيوبيا ، ويطلق عليها الأتراك حالياً يافا[154] .

فى نهاية اليوم السابع عشر وصلنا إلى ميناء الإسكندرية فى الخور البحرى ، وقابلنا المرشد البحرى العربى فى قارب صغير ، ويطلقون عليه بالعربية ريس البوغاز ، وهذا يعنى الريس فى الخور البحرى . وفى اليوم الثامن عشر نزل الجميع من القارب ، وبما أننا كنا حجاجاً فقد أقمنا فى خان العباد ، وبلغتنا يطلق عليه بيت الضيافة . وفى نفس اليوم ذهبنا إلى الدير وقت صلاة المساء . يقع هذا الدير فى مدينة الإسكندرية القديمة ، ويقيم فيه رئيس دير بطريرك الإسكندرية . ويوجد فى هذا الدير كنيسة القديس سابا، حيث يوجد فى الجهة اليمنى للمذبح مبنى جانبى منفصل للقديس العظيم جيورجى (مارجرجس) ،

153 - تمجيد الصليب الطاهر والباعث للحياة يتم الاحتفال به فى 14 سبتمبر بالتقويم القديم .
154 - تم إغفال وصف زيارة كل من مكارى وسيليفيورست للأرض المقدسة .

وفى الجهة اليسرى يوجد مبنى جانبى منفصل مشابه ، إلا أنه يقوم فيه بالخدمة الدينية الفرنجة فقط .

هذه المدينة القديمة الإسكندرية تسمى بالعربية سكندرى ، وهى أصغر قليلاً من القسطنطينية ، إلا أنها تهدمت بالكامل حتى الأساس . وكانت المنازل فيها ضخمة ، أما الآن فقد تناثرت بعض هذه المبانى كالغبار ، كأنها جبال قائمة . وفى مكان ما لازالت توجد أسوار قلاع وأبراج ، ويبدو أن الإسكندرية كانت أجمل بكثير من القسطنطينية. ويقولون أن فى هذه المدينة مازال يوجد شىء رائع حتى الآن ، ولقد رأيناه على الرغم من أنه قد تم صنعه بطريقة غير ملحوظة ، فقد تم بناء مدينة سكنية ثانية للملك تحت أرض مدينة الإسكندرية بأكملها ، وسميت بالعالم الثانى ، وتقع هذه المبانى تحت الأرض على عمق أربعة ساجين ، أما عمق المبانى تحت الأرض فيبلغ ثمانية ساجين أو أكثر. ويوجد حالياً ماء وفير جداً فى بعض المساكن ، ولا يوجد فى البعض الآخر . ويستخدم جميع سكان مدينة الإسكندرية هذا الماء ، وفى الأماكن الأخرى حيث لا يوجد ماء يسير الكثيرون بالشموع ، ويقولون أن المبانى هناك لم تهدم مثل البيوت والممرات التجارية ، ويوجد كثير من النقوش على الجدران .

لا يوجد فى ربوع مدينة الإسكندرية أى بيت مسيحى ، فهنا يعيش البوسورمان (المسلمون) من العرب والأتراك وكثير من اليهود . جميع البيوت مبنية من الحجر ومن الطوب، ولا توجد أقبية حجرية ، وفى الممرات لا توجد بوابات أو مزاليج ، ولا يوجد قضبان حديدية على نوافذ البيوت . وبدلاً من الأقبية الحجرية يضعون عوارض رباعية الجوانب ، وعليها يضعون ألواح خشبية . وبعد ذلك ، يخلطون التراب مع الجير مع الرماد ، ويدهنون من الأعلى ، وهذا هو السقف عندهم . والأرض فى جميع أنحاء الإسكندرية رملية . والنوافذ أحجامها كبيرة ، وذات مشربيات خشبية ، وتغلق من الداخل .

فى العشرين من أكتوبر خرجنا من مدينة الإسكندرية فى الساعة الثانية ظهراً، وأبحرنا طوال اليوم مسافة ثلاثين ميلاً نحو الشرق إلى مدينة أبو قير ، إذ أنه لم تكن هناك ريح مواتية ، وقضينا ليلتنا بالقرب من المدينة بجوار الميناء عند الخور البحرى ، ويعد هذا الخور أفضل من الخور السكندرى . وأولئك الذين ذهبوا إلى المدينة لشراء الحاجيات والطعام، لم يجدوا شيئاً على الإطلاق . فضلاً عن الطعام والشراب ، فالمدينة فقيرة للغاية، وتعداد سكانها قليل .

فى يوم الحادى والعشرين من أكتوبر سافرنا من مدينة أبو قير قبل بزوغ الفجر بساعتين، وقطعنا مسافة ثلاثين ميلاً . وقبل أن نصل إلى مدينة رخيت بثلاثة أميال ، وتسمى بالتركية والعربية رشيت (رشيد) ، وبسبب الطقس السيئ ، وصلنا فى الساعة الرابعة إلى مصب نهر النيل الذى يطلق عليه فيسون ، وجلسنا هناك بالقرب من الشاطئ طوال اليوم ، وتوجهنا إلى القرية قبل المساء بساعتين . وتزدهر على ضفاف نهر النيل حتى القاهرة حدائق النخيل الكبيرة ، ويقولون أنه يوجد بساتين يبلغ عرضها 5 فراسخ ، وفى أماكن

أخرى يصل عرضها إلى 10 فراسخ ، وتؤول ملكيتها للسكان المحليين من العرب والأتراك ، كما أن الأماكن على ضفتى نهر النيل حتى مدينة رشيد رطبة للغاية ، ومنخفضة ، وينمو فيها القصب بوفرة ، والأرض سوداء وغنية بالطمى ، وهناك يزرعون الحبوب بوفرة ، و نحن نطلق عليها قمح المسلمين (الأرز) ، وتنمو هنا بوفرة . وإذا دعت الحاجة للمياه ، فإنه على ضفة النهر يوجد الكثير من الآبار المحفورة عليها سواقى كبيرة تحركها الثيران ، وتغذى قنوات الرى بالمياه . ويقوم آخرون بحفر القنوات لتوصيل المياه مباشرة من النهر .

ولقد اقتربنا من القرية فى الساعة الثالثة مساءً .

وفى اليوم الثانى والعشرين وجدنا مركباً فى الميناء محملاً بالملح والأرز ، وتزمع الإبحار إلى دمشق[155] . وحضر إلينا فى القارب قبطان هذا المركب ، وسألنا عمن يريد الذهاب بصحبته إلى يافا ، واتفقنا مع الحجاج الآخرين أن ندفع عن الفرد الواحد (عملة من فئة العشر روبلات) ، وبقينا فى رشيد منذ يوم 22 أكتوبر حتى يوم 31 أكتوبر .

وفى الأول من نوفمبر سافرنا من جديد عبر الطريق السابق إلى مصب نهر النيل ، وتوقفنا لمدة خمسة أيام بسبب الطقس السيئ والحمل الزائد ، لأنه لا تدخل أى مركب إلى مدينة رشيد ، ولا تغادرها بدون حمولة .

وفى يوم الخامس من نوفمبر أبحرنا نحو الشرق إلى يافا .

155 - من الواضح أنه يقصد سوريا ، وليست عاصمتها التى تقع بعيداً عن البحر .

- آندرى إيجناتيف (1707 م)[156] :

وصلنا إلى بيلوجيا (دمياط) فى نهار شهر مايو ، وأقمنا فى مقر دير سيناء . وفى مساء الخامس عشر من مايو أبحرنا على متن كايكا (سفينة صغيرة) عبر نهر النيل إلى مصر (القاهرة) بعطف من الأسقفية . ووصلنا إلى القاهرة فى الثامن عشر من مايو ، وفى يوم التاسع عشر من مايو ذهبنا للصلاة فى الدير النسائى (دير الراهبات) للقديس الشهيد العظيم جيورجى (مار جرجس) ، والدير يشبه البرج الكبير ويتبع بطريرك الإسكندرية. وتوجد هناك أيضاً كنيسة أخرى غير أنها حالياً مهجورة . وتقام فيها الخدمة الدينية يوم الأحد ، وفى يوم السبت يأتى آباء دير سيناء من مقرهم للقيام بالخدمة الدينية . وتبلغ المسافة من مقرهم إلى مصر القديمة مسيرة ساعة واحدة سيراً على الأقدام .

فى كنيسة أم الإله بقيت حتى الآن أيقونتها المقدسة على الحائط الغربى فى مكان مرتفع . ويقولون أنه من هذه الأيقونة حدثت تلك المعجزة : إذ كان هناك أمير ما مصاب بالتقرحات فى جميع أجزاء جسده لسنوات طويلة ، وجاءه هاتف فى المنام ، يقول له : «انهض وتوجه إلى ذلك البلد وابحث ، ففى الأرض توجد أيقونة سرية لأم الإله المقدسة . وأمام هذه الأيقونة يوجد قنديل به زيت الميرون مشتعل قرابة سبعين عاماً .

ادهن جسدك المتألم بزيت الميرون » ، وقد أيقظه هذا الصوت من نومه ، ووجد ما رآه فى المنام، وأخذ الميرون من القنديل المشتعل أمام الأيقونة ، ودهن جسده وشفى كأنه لم يمرض من قبل . وفى تلك الكنيسة صلى أمام هذه الأيقونة القديس[157] ....الذى كتب عنه فى الديباجة[158] عندما تناقش مع اليهود عن العقيدة ، وقالوا : « اطلب من ربك كما هو مكتوب فى إنجيلك ، وقل لهذا الجبل أن يتحرك من مكانه » ، وعندما شرع فى الصلاة تحرك هذا الجبل مباشرة إلى مصر، وتوسل اليهود مجدداً لهذا القديس لكى يتوقف ، وبفضل صلوات هذا القديس توقف مجدداً .

توجد هناك أيضاً مغارة أم الإله المقدسة حيث هربت إليها من أورشليم مع الطفل يسوع وخطيبها يوسف وأقامت فيها عدة سنوات[159] . وفى عهد دولة الملوك الأتقياء[160] تم بناء

---

156 - نشرت فى إصدار : الحجاج الكتاب فى عهد بطرس وبعد عهد بطرس ، أو المسافرون إلى المدينة المقدسة أورشليم // قراءة فى تاريخ المجتمع الإمبراطورى والآثار الروسية فى جامعة موسكو ، كتاب 3 ، قسم ف . م ، 1873 ، ص 43 ـ 46 ، قام بالترجمة ى . ف . فيودوروفا .

157 - طبقاً للتاريخ القبطى يقصد القديس سمعان الخراز ، انظر ف . ف . بلياكوف مصر طولاً وعرضاً . كتاب تاريخى ، موسكو عام 2001 م ، ص 130 ـ 131 .

158 - الديباجة ـ كتاب المناقب الروسية القديمة ، والذى يرجع إلى سير القديسين البيزنطيين ، والذى يكون فيه سير القديسين طبقاً لأيام الذاكرة الكنسية .

159 - طبقاً للتاريخ القبطى أقامت العائلة المقدسة فى هذا الكهف أو المغارة فى طريقها من مصر إلى فلسطين .

160 - الإمبراطورية البيزنطية .

كنيسة رائعة فوق هذه المغارة ، وأنشئت فى المغارة نفسها كنيسة ، ورغم أنها صغيرة إلا أنها جميلة للغاية . وحالياً تنتمى الكنيسة والمغارة للأقباط الذين يغمرونها بقرابينهم ، ويوجد فى هذا الكهف فى كل جانب أربعة أعمدة مرمرية ، وورائهم من الناحية اليسرى، بجانب عمودين ، توجد عوارض صغيرة من شجرة ما بدلاً من الدعامات ، ويقطع منها المسيحيون شرائح ولكن بصعوبة كبيرة . لون تلك الشجرة مثل لون البن ، أما عندنا فلونها شبيه بلون القرنفل . ومهما قطعوا منها ، فإنها لا تنقص . ويقولون كما لو أن هذه الشجرة من فلك نوح . وعندما وصلنا إلى أماكن العبادة هذه ، أرانا مرافقنا مخازن غلال يوسف الجميل ، والتى شيدت فى عهد دولة الفراعنة ، فقد قاموا بتخزين القمح فيها فى وقت المجاعة . وشيدت هذه المخازن على طراز مخازن الغلال عندنا ، إلا أنها بدون أسقف . وهناك حتى الآن يحتفظون بكميات كبيرة من القمح السلطانى ، ومنه أيضاً يبيعون ، وهناك حيث توجد المرافئ الكبيرة يتم شراء كميات كبيرة من قمح تلك المخازن .

بعد عودتنا من هناك اعتلينا برجاً حيث تقوم الثيران برفع المياه القادمة من النيل ، إذ ترفع الثيران الماء من البئر الأول ـ الأسفل ـ الذى يوجد على عمق أربعين ساجين (الساجين 1326,2 متر) ، وينساب الماء عبر ميزاب إلى البئر الآخر ـ العلوى ـ ومنه يرفعون الماء أيضاً ثمانية ساجين إلى الميزاب العلوى ، وهذا الميزاب مبنى من الحجر ، ويرتكز على أعمدة حجرية ، ويمتد إلى القصر العالى القديم[161] . وفى هذا القصر كانت توجد الزنزانة التى سجن فيها يوسف الجميل من قبل بينتيفرى[162] . وتقع هذه الزنزانة على عمق 500 درجة سلم . وفيها حالياً يوجد آبار وسوران وحوضان للغسيل . وتدير الثيران السواقى ، ففى الجزء السفلى يوجد ثوران لكل ثلاث سواقى ، وهما يديران السواقى بالتناوب وبلا انقطاع ، وتزود القاهرة كلها بالماء عن طريق مَيازيبُ غير مرئية . وإلى الآن يوجد فى هذا القصر ، على مكان مرتفع ، منزل يوسف الجميل ويطلقون عليه بالعربية .... وفى لغتنا يعنى فى العلية . والمبنى رائع وجميل .

توجهنا من هذا البيت إلى قصر الباشا . وهناك رأينا نعامتين أى سترافوكاميل (النعام)، ولديهما ريش أسود على الظهر ، وقليل جداً أسفل المؤخرة ، والأجنحة بيضاء ، والرقبة والأرجل عاريين كما عند الجمل ، والطول كطول مهر عمره عام واحد . وعندما عدنا من هناك ، رأينا جلود هذين الطائرين مع الريش معروضين للبيع فى ممر تجارى . وفى نفس اليوم الموافق السابع والعشرين من مايو سافرنا على الجمال من مصر إلى جبل سيناء .

---

161 - يصف المؤلف " بئر يوسف " فى القلعة فهو بناء هندسى مائى معقد بعمق 90 متر تقريباً.

162 - بينتيفرى ـ الاسم الإنجيلى السلافى لأحد رجال الحاشية الملكية للفرعون (رئيس الحرس) والذى باع له التجار من بنى إسماعيل يوسف فى مصر .

- **إيبوليت فيشينسكى[163] :**

وصل أفاناسيى الذى أصبح رئيس أساقفة جبل سيناء من أورشليم ، وشكوت إليه أننى لم ألحق يوم الأحد (عيد الفصح) فى أورشليم . قال لى : « اذهب معى إلى مصر ، وسوف أرسلك إلى جبل سيناء ، وستقيم هناك لمدة عام ، وستتعود على المكان ، وسترى كل شىء ، وستذهب فى الأحد الآخر (عيد الفصح) القادم إلى أورشليم » . وقررت الذهاب معه. وانضم إلى القس هارون المندوب الوطنى الذى كان راهباً فى أورشليم . وكان معه أخوه ستيفان ، وكان معى راهب دمشقى . وبعد أن تجهزنا سوياً ، سافرنا من يافا مع العرب فى يوم 19 أبريل .

سافرنا على متن تلك السفن التى تشبه السفن النهرية ، وأبحرنا حوالى ثلاثمائة ميل إلى (بيلوسيا) أو دمياط . أبحرنا أربعة أيام وأربع ليالى ، ووصلنا إلى ذلك المكان حيث يصب نهر النيل فى جنة عدن أو (فيسون) . وأعلى هذا المكان ، حيث يصب نهر النيل فى البحر ، تم بناء مزاغل على كلا الجانبين . وبدلاً من القلاع توجد العديد من المدافع بعضها فى مقابل بعض ، ولا توجد أى معابر ، إلا أنه يوجد معبر واحد من جهة البحر . يصب النهر الكبير فى البحر ، ومن البحر تأتى أمواج مضادة ، وإذا اضطررت إلى اجتياز هذه الحافة الناتئة ، فإنه يخرج من هذه القصور المسافرون على متن قوارب ، فى كل منها عدة أشخاص ، ويرافقوك إلى النهر على الرغم من أنهم من العرب . وعندما تكون الأمواج قوية تتهشم السفن .

لا تبحر السفن الكبيرة فى نهر النيل ، لأن المياه تكون ضحلة فى بعض الأماكن ، وإنما تبحر فيه السفن الصغيرة فقط ، وكذلك لا تبحر فيه السفن الكبيرة والجاليونات . وقد انتظرنا حتى تقل المياه ويضمحل المكان ، واصطحبنا العرب عبر هذه الحافة الناتئة الرهيبة . وقادونا إلى رصيف الميناء الأول (بوميرى) ، وعلى الفور أخذ العرب يهزوننا ، وقاموا بتفتيش كل شىء لأنهم يأخذون هناك مكوس ، ولم يأخذوا منا شيئاً . وأبحرنا عبر النيل ساعتين حتى بيلوسى أو دمياط ، ومكثنا سوياً مع الأسقف فى مقر رئيس أساقفة سيناء فى بيلوسى (دمياط) .

تشبه مدينة دمياط القرية ، وتقع على ضفتى نهر النيل ، وبينهما يجرى النهر . والبيوت كبيرة (ثلاثة طوابق فى الارتفاع) . والحوائط مبنية بالطوب ، وليست من الحجر . ولا يوجد أى سور أو أسقف على البيوت ، لأن المطر لا يسقط هناك أبداً ، والندى هناك قليل. وما يزرع فى الحقل سواء كان الجودار أو البساتين يروى جميعه بمياه القناة . فقد تم شق قنوات من النيل تتدفق فيها المياه ، ووضعت أعلاها سواقى تسحب الثيران بواسطتها

163 - نشر فى إصدار : إيبوليت فيشينسكى . رحلة الأب إيبوليت فيشينسكى فى أورشليم وسيناء وجبل آثوس (1707 ـ 1709) ، مكتبة سانت بطرسبورج ، 1914 ، ص32 ـ 40 . قام بالترجمة ى . ف . فيودوروفا .

المياه ، وتصبها فى القنوات[164] ، ومنها تتفرق المياه إلى أماكن الزراعة ، وتروى كل شىء . وعندما ينخفض الماء تقوم الثيران بسحبه ، وما إن يبدأ الماء فى الزيادة ، فإن القنوات تمتلئ تلقائياً فى كل مكان . وعندما تنحسر المياه فإنهم يزرعون فى هذه الأرض ما يشاءون . والأرض تطرح محصولاً وفيراً ، إذ يجمعون الثمار مرتين فى العام ، وهناك الكثير من أشجار النخيل ، وكأنهم يعيشون فى غابات البلح . وعلى امتداد نهر النيل يعيش الأتراك والعرب والمسيحيون . والأرض هنا مثمرة . وتوجد فى مدينة دمياط كنيسة القديس الشهيد جيورجى (مار جرجس) التابعة لبطريرك الإسكندرية القديس جيراسيم .

والماء فى نهر النيل عذب وصحى .

يصب نهر النيل فى البحر عن طريق فرعيه : إحداهما فى بيلوسى (دمياط) ، والآخر فى راخيت (رشيد) ، وهناك يعيش بطريرك الإسكندرية المقدس الذى يعيش فى مذبحه اثنان من الرهبان . وهناك لا يوجد شىء ، ولا يوجد أى خان مسيحى هناك ، ويعيش هناك الأتراك والعرب ، أما اليهود فتعدادهم السكانى أكبر ، ويعيش هنالك أيضاً معلموهم وحاخاماتهم . وتقع مدينة دمياط على الأرض العربية ، أما رشيد والإسكندرية فتقعان على الجزر البحرية[165] ، إلا أن موانيهم كبيرة .

فى يوم الثالث من مايو أبحرنا عبر النيل إلى سيكورو أو القاهرة التى تقع على مسافة خمسمائة ميل من بيلوسى (دمياط) ، وعادة ما ترى القرى والمزارع على ضفتى النيل ، فهى تقع على الجزر ، ومن غير الممكن ألا تتقابل مع العرب .

بعد ذلك أبحرنا بجوار مدينة كاروستيليس . وهناك لا توجد كنائس أو مسيحيين ، وهناك يعيش الأتراك وحدهم ، ومساجدهم قائمة . وهذه المدينة أيضاً تشبه القرية . وبعد ذلك أبحرنا بمحاذاة مدينة صور ، وأقمنا هناك حيث يتفرع نهر النيل إلى فرعين .

وصلنا القاهرة يوم الخامس من مايو وبقينا هناك ، حيث كان يوجد منزل بطرس عديم الرحمة الذى ضرب أحد الفقراء بالرغيف ، وبه تم خلاصه[166] . (ضرب بطرس الغنى الكاره للفقراء رجلاً فقيراً بالرغيف عندما كان عماله يخبزون ، فأخذه الرجل ومضى ، ورأى فى المنام أنه يُحاسب ولم يفعل خيراً فى حياته سوى هذا ، وتحول من يومها إلى بطرس العابد - المترجم) . ويوجد بجوار منزل بطرس مأوى للمسيحيين ، فهم يمكثون هناك عندما يأتون من الإسكندرية ورشيد أو بيلوسى (دمياط) . ويوجد أمام هذا المرسى ثلاثة أبراج عالية بناها اليهود أيضاً للفرعون ، وبسبب السخرية من اليهود ، فقد وعد النبى موسى بإنزال غضب الرب على الفرعون إذا لم يطلق هذا سراحهم من السخرة المصرية ، إلا أن الفرعون كان قد نسى غضب الرب ، ولذلك أخذ يطارد موسى، وغرق فى البحر الأحمر .

---

164 - يدور الحديث عن الساقية ، وهى عجلة رفع المياه التى تحركها الثيران .

165 - غير صحيح : تقع كلتا المدينتين على اليابسة ، وتقع مدينة رشيد على مسافة 9 كم من شاطئ البحر .

166 - القديس بطرس ، ومن قبل كان جابى الضرائب .

اصطحبنا رئيس أساقفة جبل سيناء القديس أفاناسيى من بيت بطرس إلى مقره فى دار الضيافة . ودائماً ما يتواجد هناك المسيحيون ، وقد أعطونا كل ما يلزمنا ، فالمقر كبير ، وهناك يعيش ثلاثة رهبان ويقومون بخدمة جميع النزلاء ، وهم يدفعون لهم مقابل ذلك .

فى يوم التاسع من مايو نزلنا فى مقر الدير السيناوى ، وتوجهنا إلى الأسقف . وكان لديه أكثر من خمسين من الأخوة فى القاهرة ، إلا أنه لا يوجد لديهم كنيسة أو دير ، بل توجد لديهم فقط قلاية منفصلة عوضاً عن الكنيسة الصغيرة . وعندما يريدون إقامة الخدمة الدينية للرب ، فإنهم يتوجهون إلى كنيسة ميلاد أم الإله المقدسة العذراء التابعة لبطريرك الإسكندرية . فغير مسموح لهم ببناء كنائس ، فالكنيسة التى كانت لهم والمقر الصغير ضمهما الأتراك لمسجدهم . ولا يوجد لديهم فى المدينة أى مزارع أو حقول ، فكل شىء يشترونه فى مكانه . ويعطونهم المال من الصدقة ، فهم يطلبون من المالطيين[167] والفلاش والفرنسيين ، والجميع يقدمون لهم الصدقات . وقال الأسقف أن إخوته الذين يطلبون الصدقات بلغوا أكثر من مائتى شخص . واستقبلنا فى قلايته وتناولنا الطعام معه . وهو شخص طيب للغاية من مواليد مدينة سالون[168] ، ويستطيع أن يتحدث الروسية . وأعطيته كتاب « السلام عليكِ يا مريم »[169] ، وشكرنى جداً على هذا الكتاب وتناوله بحب ، وهو يقرأ القليل بلغتنا .

يوجد فى القاهرة كنيستان[170] فقط ، هما كنيسة ميلاد أم الإله المقدسة ، وكنيسة القديس الشهيد جيورجى (مار جرجس) . ويتولى بطريرك الإسكندرية أمر الكنائس والمسيحيين . وتوجد أيقونة عجيبة للقديس جيورجى (مار جرجس) فى كنيسته ، وهى ليست كنيسة علمانية ، وإنما دير نسائى (دير للراهبات) يسمى « مأوى الغرباء » .

يوجد هناك أيضاً كنيسة كبيرة مبنية من الحجر لرقاد أم الإله المقدسة ، وهى فارغة. وتوجد هناك حتى الآن أيقونة خشبية معلقة على الحائط . وقد تم دفن هذه الأيقونة فى الأرض خوفاً من الكفار ، وبقيت هناك لمدة سبعين عاماً . وذات مرة مرض راهب بالحمى، وظهرت له العذراء المقدسة ، قائلة : « اذهب إلى الكنيسة الخالية ، واحفر هناك ستجد أيقونتى هناك قائمة ، وأمام هذه الأيقونة قنديل مشتعل ، وستصبح معافى » . وبدأوا فى الحفر . ووجدوا فى الأرض وفى القبر الأيقونة قائمة ، وأمامها قنديل الزيت مشتعلاً . وأخذوها بكل تكريم ، وشفى المريض فوراً . وقد أقاموا هذه الأيقونة على الحائط ، وحتى الآن ظل القنديل مشتعلاً منذ أن وجدوه . ويدفن فى هذه الكنيسة الموتى من القوميات المختلفة ، مثل الرهبان المسيحيين والأرمن والسكيثيين والأقباط والفرنجة والأريسيين ، وتوجد لكل عقيدة مقابر منفصلة .

167 - كما هو واضح المولدوفيين .
168 - سالون - مدينة سالونيك المعاصرة - " العاصمة الشمالية " لليونان .
169 - " السلام عليكِ يا مريم " - صلوات تمجد أم الإله تشير إلى اختيارها من بين نساء العالمين ، واصطفاء ابنها كالمخلص الإلهى للأرواح البشرية .
170 - يقصد الكنائس الأرثوذكسية والكنائس القبطية فى القاهرة القديمة ، والتى يبلغ تعدادها الخمسة .

القاهرة مدينة كبيرة ، وهى أكبر من القسطنطينية ، وتلك التى كانت فى عصر الفراعنة كانت تسمى بمصر القديمة ، وتقع على النيل . وفى تلك القاهرة القديمة مازالت مخازن الغلال التى بنيت فى عهد يوسف الجميل قائمة ، وحتى الآن يكدسون الحبوب . أما مخازن الحبوب التى ينقل العرب إليها الحبوب ، فقد بنيت على النمط التالى ، إذ هى عبارة عن ساحة واسعة مبلطة بالطوب ومحاطة بسور ، ومن الأعلى محاطة بالأسلاك الشائكة ، ولها بوابتان : إحداهما للدخول والأخرى للخروج . وفى الداخل يوجد أمثال الشوارع والخانات ، وجميع المبانى والحوائط مبنية بالطوب ، وفى مخازن الحبوب لا توجد حواجز أو غرف ، إلا أنها مبنية بالطوب حتى الركب لكى لا تسقط الحبوب أسفل الأقدام . ويقوم العرب بنقلها على ظهور الجمال . ولا يتم تغطية مخازن الحبوب بأى شىء ، لأن الأمطار لا تتساقط هناك أبداً ، و يحفظون فيها غلال الملك التركى ، ويرسلون إلى القوات من هذه الحبوب ، وهم لا يحتفظون بها أكثر من عام لكى لا يفسدها الدود الأحمر .

يوجد فى مصر بصفة دائمة أربعون ألفاً من الإنكشاريين[171] جاهزين على الفور لخوض المعركة ، يُطعمون من هذه الحبوب . ويوجد أيضاً اثنا عشر ألفاً من الدراويش الأتراك على الجزر البحرية ، والذين يعيشون مع زوجاتهم على البحر الأحمر . كذلك يوجد خمسون ألف حارس لتابوت ماجميتوف (النبى محمد) ، يتم إطعامهم جميعاً من الحبوب التى توجد فى مخازن يوسف الجميل . ويتم نقل هذه الحبوب إلى الميناء ، وكذلك تنقل إلى مدينة السويس على متن السفن ويبيعونها فى هذه الجزيرة[172] ، حيث توجد أعداد كبيرة من القوات . ومن يريد رؤية هذه المخازن فإنه يدفع عشر (بار) قطع من النقود ، ويسمح العربى له بمشاهدتها .

توجد هناك أيضاً كنيسة أم الإله المقدسة التابعة للأقباط أو النساطرة[173] ، ويوجد فى هذه الكنيسة كهف[174] يمتد أسفل المذبح على عمق عشرة سلالم ، وأنشئ على مثال الكنيسة . ويبلغ ارتفاعه ثلاثة ساجين ، وعرضه أيضاً بنفس المقدار ، وفى كل جانب يوجد أربعة أعمدة مرمرية ، ومن حيث يدخلون و يخرجون يوجد عمودان ، وضعت فوقهما شجرة لونها لون القرنفل . ويمكن أن يأتى إلى هذه الشجرة حتى ألف شخص ، ويقطع كل واحد منهم جزءاً . وتأتى فى الصباح ولا تجد ذلك المكان ، حيث قطعوا بالأمس من تلك الشجرة ، وهى تصبح سفينة الرب الكاملة . والكهف كله مبطن بالمرمر . ويوجد فى المنتصف مقعد حيث كانت العذراء المقدسة مع المسيح ويوسف يجلسون بأمر الملاك ، إذ قال ليوسف : « خذ الصبى وأمه واهرب إلى مصر[175] » إلخ .

171 - الإنكشاريين - قوات المشاة النظامية للإمبراطورية العثمانية فى عام (1365 ـ 1826 م) .

172 - ليس واضح ماذا يقصد المؤلف بالجزر فى البحر الأحمر .

173 - يضع المؤلف دليل للمساواة غير الشرعية بين الأقباط والنساطرة ، حيث أنهم أنكروا مؤخراً الفترة الربانية للمسيح فى نفس الوقت الذى اعتبر فيه الأقباط أن الربانية فى المسيح قد أخفت إنسانيته .

174 - غير دقيق : تقع المغارة أسفل مذبح كنيسة القديسين سيرجيوس وواخس ، وليست أسفل كنيسة السيدة العذراء .

175 - " ظهر ملاك الرب فى المنام ليوسف ، وقال له : « قُمْ وَخُذِ الصَّبِى وَأُمَّهُ وَاهْرُبْ إِلَى مِصْرَ ، وَكُنْ هُنَاكَ حَتَّى أَقُولَ لَكَ . لأَنَّ هِيرُودُسَ مُزْمِعٌ أَنْ يَطْلُبَ الصَّبِى لِيُهْلِكَهُ » . إنجيل متى 2:13 .

قبل قدوم المسيح ومريم ويوسف كانت تعيش فى ذلك الكهف أفعى كبيرة ، التى شعرت سريعاً بقدوم المسيح ، وبدأت تصدر فحيحاً ، ودوى صوتها ، ووصل إلى جميع من فى القرية ، ثم هربت من هذا الكهف . وكانت الشجرة التى لا تنقص أبداً واقفة فوق الكهف، وعندما وصل المسيح إلى هذا الكهف انحنت له . ويسيطر الأقباط محطمى الأيقونات[176] على الكنيسة والمغارة .

فى مصر (القاهرة القديمة) تم توصيل المياه من نهر النيل إلى البئر الذى يبلغ عمقه خمسين ساجين ، وتقوم الثيران برفع المياه من هذا البئر ، ثم تقوم برفعه مجدداً إلى الجبل خمسين ساجين أخرى بواسطة الساقية . وهناك على الجبل توجد بركة تعيش فيها الأسماك ، وتتدفق المياه فى الجبل عبر الأسوار ، وكأنه نهر يؤدى مباشرة إلى القصر ، حيث كان يقيم الفرعون ويوسف الجميل . وتتدفق المياه لمسافة أكثر من ميل من هذا السور حتى القصر حيث توجد البركة . وقد أنشأ اليهود هذا السور من أجل الفرعون ، أما المياه فى هذا الجبل الذى سجن فيه يوسف الجميل لمدة سبع سنوات ، فكان يستخدمها جميع المقيمين فى هذا القصر ، ولولا أنهم شقوا طريقاً للمياه من النيل ، لكانوا بدون هذه المياه جميعاً من الهالكين[177] .

يوجد هناك أيضاً (أعلى النيل) أربع قنوات كبيرة حفرت على نطاق واسع . وعندما تبدأ المياه فى الزيادة منذ الرابع عشر من يونيو حتى الخامس عشر من أغسطس ، يتم فتح هذه القنوات ، ومن ثم تملئ مياهها جميع القنوات الأخرى ، وتتزود كل القنوات بالمياه فى كل الأماكن القديمة والجديدة . ويصل إلى هناك الباشا تغمره السعادة لأن الرب أرسل الماء من عدن ، أى من الجنة . وبهذا الشكل تصل المياه إلى أى مكان يريدونه ، وتبقى طوال السنة ، ولو لم تبقَ المياه فإنهم ينقلون الماء من نهر النيل على ظهور الجمال والبغال ويبيعونها .

انظر رقاد أم الإله المقدسة . يتدفق النهر من جنة عدن كالذهب الخالص وأحياناً أصفر ، ومائه عذب ، والسمك فيه لذيذ جداً . ولقد سألنا العرب المتقدمين فى السن هل يعرف أحد من أين ينبع هذا النهر ؟ قالوا : « يتحتم الذهاب إلى الجبل ؛ إلى الأعلى مع تيار النهر ؛ عبر هذا الماء لمدة 20 يوماً ، وهناك عالياً فوق الصخرة توجد مدينة ، والتى تأخذ المكوس [178] » . ووراء هذه المدينة تسير مسافة يوم ، وهناك توجد جبال عالية ، وصخور حجرية ، وكثير من الوحوش الضارية . وفى الصخور توجد ثعابين وزواحف مخيفة . وهناك أيضاً تقابل زواحف ذوات الأربع أرجل ، ولها ثلاث أو خمس رؤوس أو أكثر ، وإذا تمكنت من إنسان ووجدته فإنها تأكله ، والمضى قدماً غير ممكن ، ومن تحلى بالشجاعة فإنه لا يعود .

---

176 - غير صحيح . لا يعد الأقباط محطمى الأيقونات ، إلا أن نمط رسم الأيقونات القبطية يختلف بشكل كبير عن نمط رسم الأيقونات الأرثوذكسية .

177 - يدور الحديث عن المجرى المائى الذى يوصل المياه من النيل إلى القلعة .

178 - فيما يبدو هى مدينة أسوان ، والجزء القديم للمدينة يقع هناك على قمة صخرية بجزيرة اليفانتين بالقرب من الحدود الطبيعية لمصر ، أى الشلال الأول للنيل .

فى مصر (القاهرة) توجهنا إلى القصر ، والقلعة هناك كبيرة وتقع فى مكان مرتفع، ويوجد فيها الكثير من المدافع وجميع أنواع الذخائر ، ويوجد بوابتان فقط والحراسة هنا شديدة للغاية . وفى القصر توجهنا إلى زنزانة يوسف الجميل ، والتى يهبطون إليها عبر 200 سلمة . وهناك يوجد ستة أزواج من الثيران تقوم برفع الماء إلى الجبل ، ومن هناك إلى حيث كان يوسف محبوساً فى زنزانته يلزم الهبوط 200 سلمة أخرى . ويصل الماء إلى البئر بواسطة قنوات متصلة بالنيل . وإلى القاع حيث كان يوسف محبوساً يتوجب الهبوط 400 سلمة . وفى هذا القصر الذى تم مد المياه إليه عبر الجبل يقيم باشا مصر . ويبلغ ارتفاع هذا القصر مائة وخمسين ساجين . وبعد أن خرجنا من هناك ذهبنا إلى بيتى الفرعون ويوسف الذين كانا فى وقت ما قصوراً جميلة من الرخام واليشب ، فهى كلها مبطنة بالموزاييك ورسومات زهور ذهبية بألوان مختلفة ، إلا أن هذا المبنى قد تهدم بالفعل . أما قصور يوسف وعلياته فهى قائمة حتى هذا اليوم ، وهناك فى القصور الجديدة يعيش الباشا[179] . ورأينا هناك طيور كبيرة هى طيور النعام . ويبلغ طول النعامة طول ثور فى الثانية من عمره، وأرجلها كبيرة ، فهى أكبر مرتين من أرجل طائر الغرنوق وسمينة وسوداء ، وأقدامها كأقدام العجل ، وفى قدمها ثلاثة أظافر ، والنعامة نفسها سوداء ، وبطنها بيضاء، ورقبتها أطول مرتين من رقبة البجعة ، وأنفها أسود ، وعيونها صفراء ، وحواجبها حمراء . وتأكل النعامة كل شىء يقدم لها حتى الحديد . وقد رأينا طائرين من طيور النعام . وإذا وقفت النعامة على قدميها ، فإنها تكون أطول من الإنسان ، ونظرتها سريعة . وعادة ما تضع بيضتين ، وترقد عليهما فى الماء .

تسك فى هذا القصر العملات مثل الاسبرى ، والبارى ، والتولتى ، والماكسيسى ، والدوكات (الدوكات عملة ذهبية أوروبية- المترجم) ، والتاليرى ونقود أخرى متداولة فى مصر . ومن هذا القصر ترى القاهرة بأكملها .

فى مصر الناس سيئون[180] ، فالعرب سود البشرة ويسيرون عراة ، وزوجاتهم بدون خجل يسرن أيضاً عاريات[181] . وهن لا يسرن بل يقفزن فقط وعيونهن مداعبة وعابثة . ويركض الماعز كقطعان فى الشوارع ، وإذا أراد أحد شراء اللبن ، فإنهم يحلبون الماعز فى الشوارع على قدر حاجته بشرط دفع المال . يوجد هناك الكثير من المرضى ، ويتوفى يومياً قرابة عشرة آلاف شخص ، فهم عادة يصيبهم مرض الطاعون . كان عدد السكان فى القاهرة القديمة والجديدة أربعة عشر ألف شخص ، أما الآن فيبلغ عدد السكان خمسة آلاف فقط، كما أنه كان يوجد هناك الكثير من الكنائس ، إلا أن الأتراك قاموا بتحويلها جميعاً إلى مساجد . وفى إحدى الكنائس التى تم الاستيلاء عليها أراد أحد الأتراك أن يفتح المذبح

---

179 - يصف المؤلف قلعة القاهرة و " بئر يوسف " الواقع بها . وهذه المبانى ليس لها علاقة بالفراعنة أو بيوسف ، إذ أنها شيدت فقط فى القرن الثانى عشر .

180 - من المحتمل أنه يقصد أن شكلهم قبيح ، وليس سيئون .

181 - من المستبعد أن نتقبل هذا التعبير حرفياً إذ أن غالبية الشعب المصرى مسلمة ، ولدى المسلمين قواعد صارمة فيما يخص ملابس النساء ، وقد تواجد المؤلف فى القاهرة فى أيام شهر مايو الحارة ، فربما كان من وجهة نظره أن الملابس التى كانت ترتديها المصريات خفيفة للغاية .

ولكنه لم يستطع ، ومنذ تلك اللحظة التى أغلق فيها المذبح بقدرة الرب لا يستطيع أحد أن يفتحه حتى الآن ، وحالياً لا يسمح للمسيحيين بدخول هذا المسجد .

على مسافة غير بعيدة عن هذا المكان يقع الجبل الذى حركه المسيحيون بفضل صلواتهم[182] ، وقد كُتب عن ذلك فى الديباجة ، فاقرأ عنه هناك . ورأينا هناك أيضاً كيف تفقس الأفراخ فى المفرخة بدون حاجه او مساعدة من الامهات . ويقومون بفعل ذلك على النحو التالى: يتم حفر حفرة ، وهى من الأعلى واسعة ومن الأسفل ضيقة ، وفيها يضعون البيض . وتحت تلك الحفرة يقيمون فرناً يكسونه بالروث من الداخل ، ومن الأعلى ينثرون عليه الروث ، وتوقد النار فى الداخل ، وتؤازرها حرارة الشمس من الخارج ، وهكذا تفقس الأفراخ . وفى اليوم الثالث ، يفتحون الفرن و يختارون البيض الذى ستفقس منه الأفراخ ، ومن جديد يكسونه بالروث ويدفئونه ويبقونه حتى اليوم التاسع . وتأخذ ربة المنزل ذلك البيض الذى يبدأ فى التصدع كما لو أنه على النار ، وتكسر القشرة عنه مساعدة بذلك الأفراخ على الخروج من البيض ، ويطعمونها جريش الدخن أو يجرشون لها الجودار لتكون حبات صغيرة جداً. ويفقس من مائة- إلى خمسمائة- إلى ألف فرخ ، ومن الممكن أن يكون أكثر . وهذه الدجاجات ليست كبيرة ، وبيضها أكبر بقليل من بيض الحمام . ومثل هذه الأفران التى تنتج فيها الأفراخ كثيرة جداً عند العرب ، وتجارة الأفراخ هى أيضاً حرفتهم . وفى مصر يتنقلون على ظهور الجمال والبغال والخيول والحمير ، ولا توجد عندهم عربات نقل تجرها الخيول . ويتطلب لإطعام الجمال 860 رطلاً من العلف أو أقل ، وللبغال 430 رطلاً من العلف.

فى مصر يسير الأتراك مرتدين ملابس جيدة ، وزوجاتهم كذلك ، أما العرب فغير ذلك ، فلو كان أحدهم غنياً ، فإنه يتغطى بعباءة مزركشة ، أما الباقون فكلهم يسيرون عراة. وهم أشرار للغاية ، فلو أنك قابلت أحدهم بمفردك فإنه ينهب ما معك ، وإذا بدأت بالمقاومة فإنه يضربك ، وليس عليه أى قصاص ، فهؤلاء الناس ملاعين .

أقمنا فى مصر (القاهرة) ثمانية عشر يوماً ، وخرجنا فى السادس والعشرين من مايو ، وزرنا أيضاً القصر الذى بناه أيضاً يوسف الجميل ، وقد تهدم بالفعل . وهناك يوجد البئر الذى يغتسل فيه الأتراك . وبعد أن قضينا هناك ليلتنا توجهنا إلى قرية ماريا (المطرية) ، والتى تقع على مسافة أربع ساعات سيراً على الأقدام من القاهرة . وتوجد هناك كنيسة السيدة العذراء الفارغة ، والتى يوجد فيها ينبوع للماء . وفى المذبح يوجد المكان الذى جلست فيه السيدة العذراء مع المسيح ويوسف عندما هربوا إلى مصر من الملك هيرودس قاتل الأطفال ، وليس بقاتل المسيح . وأدينا الصلاة هناك وتوجهنا إلى البحيرة حيث انتظرنا القافلة ، لأنه كان غير ممكناً من جراء السلب والنهب أن تسافر وحدك . وعندما وصلت القافلة الملكية المحملة بالقمح غادرنا إلى ميناء السويس ، وكان عددنا ستة آلاف شخص . اجتزنا الطريق الذى أخرج من خلاله موسى اليهود من مصر ، وحتى هذا اليوم بقى هذا الطريق . وواصلنا سيرنا فى طريق لا يوجد فيه أى عشب أو ماء أو شجر. وهكذا سرنا

182 - جبل المقطم يحد وادى النيل من الشرق ، والقلعة مبنية فى نتوءاتها .

يومين وليلتين ، فقد كان غير ممكن السير نهاراً بسبب حرارة الشمس المفرطة ، إلا أنه فى وقت الغروب كنا نخرج ونسير طوال الليل حتى موعد الغداء . واجتزنا الجبال العالية التى يقع وراءها طريق موسى ، والذى أخرج من خلاله الشعب اليهودى من مصر إلى البحر الأحمر .

تقع مدينة سوفيز " السويس" فى مفترق طرق على البحر . وتوجد هناك كنيسة القديس الشهيد جيورجى (مار جرجس) . ويمتد خليج من البحر الأحمر حول مدينة سوفيز "السويس" ، ويرتفع مستوى الماء هناك من منتصف الليل حتى منتصف النهار ، وينخفض من منتصف النهار حتى منتصف الليل . وحين ينحسر الماء ، يترسب الملح فيقومون بجمعه. وقد تم إقامة الحواجز هناك فى البحر . وعند مدخل المدينة يوجد برج واحد فقط . وعلى مسافة غير بعيدة من البرج يوجد سوق ، وكل شيء متوفر هناك . وفى هذه المدينة لا يحرثون ، ولا يزرعون ، وليس هناك حقول فى أى مكان ، ولا يوجد ماء عذب . إذ تحفر فى العمق بمقدار الركبة فيظهر الماء ، ولكن الماء مالح ولا يمكن شربه . و يجلب الماء العذب من مكان آخر لأن مياه البحر مالحة ، ويباع بثمن غال ، فمقدار لترين من الماء يساوى 2 بار ، بما يوازى ثلاثة تشيخا من عملتنا[183] .. وهناك على البحر يتواجد ميناء بحرى ، حيث ترسو سفن من جميع أنحاء المعمورة .

يحكون أن شجرة البن بلحائها وورقها تشبه شجرة الكرز ، والثمار تكبر فى أجولة ، وتحت الشجر يبقون الأرض نظيفة . وعندما يزدهر المحصول ، فإن الفروع تنثنى مباشرة حتى الأرض ، و يجعلون لها دعامة ، وعندما تنضج الثمار يهزون الشجرة ، و يجففون الثمار المجموعة فى الشمس . وبعد ذلك يقشرون حبوب البن من المنتصف ، ويبيعون الحبوب النظيفة ، ويسحقون القشرة ويشربونها[184] ، ويقومون بتبخير الحبوب النظيفة ، لكى لا تُخرج ثماراً فى البلاد الأخرى . ويقولون أنه من أجل ذلك قاموا ببناء مدينة على الميناء ، لأن الأتراك لا يحصلون فى أى مكان آخر على أرباح أكبر من تلك التى يحصلون عليها فى مدينة السويس[185] .

غادرنا مدينة السويس متوجهين إلى سيناء فى الثلاثين من مايو .

***

183 - تشيخا ـ هى إحدى العملات الروسية القديمة .

184 - قشرة القهوة مثل الحبوب تحتوى على الكثير من الكافيين ، وفى بلاد العرب يصنعون منه المشروب المنعش ـ قشر .

185 - نقل البن ، الذى كان يزرع فى هذه الفترة فقط تقريباً فى اليمن ، كان يدر على التجار المصريين أرباحاً كبيرة . كانوا ينقلون أجولة القهوة من الميناء اليمنى موكو عن طريق البحر إلى السويس ، وبعد ذلك ينقلونه بالقوافل إلى رشيد التى تقع على مصب الفرع الغربى للنيل فى البحر المتوسط ، حيث تأتى السفن من أجل البن من جميع البلاد الأوروبية ، بما فيهم روسيا .

الفصل الثانى



الفصل الثانى :

- فاسيلى جريجورفيتش - بارسكى (أعوام 1727ـ1730)[186] :

عام 1727 :

بعد أن انحنيت فى ذلك الدير للصليب المقدس ، بقيت فى جنبات الدير الأخرى ثلاثة أيام، ثم عدت من جديد إلى رفيقى ، وذهبنا من فورنا إلى ليميس[187] ، حيث قضينا ثلاثة أيام نستعد للسفر . ووجدنا مركباً فرنسياً يزمع الإبحار إلى الإسكندرية فقمنا باستئجاره وركبنا ، ثم أبحرنا من قبرص البحرية الشهيرة فى الثامن عشر من يوليو لأننا أردنا الذهاب إلى الإسكندرية التى تبعد عنا مسافة خمسمائة ميل . ولم يكن الوقت ملائماً فقد أبحرنا ستة أيام . وغير بعيد عن الإسكندرية هبت عاصفة فى اتجاهنا ، حتى أننا عجزنا تماماً عن الإبحار قدماً . لذلك لجأ الربان إلى أحد المراسى جنوب الإسكندرية ، والذى يطلق عليه مرسى أبو قير . وهو مكان قبيح وفقير فى كل شىء لأنه يتواجد فى الرمال حيث لا ينبت أى شىء غير البلح بكميات هائلة ، و يجدل العرب من سعف النخيل سلال جميلة بمهارة فائقة ، ويبيعونها فى بلاد أخرى . ولا يعيش هناك المسيحيون ، هناك فقط يعيش الأجاريانى[188] " المسلمون " .

بعد أن علمت من « الجوالين » أن البطريرك لا يتواجد فى الإسكندرية ، وإنما يعيش فقط فى القاهرة ، أردت الذهاب إلى هناك فقط من أجل البطريرك ، وليس لأى سبب آخر . لذلك نقلت أشيائى إلى مركب أثيوبى (عربى) صغير ، وبعد أن مكثنا فى الإسكندرية لمدة يومين ، أبحرنا فى اليوم الثالث إلى بلد يسمى رخيت "رشيد" ، حيث أبحرنا إليه أولاً عبر البحر ، ثم عبر نهر النيل مسافة اثنى عشر ميلاً . ورشيد ليست قلعة محاطة بسور ، ولكنها مكان صغير فيه كثير من الناس ، والمبانى هناك كالمبانى التى توجد فى المدينة . تقع رشيد على نهر النيل فى مكان منبسط ورائع ، وتبعد عن شاطئ البحر اثنى عشر ميلاً. ويوجد بها كثير من أشجار البساتين مثل التين والخوخ والليمون ، وأشجار النخيل هناك

---

186 - نشر النص لأول مرة فى إصدار : الجوال فاسيلى جريجورفيتش ـ بارسكى ـ بلاكى ـ ألبوفا، المولود فى مدينة كييف الأوكرانية ، الراهب فى أنطاكية ، رحلة إلى الأماكن المقدسة فى أوروبا وآسيا وأفريقيا التى بدأت فى عام 1723 ، وانتهت فى عام 1747 ، سان بطرسبورج ، 1778. نشر فى إصدار : رحلات فاسيلى ـ جريجورفيتش ـ بارسكى إلى الأماكن المقدسة فى الشرق من عام 1723 إلى عام 1747 ، الجزء الأول ، سان بطرسبورج ، عام 1885 ، صفحة 407 ـ 424 ، الجزء الثانى ، سان بطرسبورج ، عام 1886 ، صفحة 157 ـ 166 ـ ترجمة ى ـ ف ـ فيودوروفا .

187 - ليميس ـ ليماسول الحالية (قبرص) .

188 - الأجاريانى ـ نسبة إلى هاجر ، والتى تسمى باللغة الروسية أجار (المترجم) .

هى الأغلب الأعم ، وهى كثيرة لا تحصى فهى كالغابة خضراء صيفاً وشتاءً ، لأن هذه الأشجار لا تلقى أوراقها أبداً .

ومنها يصنع الأثيوبيون "العرب" سلال وحبال وأقفاص وأشياء أخرى للأغراض التجارية .

توجد أشجار النخيل بغزارة على امتداد الاثنى عشر ميلاً على ضفاف النهر والجزر النيلية. وهو جمال لا تمل منه العين أبداً . ويوجد هناك ميناء كبير وغنى تأتى إليه جميع السلع التجارية من القاهرة عبر النيل ، ومنه يتم شحنها إلى بلاد أخرى .

يأتى إلى هنا تجار من كل الأقطار ؛ من عموم الأناضول ، ومن البحرين الأحمر والمتوسط، ومن البندقية ، ومن عموم إيطاليا عن طريق اليابسة وعبر الماء . وهنا يشترون البن والأرز والكتان والبلح وأقمشة متنوعة وأشياء أخرى غالية الثمن واردة من الهند . ولا تأتى إلى هنا السفن الكبيرة ، بل تأتى فقط السفن الصغيرة لضحالة المياه ، ولهذا السبب تحمل السفن الصغيرة البضائع التجارية من هناك إلى الإسكندرية ، والتى تقع على الميناء البحرى ، ومن الإسكندرية تحملها سفن كبيرة إلى البلاد الأخرى .

البيوت فى رشيد عالية وجميلة جداً ، لأن فيها ـ كما فى القصور ـ كثير من النوافذ الصغيرة والكبيرة ، والتى من خلالها ترى البيوت من الداخل كأنها شِباك ، وتهب فيها الريح من جميع الجهات . والمبانى هناك غير مبنية من الحجر ، ولكنها تبنى من الطوب المحروق فى الفرن لصعوبة العثور على الأحجار هناك ، إذ لا يوجد هناك أية جبال ، والأرض مستوية ولينة فى كل مكان كما فى البلاد الروسية . ويعيش هناك أناس ذوى قوميات وديانات مختلفة ، مثل : اليونانيين ، والروم ، والأرمن ، والأقباط ، واليهود ، والأتراك ، والعرب. وتوجد هناك كنيستان مسيحيتان فقط ، إحداهما يونانية تتبع بطريرك الإسكندرية والدير الرومى ؛ الكاثوليكى ؛ بكنيسته ، وما تبقى مساجد تركية .

ثمن المخبوزات وكل أنواع الطعام فى رشيد ليس غالياً فيما عدا الخمر التى لا تُصنع هناك ، وإنما تجلب من الدول الأخرى من أجل المسيحيين واليهود . ولا يشرب الأتراك والأثيوبيون ؛ العرب ؛ الخمر طبقاً لتعاليم دينهم ، لكن يشربها البعض خفية ممن لا يلتزمون بتعاليم دينهم . ولا يوجد هناك آبار أو عيون للشرب ، والناس كلهم يجلبون الماء من النيل ويشربونه ، وإذا حفروا آباراً يجدون الماء مالحاً ، والذى يكون صالحاً فقط لغسل الأوانى .

وبعد أن قضيت هناك ثلاثة أيام افترقت عن صاحبى الراهب من جبل آثوس الذى ذكرته آنفاً . وفى آخر يوم من يوليو أبحرت عبر نهر النيل إلى المدينة الكبرى مصر ؛ القاهرة ؛ ، حيث وصلتها فى اليوم الرابع .

عن وصولى إلى القاهرة العظيمة والمشهورة فى كل مكان :

وصلت القاهرة العظيمة ولم أعرف (لأننى أجنبى وجاهل) أين أصلى وأجد مأوى لبعض الوقت ، وقد صليت للرب الكريم كى يرعانى أنا العاصى . وذهبت إلى ميتوخا[189] رهبان جبل سيناء ، أى إلى مقر إقامتهم .

يجىء الرهبان من الدير إلى هنا لإنجاز بعض الأعمال الكنسية فى القاهرة ، أو إلى الجانب الآخر الذى يوجد فيه الطريق عبر القاهرة . ويستريحون هناك بضعة أيام ، ويعيش البعض بصفة دائمة طبقاً للواجبات الرهبانية من أجل القمح والزيت والجبن والمنتجات الأخرى التى يشترونها لاحتياجات الدير ، ويبعثونها إلى هناك .

حين وصلت إلى الميتوخا كان إيوانيكى فى ذلك الوقت رئيساً لأساقفة جبل سيناء . وذهبت إليه على الفور ، وحييته كما يليق ، وأخبرته عن نيتى وسبب قدومى إلى القاهرة. فأجابنى بأنه إذا أنفق أحد الآلاف فإنه لن يمكنه الذهاب إلى جبل سيناء الآن بسبب عدم إمكانية إطعام الجوالين ، فضلاً عن رهبان الدير أنفسهم ؛ ومن المستحيل إرسال أحد إلى هناك ، فهم حتى لا يستطيعون إطعام الأثيوبيين (العرب)[190] . وكل الرهبان هربوا إلى القاهرة ، بقى فقط عدد قليل للأعمال الكنسية ، حتى لا يصبح المقر المقدس خاوياً . وذلك كان حقيقياً ، لأنه فى ذلك الوقت سرت شائعة بين الناس أن العرب قطعوا الطريق إلى الدير ، ولا يستطيع أحد أن يمر إلى هناك .

وقد أعطونى لبعض الوقت قلاية للمعيشة خارج المقر مع التجار اليونانيين ، حيث قضيت عدة أيام بناءً على رغبة رئيس الأساقفة . وكنت أذهب كل يوم إلى الرهبان من أجل الطعام وآكل عندهم . ثم طلبت من رئيس الأساقفة للمرة الثانية والثالثة ألا أحرم من هذه العبادة المقدسة . وأجابنى من جديد بأن هذا غير ممكن ماداموا لم يتصالحوا مع الأثيوبيين " العرب " ، فعندما يتصالحون سيفتح الدير من جديد . ولكن متى سيحدث هذا ، فإننا لا يمكننا أن نعرف فربما بعد عدة شهور أو بعد عدة سنوات . نفس الشىء قاله الرهبان الآخرون .

189 - ميتوخ (ميتوخا) أملاك أو مقر تابع للدير .

190 - الحديث يدور عن البدو من قبيلة جباليا الذين يخدمون الدير و يحصلون مقابل ذلك على الطعام .

عندئذٍ ملئت بالكمد ، ولم أعرف ماذا أفعل لأن فكرة العودة للوطن بدون هذه العبادة بعد أن زرت ، ببركة الرب ، أماكن مقدسة كثيرة قد أصابتنى بالحزن الشديد . ولكن الانتظار بدون معرفة كم من الوقت سيمر ، وكيف سأطعم هناك ، وكم من المصاريف سأنفق فى الطريق كان شيئاً غير مريحاً . فأوكلت حزنى إلى الرب لكى يساعدنى كيفما شاء . وإن كان الرب قد شاء تنفيذ رغبتى فإنه سيتولى أمرى .

فى هذا الوقت كان البطريرك المقدس كوزما الذى كان يزمع الذهاب من هنا إلى رشيد يوجد فى القاهرة ، فأردت أن أحصل منه على البركة ، وفى أحد الأيام ذهبت إلى المقر البطريركى منتظراً الوقت المناسب ، وفزت بتقبيل يده اليمنى . وعندما نلت البركة تحدثت معه وسألنى « من أنا » ؟ و « من أى بلد أتيت ؟ » و « لماذا أتيت إلى مصر ؟» ، وحكيت له بإيجاز . أشفق على أننى فى مثل تلك البلد البعيدة ، وكذلك فى فقر ، ولا أعرف أين أحنى هامتى ، ونصحنى فى أن أكون راهباً عنده .

وقد تركنى إذ لم أوافق على ذلك ، وقال إن الذهاب إلى جبل سيناء صعب ، ولكن إذا كان عندى النية أن أبقى فى القاهرة لبعض الوقت لانتظار الوقت المناسب لإتمام عبادتى ، فيمكننى أن أبقى هنا فى المقر وأن أطعم مع رهبانه ، الوقت الذى أشاءه .

وقد أخبرنى عن كل المسيحيين الذين سوف يساعدوننى ، وأعطانى صدقة بيده اليمنى. أخذتها من صاحب القداسة بامتنان ، وخررت ساجداً عند قدميه ، وقبلت يده اليمنى المقدسة، وشكرته جداً . وعهد بى شخصياً إلى رهبانه ، فقد أبقى عدد غير كبير منهم فى المقر لإدارة شئون الكنيسة والمسيحيين . وفى يوم الأحد ألقى عظة للشعب باللغة اليونانية لليونانيين الذين كان الكثيرون منهم يعيشون هناك . وبجانبه وقف مترجم. ما إن يسمع من البطريرك المقدس الكلام الذى ينطقه ، يترجم ذلك للعرب المسيحيين . وبعد العظة تلى على كل الذين تواجدوا فى الكنيسة إذن بالانصراف . وفى الصباح الثانى غادر القاهرة ، وكان يصحبه بتبجيل عظيم المجمع الروحى والإكليروس. وقد تصالح حينئذٍ رئيس أساقفة جبل سيناء مع البطريرك المقدس لأنه كان بينهما فيما قبل بعض النزاع .

بعد مغادرة البطريرك المقدس بقيت فى القاهرة فى مقره مع رهبانه الآخرين ، والذين أمدونى بالطعام والشراب الكافى كما لو كنت فى بيت أبى الذى أنجبنى . وعشت هناك منتظراً يوماً بعد يوم الوقت المناسب لرحلتى ، ودرست اللغة اليونانية ، ومجدت وشكرت الرب وكذلك الكريم العظيم بطريرك الإسكندرية المقدس كوزما . ولم أقم بأى عمل أو شأن غريب إلا إذا كان لحاجتى الخاصة ، فضلاً عن ذلك جعلنى الرهبان لبعض الوقت القائم على أمر المائدة ، كنت أعد المائدة وأنظفها ، وكنت آكل معهم ، وهذه الخدمة كنت أنا أريد القيام بها أكثر منهم .

أحبنى كل الرهبان من أجل البطريرك الذى عهد بى إليهم بحب ، وقضيت هناك أياماً سعيدة ، وحظيت بمعارف وأصدقاء كثيرين ، و سرت معهم بحرية فى القاهرة حيثما

شئت، وشاهدت كل الجمال والعظمة وبناء المدينة وجميع عادات وتقاليد الشعب المصرى، والتى سيأتى ذكرها لاحقاً فى وصف القاهرة .

عن المدينة العظيمة والشهيرة مصر "القاهرة" :

القاهرة مدينة قديمة جداً ولكن ليس بمبانيها ولكن بأعوامها ، لأنها كانت قائمة حتى قبل ميلاد المسيح ، وقبل العهد القديم الذى أعطى لموسى[191] . ومنها أخرج نبى الرب موسى الشعب الإسرائيلى ، أى اليهود ، مخلصاً إياهم من السخرة الفرعونية ، وقادهم عبر البحر الأحمر ، والذى ذكر فى التوراة القديمة بوضوح وإسهاب ، وفى أسفار الخروج . وما يُرى بالعين أكثر إقناعاً مما يُسمع . وخارج المدينة يوجد كثير من الجبال غير طبيعية المنشأ؛ ففى حقب عديدة كان الشعب فى القاهرة يكنس البيوت والشوارع ، وخارج حدود المدينة صنع جبالاً من القمامة . ويجب أن نعلم أن مصر تنقسم إلى اسمين : مصر تطلق على عموم البلد ، وكذلك المدينة تحمل نفس الاسم . والمدينة مصر لها أيضاً اسمين اثنين: مصر القديمة ومصر الحديثة[192] ، أى المدينة القديمة والمدينة الجديدة . المدينة القديمة التى كانت سابقاً فى عصر اليهود أصبحت الآن مهدمة بشكل كبير ، والأسوار والبيوت قد وقعت ولكن ليست كلها خربة وخاوية ، والآن يعيش فيها أناس أغلبهم مسيحيين .

تقع المدينة الجديدة على مقربة من المدينة القديمة ، ويعيش فيها الأمراء والوجهاء والتجار الأغنياء وكثير من الناس الآخرين ، وعن مصر هذه سأواصل كلامى .

مصر كلمة يونانية ، وهى توجد فى اللغة السلافية واللغة اللاتينية ، وباللغة اللاتينية تسمى (Cairo Gran ـ القاهرة الكبرى) ، وبالتركية مصر ، وبالعربية مايوار[193] . ومصر تقع فى مكان منبسط ولطيف وجميل على نهر النيل الشهير ، الذى يجلب لهذا البلد فائدة عظيمة . أما القلعة ، أى القصر[194] ، فيقع فى أعلى مكان فى المدينة بجانب الجبل، الذى لم يكن هناك من قبل . ففى عهد بطريرك الإسكندرية المقدس جيراسيم كانت هناك إساءة للعقيدة المسيحية ، ولكن بفضل صلواته وصلوات جميع المسيحيين وخاصة صلوات رجل تقى وبار يعمل إسكافياً فى الإسكندرية (سمعان الخراز المترجم)، بمشيئة

191 - عدم دقة ـ فى عهد الأسرات الفرعونية لم يكن فى مكان القاهرة أى مدن .

192 - مصر القديمة (القاهرة القديمة) ظهرت تحت أسوار حصن بابليونى الذى بناه الإمبراطور تراجان فى القرن الثانى الميلادى . ومصر الجديدة بالطبع (القاهرة) تأسست فى 969 م بواسطة الأسرة الشيعية الفاطمية .

193 - المؤلف ينسب للأتراك التسمية العربية مصر . والتسمية مايوار التى أوردها كتسمية عربية تستدعى كثيراً من الدهشة حيث أنها لم تذكر فى الأدب . من الممكن أن الحديث كان يدور عن الترجمة إلى اللاتينية واليونانية لاسم مصر كميت التى تعنى السوداء « ماوروس » باللاتينية ـ السمراء أو السوداء .

194 - القلعة .

الرب ، تحرك هذا الجبل من مكانه وجاء إلى هنا من مكان بعيد . وعن هذا يكتبون فى السير بلا شك وبكل ثقة ، و يحكى الشعب فى مصر عن هذا بيقين .

من هذا الجبل الحجرى تبنى المعابد والقصور وجميع المبانى . وتبنى بعض البيوت من الحجر الطبيعى والبعض الآخر من الطوب ، وهى جميلة وعالية ولها كثير من الأدوار العليا ونوافذ للتهوية . لأن الحرارة فى تلك الناحية يمكن تحملها بصعوبة بالغة . وأجمل شىء هناك المعابد التركية ؛ المساجد ؛ وقصور الوجهاء . إنها من الخارج جميلة بدرجة كبيرة ومن الداخل أكثر جمالاً ، وهى مطلية بالذهب من الأعلى أو مزخرفة بالورود ، ومن الأسفل مزينة ببراعة بالمرمر المختلف ومغطاة بمفروشات فاخرة ، حتى أنه ليس هناك مكان للبصق . وهناك عادة المرور إلى الداخل بأقدام عارية لأن السلالم مغسولة جيداً . والشوارع الواسعة هناك قليلة جداً فكلها ضيقة ، وبناء البيوت متلاصق جداً ، ولكثير من البيوت مدخل واحد ، حيث يعيش خمسة أو ستة رجال مع زوجاتهم وأولادهم معاً ، إذ يعيش أناس فى الأسفل وآخرون فى الأعلى ، وهذا بسبب العدد الكبير للناس الذين يعيشون هناك ، وهكذا هناك زحام شديد .

يقول الناس أن المعابد التركية ؛ المساجد ؛ فى القاهرة تصل إلى ستمائة مسجد ، والبيوت لا أحد يعلم عددها ، والناس كثيرة جداً حتى فى شوارع المدينة الضيقة ، وكثير من الناس يتواجدون يومياً فى السوق حتى أن المرور أمر فى غاية الصعوبة . ولا يقتصر ذلك على النهار فحسب ، حيث أن الناس يكثرون فى الليل كذلك ، لأنه لا أحد ينام هناك فى نفس الوقت أبداً فالبعض يعمل نهاراً والبعض الآخر يعمل ليلاً ، وغالباً ما يأكلون ويشربون بالليل. وفى الشوارع تكون المصابيح مضاءة طوال الليل لكى لا يتصادم الناس الذين يمشون ليلاً فى الطرق الضيقة ، وأيضاً لمعرفة الإنسان الشرير والقبض عليه . وعادة تجوب شوارع المدينة ليلاً دورية للبحث عن المجرمين ، وإذا قبضوا على مجرم ، ثم صدر منه مجرد إيماءة بسيطة لتعمد الشر ، فعلى الفور - وفى الشارع - يقطعون رأسه ، وبدون أى محاكمة ، لذلك يمشى جميع الناس فى الشوارع ليلاً وهم يشعرون بالخوف والتوجس .

يوجد فى القاهرة كثير من المعابد التركية ؛ المساجد ؛ الفسيحة والضخمة والجميلة البناء ، ولها من الخارج قباب كان من الممكن أن تكون كنائس مسيحية لو كانت هناك فقط مشيئة للرب . وشوارع المدينة غير مكسوة بالأحجار كما فى البلاد الأخرى ، ولكن هى أرض طبيعية ، وتكنس كل يوم ، وبعض الشوارع مليئة بالقمامة والقذارة، وذلك لأن الشعب الأثيوبى ؛ العربى ؛ همجى ولا يشمئز .. هذا سبب ، والسبب الآخر أن الناس تعيش متلاصقة . وليس هناك مدينة فى كل الأرض التركية أكبر من مصر (القاهرة). وعن ذلك كتب الإيطاليون الذين شاهدوا وجابوا كثير من المدن والبلاد :

«Tre paeze bono tropo grande grande gran cairo di Siria ,Milano di lombardia e parizo di Franza»

أى أنه : « فى كل أنحاء العالم يوجد ثلاث مدن هى الأكبر من حيث عدد السكان، ومن

حيث المساحة : القاهرة فى سوريا[195] ، وميدولان ؛ ميلان ؛ فى لومباردى فى الأرض الإيطالية، وباريس فى الأراضى الفرنسية » .

يعيش فى القاهرة أناس من جميع القوميات والديانات ويتكلمون بلغات مختلفة ، فمثلاً الأتراك والعرب ذوى عقيدة واحدة ، وفضلاً عن ذلك فاليونانيون والعرب مسيحيون أرثوذكس ، وعندهم ثلاث كنائس . الأولى هى كنيسة القديس نيقولاس ، وتوجد فى المدنية الجديدة ، وفيها مذبحين ، والثانية للقديس الشهيد جيورجى (مار جرجس) فى مصر القديمة .

يوجد فى الدير رهبان مساكين وعجائز ضعفاء وأيتام فقراء يعيشون على صدقات المسيحيين . وهناك توجد أيقونة أم الإله ، والتى جاء بها من البندقية أحد التجار بأمر ووحى ظهر له فى المنام فى عام 1727 . والكنيسة الثالثة هى كنيسة أم الإله العذراء المقدسة . وهى خاوية لا يوجد لها أبواب أو مزاليج ، ولا يوجد فيها أية زخارف من الداخل ، على الرغم من أنه فى كل يوم سبت تقام الليتورجيا (القداس الإلهى) على الموتى لأن أجسادهم كانت تدفن هناك[196] ، وهذا المعبد كان كبيراً جداً فى ارتفاعه وطوله وعرضه . ومن المعروف أنه كان فى السابق جميلاً جداً ، والآن أصبح مهدماً ، وينبغى علينا أن نأخذ بعين الاعتبار سنوات عمره : كل الكتابات والتوقيعات قد تقشرت فيما عدا اسم القديس جريجورى بطريرك الإسكندرية ، ولكن من غير المعروف هل كتب اسمه لاحقاً أم حدث له ترميم. وفى هذه الكنيسة توجد أيقونة لأم الإله المقدسة قديمة جداً ، وهى تحمل على يديها السيد المسيح ومرسومة من الرأس إلى القدم على الخشب . و يحكون عن هذه الأيقونة أنه فى عهد اضطهاد المسيحيين تم دفنها فى الكنيسة تحت الأرض مع قنديل الزيت المضاء ، وفيما بعد عندما أصبحت الكنيسة خاوية ، ومضى كثير من السنوات ، وكان الحاكم المصرى العظيم ـ والذى كان على عقيدة أخرى ـ قد أصابه المرض ، وعندما لم يتمكن الأطباء من علاجه ، أوحى له فى المنام بأن يأمر بالحفر ليستخرج الأيقونة ويدهن من زيت القنديل ، وعندها سيشفى . وقام بتنفيذ هذا بدون إبطاء ، وعندما وجدوا الأيقونة مع القنديل الذى لم يطفئ ، دهن المريض ، وعلى الفور (يا لها من نعمة كبيرة يا أم الإله) شفى وأصبح معافى ، ومنذ تلك الساعة أعاد للمسيحيين تلك الكنيسة .

فضلاً عن ذلك ، يعيش فى القاهرة الروم ؛ الكاثوليك ؛ والرهبان والعلمانيون ، ولهم كنيستين ؛ واحدة فى القاهرة الجديدة ، والأخرى فى القاهرة القديمة . والقداس الإلهى (الليتورجيا) يقيمونه أيضاً فى الكنيسة الخاوية التى سبق الحديث عنها . وهناك يدفن الفرنسيين وأهل البندقية والأسبان والقنصل الفرنسى الذين يخضعون له . وفى القاهرة يعيش الإنجليز وقنصلهم . وهناك الكثير من الأرمن ، ولهم كنيسة وبطريرك. ومازال يعيش هناك بعض المسيحيين المهرطقين ويدعون الأقباط ، أى أنهم المختونين الذين

195 - يقصد بها سوريا العظيمة ، أى الشرق الأوسط فى العموم .

196 - من المحتمل أن الحديث يدور حول كنيسة أم الإله فى الجبانة الملاصقة لدير القديس جيورجى (مار جرجس) .

يرسمون علامة الصليب و يختتنون ، ويتمسكون بكثير من الهرطقات الأخرى . وهم كثيرون جداً فى القاهرة ، وكنائسهم ليست قليلة . ولهم بطريرك خاص بهم .

وهم وبطريركهم يعدون أنفسهم أرثوذكس[197] ، ويدعون أن بطريركهم يستحق كرسى الإسكندرية[198] . وهم لا يعدون البطريرك اليونانى وكل من معه أرثوذكس . فضلاً عن ذلك ، يعيش هناك كثير من اليهود ، ولهم معبدهم ، ومساكن معزولة . وهناك أيضاً كثير من الأتراك الجوالين من القسطنطينية ومن الأناضول ، ومن المدن الكبرى الأخرى ومن الجزر البحرية ، ولكن العرب كثيرون لا يحصون لأنه هناك مولدهم وبلدهم .

والمصريون لا يشربون أى ماء فيما عدا ماء النيل .

تشتهر القاهرة بكثرة التجار ، وسلعها الغالية والمتنوعة ، إذ يوجد هناك مرسى للتجار العائدين من الهند . والفائدة الكبرى للقاهرة نهر النيل والبحر الأحمر ، والذى تتصل بدايته بالمحيط ، ونهايته تبعد عن القاهرة ثلاثة أيام سيراً على الأقدام عبر اليابسة ، حيث يوجد مرفأ يسمى سوفيز " السويس " . ويعود التجار من الهند على سفن عبر المحيط ، ويعبرون البحر الأحمر ، و يجلبون إلى سوفيز؛ السويس؛ البخور ، والمر[199] ، والفلفل ، والقرفة ، والبهارات والعطور ، وكذلك أوانى من الصين والأشياء القيمة الأخرى . وكذلك يجلبون البن الذى يزرع فى اليمن على البحر الأحمر ، وهى بلد مستقلة[200] لا تخضع للحكم التركى . وبهذه الطريقة ، تجلب كل السلع عن طريق البحر الأحمر ، ثم إلى سوفيز "السوس" ، ومن هناك إلى القاهرة عبر اليابسة . وبالعكس من القاهرة عبر البحر الأحمر يرسل الأرز والقمح والفول والعدس ، وكل السلع الغذائية ، والتى تكون شحيحة هناك . والبحر الأحمر يجلب لمصر فائدة عظيمة القدر .

يجلب نهر النيل أيضاً خيراً كبيراً ، فهو يفيض كل سنة . وحينئذٍ يحفر الناس قنوات ، وتشرب كل الأراضى المصرية من عذوبة النيل ذو الماء العذب والصحى ، وعلى الجزر النيلية يزرع القصب ذو العصير الحلو ، ومنه يصنعون السكر . وعندما ترتوى الحقول وينحسر النهر ، يزرعون القمح والأرز والفول والعدس إلى آخره ، والذى ببركة الرب يعطى محصولاً تطعم به مصر كل الجزيرة العربية ، ويزرع كثير من الأرز مثل الجودار والشعير[201] أو القمح فى بلادنا .

---

197 - الكنيسة التقليدية تسمى الكنيسة الأرثوذكسية القبطية على الرغم من القول بحزم أنها لا تعد أرثوذكسية ، ولكنها شرقية قديمة تؤمن بالطبيعة الواحدة . ويوجد فى مصر عدد كبير من الأقباط الكاثوليك البروتستانت كنتيجة لنشاط البعثات التبشيرية للأوروبيين .

198 - رأس الكنيسة القبطية كما هو الأرثوذكسى يحمل لقب بطريرك الإسكندرية وعموم أفريقيا .

199 - المر : هو القطران أو الراتينج ، شجرة الصمغ الجاوى ، تدخل فى نطاق الدهن العطرى لأجسام الموتى حيث أنه يحافظ عليها من التعفن .

200 - غير صحيح - الإمبراطورية العثمانية غزت اليمن فى عام 1532 م .

201 - جيتا - جودار و شعير .

تذهب المحاصيل السالف ذكرها من القاهرة عبر النيل إلى البحر المتوسط ، ومنه إلى عموم البلد التركى وما وراءه . ويجوب النيل عدد كبير جداً من المراكب الصغيرة والقوارب، لأن بعضها من الإسكندرية وبعضها من رشيد ، وأخرى من دمياط تجىء إلى القاهرة ، وأخرى تعود أدراجها من القاهرة .

على الرغم من أن مصر توجد تحت حكم السلطان التركى ، فإنها لا تذعن له إلى حد كبير ، فهى تدفع الجزية فقط ، والباشا الذى يحكم مصر يصدر قرار تعيينه فى القسطنطينية . غير أن الباشا هناك لا يحكم طويلاً ، لأن واحداً آخر يحل محله . الأهم من يكون الأقوى لأن أحداً لا يذعن للآخر ، وهم يحاربون بعضهم البعض .

يوجد فى القاهرة ميدان فسيح جداً ، أو بازار ، أو سوق يتجمع فيه كل يوم عدد غفير من الناس لا يحصى . وهنا الحوانيت التجارية متلاصقة جداً . والحقيقة أن المدينة كلها مليئة بالأسواق : ففى الأسفل فى كل الشوارع توجد حوانيت تجارية ، وفى الأعلى غرف عالية فوق بعضها البعض ، وفيها كثير من النوافذ ، وعليات بنيت من أجل التبريد . ويوجد فى أعلى كل البيوت المصرية أعمدة كأعمدة المداخن تهب فيها الريح ، وتنفذ إلى جميع غرف المبنى حتى الأسفل وتعطى تبريداً للسكان . وفى القاهرة يعد ذلك ضرورياً لأنه بسبب الشوارع الضيقة والمبانى العالية فإن الهواء لا يمكن أن يسرى داخل البيوت ، وبدون ذلك يكون غير ممكن للناس أن تعيش بسبب حرارة الشمس .

يباع الماء فى مصر على الرغم من مجاورة النهر . فالذين يعيشون فى البيوت الواقعة على ضفاف النهر يجلبون الماء بأنفسهم ، أما الذين يعيشون بعيداً فلا يستطيعون الذهاب كل يوم إلى النهر . ولذلك يوجد أناس متخصصون هم بائعو الماء (السقاة) الذين يغترفون الماء من النهر بواسطة قرب جلدية ، ويضعونها على الجمال ، و يجلبونها إلى المدينة ويبيعونها . ولا يوجد مصدر آخر للشرب لأن هذه البلد مالحة . وعلى الرغم من وجود آبار فى كل فناء، فالماء الذى فيها مالح تغسل به الآنية فقط . وفى القاهرة توجد قناة شقت من النيل يصل ماؤها إلى المدينة أثناء الفيضان ، وحينئذ يباع الماء بسعر زهيد . وتوجد خزانات فى الكثير من أفنية بيوت السادة ، أى حفر صنعت على مثال الآبار . ويملؤنها بالماء الذى يشترونه ويشربون منه طوال العام .

يوجد فى النيل سمك كثير متنوع . وينبع النيل من بحيرة أو حفرة تسمى زائير ، والتى تقع فى خابيسى . وعندما تبدأ هذه الحفرة فى الغليان يتضاعف الماء ، حينئذ يفيض النيل بشدة على ضفافه ، و يجلب فوائد كثيرة للقاطنين بجواره . وهو يمر عبر عموم أثيوبيا. وفى الروافد السفلى للمجرى عند القاهرة يتفرع النيل إلى ثلاثة أفرع : فالأول يجرى إلى الإسكندرية[202] ، والثانى إلى رشيد ، والثالث إلى دمياط حيث يصب أخيراً فى البحر الأبيض المتوسط .

---

202 - غير صحيح - من الفرع الغربى إلى الإسكندرية شقت ترعة كانت تمتلئ أيام الفيضان .

يوجد فى القاهرة أشجار بستانية كثيرة مثل البرتقال ، والليمون ، والرمان ، وأكثرها النخيل . وثمار الحقول ذات وفرة كبيرة شتاءً وصيفاً . والخبز والميرون والجبن والزيت والقهوة ، وكل المنتجات الغذائية تباع بسعر زهيد ، أما الخمر والخمر المصنوع فى المنزل فهما أغلى سعراً لأنه لا يتم صنعهما هناك ، ولكنهما يجلبان عبر البحر المتوسط . وفى القاهرة فضة كثيرة ، ويمكن أن تغتنى بسهولة ، خاصة لو عرفت سر الصنعة ، وكل صانع هناك يتوفر له العمل .

مصر "القاهرة" تنقسم إلى أربعة أسماء فالاسم الأول مصر ، حيث يعيش كل الناس ويوجد بها سوق . وهناك توجد الكنيسة اليونانية والمقر السيناوى ، ومقر القديس بطريرك الإسكندرية ، والذى يعيش فيه نائبه مع الرهبان ، وأحياناً يتواجد هناك البطريرك ، وهناك عشت كل أيام تواجدى فى مصر .

والاسم الثانى هو القلعة أو القصر ، والذى يقع على مكان مرتفع ومستقل ، ويسمى كالى[203] ، حيث ذهبت إليه أكثر من مرة ، وهناك مدافع وأسلحة ، وهناك يعيش الباشا والرؤساء الآخرون ، وهناك تعقد المحاكم وتقطع رقاب المدانين ، وهناك تسك العملة أو البيتازى[204] النحاسية والفضية والذهبية التى شاهدتها بنفسى . وهناك بقيت حتى يومنا هذا قصور الفرعون ويوسف الجميل (النبى يوسف- المترجم) ، والتى هى الآن مهدمة وخاوية.

قصور الفراعنة هى مبانٍ شامخة ومرتفعة بنيت من الأحجار الكبيرة ، ومن الداخل - كما تبين- كانت مطلية بالذهب . وغير بعيد عنها توجد أطلال أحد المبانى القديمة حيث يقع السوق الآن . وهناك الكثير من الأعمدة المصنوعة من حجر واحد ، وهى كبيرة لدرجة أن كل من يراها يتعجب ، كيف وبأى قوة حركوا مثل هذه الأحجار الثقيلة ، وبنوا بها!. والعمود من السُمك بحيث أن ثلاثة أشخاص بالكاد يمكنهم احتضانه ، وطوله ستة أو سبعة ساجين ، ولا أحد يعرف ما هذا المبنى ، ولكن يبدو لى أنه كان فيما قبل المحكمة التى عقدت فيها المحاكمات أثناء حكم الفرعون . وفى داخل القلعة توجد قصور يوسف الجميل الذى حكم مصر فى السابق وعاش فيها . وهى أيضاً تهدمت وأصبحت خاوية، حيث بقى منها سوران فقط ، والنظر إليهما ممتع ومدهش ، لأنهما مذهبين ومزخرفين بالفسيفساء الملونة وزهرة الأقحوان ، أى قوقعة اللؤلؤ ، وهذه ليست بمهارة بسيطة ، ولكن فيها من الخداع والدقة بحيث صورت الأرض والزهور المختلفة والأشجار والثمار والطيور وأشياء أخرى .

فى داخل كالى "القلعة" يقع بئر يوسف . لقد زرته وفحصته ، وتصويره بدقة ووصفه كما هو فى الحقيقة كان من الصعوبة بمكان ، لأنه لم يتسنَ لى أن أرى مثل هذا الشىء فى أى مكان آخر . وهذا البئر بنى بعقل أريب ونصيحة حكيمة ، لأنه عند حفره كان ينبغى إعمال الدهاء ، حيث أنه يقع بأكمله تحت الأرض ، ولا يرى منه أى شىء . ولكن للعقل الأريب أصف وأرسم هكذا : ليس للبئر مدخل يؤدى إلى داخل المبنى ، لأنه قد حفر فى الأرض الطبيعية أو فى الحجر اللين . والبئر ذو أربعة أضلاع ، وهى متساوية فى العرض

203 - القلعة بالعربية- حصن أو قلعة .

204 - من المحتمل قروش .

والطول ، ويبلغ قياس كل منها أربعة ساجين ، وهو عميق بدون قياس . وحول هذا البئر حفر طريق مثل الشارع أو المغارة . وفى السابق كان الطريق يصل إلى القاع ، لكن الآن حتى المنتصف فقط ، وفى حوائط البئر نحتت نوافذ للإضاءة ، ولكنها فى العمق توصل ضوءاً أقل ، ويجب أن تهبط بشعلة نار كما فعلت أنا . والعمال هناك يجلبون للأسفل ثيران ويربطونها فى ساقية مصنوعة بطريقة ذكية ، وبواسطتها يرفعون الماء من قاع البئر حتى منتصفه حيث يصب فى حوض ، ومنه يُرفع إلى قمة البئر بواسطة ثيران أخرى مربوطة أيضاً فى ساقية . ويسحبون الماء لخارج البئر عن طريق قواديس معلقة بالحبال، وغير ذلك لا يمكن الحصول على الماء من مرة واحدة بسبب العمق الكبير ، إذ أنه من مكان الثيران العليا إلى الثيران الثانية ينبغى الهبوط 200 سلمة كما عددتها بنفسى ، ومن هناك بالكاد يُرى الماء . ويقول العاملون هناك أنه للهبوط إلى القاع يبقى أكثر من نصف الطريق . والماء فى البئر ليس عذباً ، ولكنه ليس بشديد الملوحة ، ولذلك فى حالة الضرورة يمكن شربه من غير ضرر . وعلى ذلك فالبئر يتكون من جزئين .

مصر القديمة (القاهرة القديمة) هو الاسم الثانى لمصر . وعنه تكلمت آنفاً ، ويوجد هناك دير يونانى للشهيد العظيم القديس جيورجى (مار جرس) وكنيسة أم الإله ، وكذلك دير الرهبان الروم "الكاثوليك" وثلاث كنائس قبطية . وتوجد فى منزل ليس بالكبير تحت الأرض ، والذى فيه - كما يحكى المسيحيون - عاشت أم الإله العذراء المقدسة مع السيد المسيح ، والتى هربت من أورشليم قبل موت هيرودس . وهناك يوجد جرن المعمودية ، حيث قامت السيدة النقية بغسل المسيح المخلص . ويوجد بين القاهرة الجديدة والقاهرة القديمة قنال حجرى عالٍ والذى من خلاله يجرى الماء من النهر إلى كالى (القلعة) . وهو يرتكز على أعمدة مثل الكوبرى[205] .

المكان الرابع يسمى بولاكو "بولاق" ، ويوجد منفرداً وغير بعيد عن المدينة من ناحية الشاطئ النهرى . وهناك توجد منازل واسعة وجميلة وكثير من الحدائق الرائعة . وهناك يدفعون الجمارك على السلع الواردة ، والضرائب على المبيعات "نوع من الضرائب" . وهنالك الكثير من الحوانيت التجارية والشون ، والتى توجد تحت المحلات ، وفيها يخزن التجار سلعهم . وهذه الأماكن التى سبق ذكرها ، على الرغم من أنها تحمل أسماءً مختلفة ، فلها اسم موحد هو مصر "القاهرة" .

غير بعيد على ضفتى النهر توجد جبال من صنع البشر يسميها اليونانيون الأهرامات . وهى ذات أضلاع أربعة ، ويبلغ طول كل ضلع 75 قدم[206] ، أما ارتفاعها فيبلغ 50 قدم[207] ،

205 - يقصد مجرى العيون - مجرى مائى يمر على قنطرة مرتفعة .

206 - القدم : هو مقياس قديم جداً للطول ، يساوى 28.8 سم .

207 - من الملاحظ أن جريجورفيتش - بارسكى يورد بدقة بالغة ارتفاع أهرامات الجيزة 500 قدم = 144 متر ، وفى ذلك العصر كان ارتفاع هرم خوفو 147 متر ، وهرم خفرع 136 ، ولكن فى عشرة أمثال ينقص جوانب أساس الهرم (75 قدم = 21.6 متر) ، جانب هرم خوفو 230 متر ، وخفرع 215 متر . ويبدو أنه لم يذهب إلى الأهرامات ، ولكنه استقى هذه المعلومات فى القاهرة .

* كان طول هرم خوفو 280 قدم بالمقياس المصرى 146.5 متر (480.6 قدم) ، لكن مع التآكل وغياب القطعة الهرمية الخاصة به أصبح ارتفاعه الحالى 138.8 متر (455.4 قدم) . كل جانب للقاعدة كان 440 ذراع 230.4 متر (المترجم) .

وبينها يوجد ثلاثة هى الأكثر ارتفاعاً تسمى جبال الفراعنة . لأن الفرعون ـ الملك المصرى فى سالف الزمان ـ أنشأها بماله ومفكراً بطريقة دنيوية كما يحكى لكى يجعل منها ملاذاً ، إذا فجأة فاض النيل بقوة ـ بمشيئة الرب ـ وأغرق كل البلاد المصرية . ولتعلموا أخيراً أنه فى أعالى النيل ، بعيداً عن القاهرة ، وفى مكان واحد ، تعيش ثعابين تسمى التماسيح ، وهى على شكل السحالى بأربعة أرجل ، ولكنها ضخمة مثل أسماك الهوسو والحفش ، وتستطيع أن تعيش فى الماء وعلى اليابسة . فبعض الوقت تقضيه فى الماء ، وبعد ذلك تخرج إلى الشاطئ بين سيقان القصب ، وتأكله وتستريح هناك ، وإذا أدركت الإنسان فإنها تأكله.

ولتعلموا أخيراً أنه فى الكنيسة اليونانية فى القاهرة يقام القداس الكنسى بلغتين، اليونانية والعربية . يقرأ الرهبان باللغة اليونانية ، ويقرأ الكهنة العلمانيون باللغة العربية . ويلتزمون بالنظام الكنسى فى القراءة والترتيل ، وكم هو جميل سواء فى وجود البطريرك أو فى عدم وجوده ! . وفى القداس الإلهى (الليتورجيا) ، دائماً ما يقرأ أعمال الرسل وإنجيلين باللغة اليونانية وباللغة العربية ، وأحياناً يكون يومياً فقط عندما يَقدم آحاد الناس إلى الكنيسة .

وفى أعياد المسيح[208] ، وأم الإله[209] والقديسين الآخرين ، وكذلك يوم الأحد يقام قداسين الهيين (الليتورجيا) باكر وعشيه . ويحضر رهبان سيناء إلى كنيسة البطريركية ، ويقيمون الخدمة الإلهية كل يوم أحد ، وكذلك فى الأعياد لأنه لا يوجد لديهم فى مقرهم أى كنيسة . كان عندهم كنيسة صغيرة قديماً ، ولكن عندما حدث النزاع بينهم وبين بطريرك الإسكندرية كوزما أخذها الأتراك وحولوها إلى مسجد .

علمت ، ورأيت ، وسمعت مثل هذا لإرضائك أيها القارئ اليقظ ، كتبت هذا بإيجاز فى عام 1727 ، وأنا فى مقر الإقامة التابع للبطريركية السالف ذكره فى المدينة الكبيرة الشهيرة مصر (القاهرة) .

---

208 - أعياد المسيح – أعياد كنسية ، وفيها يمجد عيسى المسيح .

209 - أعياد أم الرب – أعياد على شرف أم الإله مريم .

عام 1730 :

بعد أن تركنا القاهرة ، خرجنا إلى البحر الواسع فى منتصف النهار وأبحرنا فيه بريح مواتية يوماً وليلة ، لم نرَ خلالهما اليابسة . كنا نرى فقط السماء والبحر . وفى اليوم الثانى وصلنا إلى المدينة الكبيرة والمرسى الشهير كرياتى[210] قبل منتصف النهار . وبعد سبعة أيام أبحرت فى النيل من هناك إلى مصر الكبرى " القاهرة " لتحية البطريرك المقدس كوزما وشكره على معروفه الذى قدمه إلى من قبل . وذهبت إلى جبل سيناء للحصول على البركة لجمع الصدقات . وأبحرنا ضد تيار النيل خمسة أيام بدون ريح مواتية لا حول لها ولا قوة ، وبالكاد وصلنا فى اليوم الخامس فى الثانى من أغسطس . وذهبت على الفور بدون تفكير "معتمداً على الاستقبال الأول و (الاستعداد لاستقبال الغريب)" فى مقر البطريرك المقدس . وكما هى العادة خررت ساجداً أمام قدميه المقدسة ، وقبلت يديه المباركة ، ونلت البركة ، وحييت صاحب القداسة بما يليق به . واستقبلت بالحفاوة التى تقدم للغرباء ، وبقلب كريم ووجه بشوش أكثر من ذى قبل (يا رب يا غنى بنعمه التى لا تحصى ، أجزل له العطاء والنعمة) . وأريته الورقة الأولى التى أعطانى إياها من قبل فى عام 1727 ، وأعطانى ورقة أخرى جديدة تسمح لى بجمع الصدقة فى الإبراشية . ولقد جمعت فى القاهرة ، وبمساعدة صاحب القداسة "البطريرك" ، صدقة كبيرة من المسيحيين الأرثوذكس "يا رب" أعطهم الخلاص ! . ولقد أقمت فى مقر الإبراشية . وطوال أيام الصوم كنت سعيداً بالمأكل والمشرب . وقضيت هناك قبيل رقاد أم الإله مريم المقدسة[211] ثلاثة عشر يوماً . وبعد أن غادرت القاهرة لم أرجع للخلف ، وإنما أبحرت فى الفرع الآخر للنيل إلى مدينة رشيد عازماً النية على أن أذهب إلى الإسكندرية كى أرى الآثار القديمة التى تدور حولها الشائعات . أبحرت إليها فى أول الأمر من قبرص ، ولكن شاء الرب ، وهبت ريحٌ معاكسة ، ولم يقدر لى أن أذهب إلى الإسكندرية . لذلك كما قلت تركت دمياط وأبحرت إلى رشيد .

يجرى النيل من المنابع فى مجرى واحد من الجنوب حتى مشارف القاهرة ، وعلى مسافة عدة أميال جنوب القاهرة يتفرع النيل إلى فرعين ، ينعطف الأول نحو الشرق و يجرى حتى دمياط ويصب فى البحر ، والفرع الثانى ينعطف نحو الشمال و يجرى حتى البحر على مشارف رشيد . وعن ذلك كتبت كثيراً فى الأعلى عندما وصفت القاهرة .

خرجت من القاهرة ووصلت رشيد بعد يومين عبر النيل وبدون شراع ، فقد حملنا إلى هناك تيار النهر السريع . وفى رشيد مكثت عدة أيام فى مقر البطريركية فى معبد القديس نيقولاس . وكان نائب البطريرك موجوداً فى هذا الوقت ، ولقد أريته الورقة البطريركية لجمع الصدقة . أخذها وقرأها يوم الأحد فى الكنيسة - حسب العادة - أمام الجميع وبصوت

---

210 - من حكمنا على النص التالى ، جريجورفيتش - بارسكى أبحر إلى دمياط .

211 - عيد أم الإله - يحتفل به فى 15 أغسطس بالتقويم القديم .

عالٍ ، وقدم المسيحيون تبرعاتهم (يا رب أعطهم الخلاص) . وفى نهاية الأسبوع ، عندما أنجزت كل الأمور ، استأجرت قارباً وجلست فيه ، ووصلت إلى الإسكندرية عن طريق البحر فى منتصف النهار ، كانت الريح مواتية حينئذٍ لأن النيل يجرى من رشيد مسافة اثنى عشر ميلاً ، وبعد ذلك يصب فى البحر .

تبلغ المسافة من هذا المكان إلى الإسكندرية ستين ميلاً . ويوجد طريق عبر اليابسة يستغرق قطعه يوماً واحداً سيراً على الأقدام ، ولكن هذا الطريق لا يطرقه من اعتاد على البحر . وعندما وصلت إلى الإسكندرية ذهبت إلى دير البطريركية كى أبقى هناك عدة أيام ، ولقد أنشئ باسم القديس سابا . ولا يوجد فى الإسكندرية مقر كنسى ، ولا مقر بطريركى ، ولا كنيسة علمانية ، ولا شىء غير هذا الدير الذى سأحكى عنه لاحقاً .

عن مدينة الإسكندرية :

كانت مدينة الإسكندرية فيما مضى مدينة عظيمة ، وقوية ، وشهيرة جداً ، ومقراً للملك حيث عاش فيها الملوك القدماء ، وكان أولهم الإسكندر المقدونى . لقد أنشأ هذه المدينة وأطلق عليها اسمه إذ أن الإسكندرية من الإسكندر ، وملكها بطليموس الذى ترجم العهد القديم من العبرية إلى اللغة اليونانية[212] ، وأشياء أخرى . والآن المدينة خاوية ومهدمة لدرجة أنه بالكاد يمكنك تخمين أنه كان يوجد هنا فيما قبل مدينة ، فهى أشبه بالقرية أو الضاحية ، لأن كل أسوارها سقطت وتهدمت ، ولا يزمع أحد أن يبنى أسواراً جديدة ، غير أن بقايا الأسوار مازالت قائمة ، وفى كثير من الأماكن يوجد مزاغل لضرب السهام ، وبوابتان تغلقان بالليل ، وهما البوابتان الجنوبية والشرقية اللتان تقعان من جهة اليابسة ، وأما البوابات التى من جهة البحر فقد سقطت . وفى داخل المدينة القديمة مبانٍ قليلة ، ولكن يوجد خارج حدودها على شاطئ البحر الكثير من الساحات ، والخانات والبيوت جميلة البناء من الحجر الأبيض . ويوجد هناك سوق كبير مع ممرات تجارية كثيرة أو حوانيت تجارية ، حيث تباع سلع متنوعة . ويعيش هناك صفوة المجتمع .

فى داخل المدينة القديمة ، يعيش المسيحيون واليهود والأقباط والأتراك متناثرين هنا وهناك ، وكلهم لهم أديرة خاصة بهم ، وكما يوجد أيضاً عند الإيطاليين دير بنى حديثاً باسم القديسة الشهيدة كاترينا . ويوجد هناك أيضاً دير القديس سابا المجيد . وفى داخل المدينة القديمة ، بالقرب من الدير فى الناحية الجنوبية ، توجد منازل مبنية بالطوب لكنها مهدمة . ويحكى المسيحيون أنه عاشت فيها القديسة الشهيدة كاترينا .

أمام هذه المنازل على مسافة قريبة عن اليمين والشمال توجد أعمدة قائمة طويلة وضخمة مصنوعة من حجر واحد . فيما يبدو أن هذا الحجر خليط من مرمر مسحوق متنوع، ولكن البعض يقول أن هذا التنوع فى الألوان ، مثل اللون الأحمر والأسود والأبيض ، هو طبيعى المنشأ . ويبدو أن هذه الأعمدة كانت فى البهو الملكى ، ولكنها الآن قائمة بجوار الطرق تغطيها نفايات المدينة ، فلا أحد يجرؤ على أن يحركها من مكانها أو يستخدمها بأى طريقة أخرى ، فهى ثقيلة جداً ، والناس فى هذا القرن ضعفاء ، وليسوا مثل العمالقة الأوائل .

هناك غير بعيد على الجانب الغربى يوجد مسجد تركى كامل ، وهو كبير فى عرضه وارتفاعه مثل الحصن ، أو القصر بنوافذ كثيرة ، وقبة حجرية واحدة . ويحكى الناس هناك أنه كان فى السابق معبد القديس أفاناس رئيس أساقفة الإسكندرية ، وقد كان يعيش فيه البطاركة القدماء .

---

212 - أول ترجمة للعهد القديم إلى اللغة اليونانية تسمى سيبتواجنيت (ترجمة السبعين مفسراً)، قد تمت فى الإسكندرية فى القرن الثالث والثانى قبل الميلاد بأمر من الملك بطليموس الثانى فيلادلفيوس (285 ـ 246 ق.م) ، والذى كان يزمع أن يحتفظ به فى مكتبته الشهيرة .

بجانب دير القديس سابا يوجد تل غير طبيعى المنشأ ، وقد نشأ هذا التل من الردم المتوالى لسنوات عديدة : فكل يوم يحفر العرب الأرض وينخلون الردم ، ويجدون ذهباً قليلاً ، وأحياناً يجدون فضة وعرق اللؤلؤ أو أحجاراً كريمة ، بالإضافة إلى أختام قديمة وأشياء أخرى[213] ، ويوجد أيضاً تل آخر من الردم بعيداً عن الدير من الناحية الغربية داخل أسوار المدينة القديمة ، ولكن لا يوجد فيه شىء .

من المعروف أن الإسكندرية لم تبنَ على أرض صلبة ، ولكنها ترتكز على أعمدة وقصور . ويحكون بثقة أنه يوجد تحت الأرض مدينة أخرى ، وآبار لا تحصى ، مثل المعابد ذات الأعمدة والمحاريب ، والتى كانت كل صيف تغمر بماء النيل . ومنها يأخذون الماء للشرب ورى الحدائق ، والاحتياجات الإنسانية الأخرى .

عند قرية تسمى فيفا (ربما يقصد مدينة فوه - المترجم) شمال رشيد يتفرع جزء من النيل ، ويجرى بعيداً عبر الأراضى ، ويقطع الإسكندرية من الجانب الجنوبى ، ويصب فى البحر . وهذا الجزء من النيل غير طبيعى المنشأ . ويحكى الناس أن الملك الإسكندر المقدونى شق هذه القناة وبطنها بالأحجار ، وسير الماء هناك ، لأن الماء الآخر مالح .

يوجد فى المدينة كثير من الأعمدة الحجرية ، بعضها كامل وقائم ، والبعض الآخر ملقى على الأرض فى كل مكان . وهناك عمود واحد كبير جداً فى ارتفاعه وعرضه قائم فى أحد ميادين المدينة ، وهو غير عادى فى الشكل والصنعة ، حتى أن كثير من الأجانب يندهشون . وهو يسمى عمود بومبى . وقديماً كان قد نصب فوقه معبود وثنى كان يعبده الوثنيون . ويحكون أن العمود كان قائماً فيما قبل فى وسط المدينة ، ذلك أن المدينة كانت كبيرة ، ولكنها الآن خربة تماماً حتى أنه لا يمكن تخمين ماضيها المجيد ، ولكن تلك البقايا لأسوار المدينة القائمة الآن كانت قد أنشئت فيما بعد . هذا العمود قاسه بدقة وبتدبر قياسون من البلاد الغربية (لأنهم يبحثون أى شىء بدقة) . وقد عرفت منهم أن ارتفاع العمود 122 قدم بشرى ، وقطره 12 قدم ، والعرض كبير بقدر إحاطة اليدين ، احكم بنفسك[214] . والعمود يتكون من أربعة أجزاء : الجزء الأول هو رأس العمود "التاج" ، والجزء الثانى العمود نفسه ، وقاعدة العمود تتكون من جزئين . ويقولون أن ساق العمود صنع من حجر كامل ، وطوله 100 قدم ، والرأس 20 قدماً ، والقاعدة 2 قدم .

ويقول آخرون أنه أجوف من الداخل ، ولكن حقيقة هذا أمر لا يعرفه أحد لأنه من غير الممكن تسلقه .

---

213 - فيما يبدو : يدور الحديث عن تل كوم الدكة الذى يوجد فى مكان غير بعيد عن الدير. وفى أثناء الحفر عام 1960م ، اكتشف أولاً المسرح الرومانى ، وبعد ذلك حى كامل أوائل العهد الجديد (القرن الأول) .

214 - جريجورفيتش – بارسكى بالغ بعض الشىء فى قياسات عمود بومبى : الارتفاع 122 قدم = 35 متر (فى حقيقة الأمر يبلغ ارتفاعه 27 متر) ، وقطره 12 قدم بما يساوى 3.50 متر (وفى الحقيقة يبلغ 2.7 متر عند القاعدة ، و 2.0 فى الأعلى) .

فى داخل المدينة من الجهة الشمالية بجانب دير القديس سابا بالقرب من البحر ، يوجد عمودان كبيران ، كل واحد منهما مصنوع من حجر واحد ، ويسميان عمودا كليوباترا. وكانت كليوباترا ملكة عظيمة أقامت لنفسها أثراً لا ينسى ، اثنين من الأعمدة الرائعة متماثلين فى الشكل والمقياس . وقع أحدهما بفعل الزمن ، ولكن الآخر يقف بثبات . وكما هو متعارف عليه فإن هذه الأعمدة كانت فيما مضى قائمة أمام القصر الملكى. وطولها 11 شبر كما قستها بنفسى ، ولكنى لم أتمكن من معرفة الارتفاع، إلا أننى قدرت أنها 10 ساجين[215] . وهذا حجر واحد مستقيم ، وليس مدوراً كما هى الصفة السائدة للأعمدة ، وهو ذو أربعة أضلاع ، ودقيق من الأعلى ، وكل الجوانب لها نفس العرض ، وعليها بمقدار أصبعين داخل العمود مرسوم بعض الرسومات أو الرموز التى رآها الكثيرون، ولكنهم لم يستطيعوا تفسيرها ، لأنها لا تشبه الكتابة اليهودية أو اليونانية أو اللاتينية أو أى كتابة أخرى[216] ، يوجد فقط رمز واحد يشبه كثيراً الحرف الروسى Ж جى[217] ، ولكن الكتابة الأخرى تشبه الطيور والسلاسل والأصابع أو النقاط. وبجهد كبير وبمعاناة أعدت كتابتها كلها من أحد جوانب العمود . ولإدهاش الناظر ، هذا مرسوم فى الصورة المشار إليها فى الأعلى .

وحيث أننى تكلمت عن الكثير من الأشياء ، فإنه يجب أخيراً أن أحكى عن دير القديس سابا المشار إليه آنفاً . يعيش هناك عدد قليل من المسيحيين ، ويوجد فقط البحارة الذين يجيئون ويذهبون ، لذلك لا يوجد هناك أى كنيسة . يوجد فقط دير القديس سابا، الذى ورغم وجوده داخل المدينة ، فإنه قائم فى مكان منعزل . والدير قديم جداً أقامه المسيحيون الأولون ، ولكنى لا أستطيع أن أعرف من هم تحديداً . والمبنى ليس كبيراً ، وحوائطه الأربعة عالية ، وهو عال ومغلق عن العالم الخارجى ، ولا يتميز بالجمال . أما موقع القلايات والمطبخ وحجرة الطعام الذى فى الداخل فهو جميل . وفى الحائط الشرقى فإن البوابات مبطنة بالحديد .

كنيسة الدير جميلة ومكسوة بالأحجار والمرمر ، ولها سقف مستو ، وليس لها قبة . والكنيسة كبيرة فى طولها وعرضها وارتفاعها ، وهى قائمة يدعمها اثنا عشر عموداً عالياً ، كل واحد منهم مصنوع من حجر واحد . خمسة أعمدة قائمة فى اليمين وخمسة على اليسار ، واثنان خلف حائط الأيقونات . وبالإضافة إلى هذه الأعمدة الاثنى عشر توجد أيضاً أعمدة مرمرية صغيرة .

---

215 - ومن المثير للاهتمام أن ارتفاع المسلات الذى حدده الكاتب بعينه أكثر دقة من القطر الذى قاسه بنفسه . ارتفاع المسلات 21 متر ، (وطبقاً لجريجورفيتش 10 ساجين أى 21.3 متر) والقطر 2.3 متر . وفى نفس الوقت ، قاس الكاتب 11 شبراً أى أقل من 2 متر ، وواحد بياد 17.78 سم) .

216 - الكتابة المصرية القديمة تم حل شفرتها فقط بعد قرن من زيارة جريجورفيتش – بارسكى لزيارة الإسكندرية ، وفى عام 1822 م تم فك رموزها على يد فرانسوا جان شامبليون .

217 - جيفيتى، اسم قديم روسى للحرف Ж جى .

فى هذه الكنيسة ثلاثة مذابح : المذبح الأول للقديس سابا ، والثانى للقديس الشهيد جيورجى ، والثالث خالٍ . والمذبح كبير وجميل ومغطى بالخشب ، وله قبة تحملها أربعة أعمدة ، وهى أيضاً خشبية وجميلة الصنع ، وبمقعد عالٍ مبطن بألواح من المرمر . وحائط الأيقونات عليه أيقونات جميلة ، وثلاث بوابات ؛ الملكية والجنوبية والشمالية . ويوجد أيضاً مدخل واحد صغير يؤدى إلى المذبح من الجانب . ويوجد أيضاً كرسى البطريرك المقدس المنحوت بمهارة . والإنبل الذى يقرأ فيه الإنجيل جميل الصنع . ومن الجهة اليمنى، فى الكرسى الصغير فى عهد القديس صامويل بطريرك الإسكندرية ، أقام الروم "الكاثوليك" القداس الإلهى (الليتورجيا) . وكذلك قاموا بالدفن هناك ، لأنه لم يكن لديهم دير خاص بهم . وهناك العديد من التوابيت المشهورة ، والتى كان يغطى غطاءها كتابات لاتينية . وكذلك يوجد خلف خورس (جوقة) الكنيسة عمود أبيض مرمرى ذو أربعة أضلاع ، منصوب فى الأرض ، عرضه شبرين . و يحكى الرهبان ورجال الدين أنه على هذا العمود قطعت رأس القديسة الشهيدة كاترينا ، وقد اُكتسى بدمها المقدس، ولذلك يقبله المسيحيون الذين يأتون إلى هناك للعبادة بكل تبجيل .

المعبد جميل جداً ، ولكنه مظلم وله نوافذ قليلة ، لأنه يقع فى مكان ضيق بين مبانى القلايات . وطول المعبد 77 قدماً ، وعرضه 66 قدماً ، والارتفاع أقل . وله بعض البوابات الصغيرة من الناحية الشمالية . وتوجد أمام الدير وخلفه حديقتان ، وفيهما تنمو أعداد قليلة من أشجار الزيتون والنخيل والحبوب . وفى الحديقة الكبيرة توجد مستشفى ، والتى يمكث فيها الرهبان من المرضى ، ورجال الدير ، وأحياناً الجوالون[218] حتى الشفاء التام. وفضلاً عن الأشياء التى وصفتها فى الأعلى ، لا يوجد فى مدينة الإسكندرية القديمة مبانٍ جميلة أو قصور . يوجد فقط قرية صغيرة داخل المدينة من الناحية الشرقية ، ولا شىء غير هذا . وإذا لم تكن هناك تلك الأعمدة اليونانية القديمة دقيقة الصنع ، لم تكن هذه المدينة تستحق أى مديح باستثناء البيوت الجديدة المبنية خارج المدينة على شاطئ البحر .

الإسكندرية تستحق المديح فى أنها تستقبل سفناً كثيرة ومتنوعة . وفيها مينائين كبيرين ؛ أحدهما فى الجهة الشرقية (أصغر من الآخر) ، ومخصص للفرنسيين ، والإنجليز والفلاميين ، وأهل البندقية ، والميناء الثانى كبير ويقع فى الجهة الغربية ، حيث توجد فقط السفن التركية واليونانية ، وهو هادئ وصامت . وبينها ـ وعلى أرض لسان دقيق وممتد داخل إلى البحر ـ توجد قلعة ذات بناء جميل ومتين ، وهى مبنية من حجر صلد ، ومسلح بالمدافع للدفاع عنه ضد القراصنة والأعداء الآخرين الذين يمكن أن يهاجموه[219]. ويوجد فى القلعة عمود واحد عالٍ ذو مصباح أو فانوس ، والذى يضاء كل ليلة ليرشد السفن القادمة (أو التى انحرفت عن المسار) إلى الطريق الصحيح . وهذا كل شىء عن الإسكندرية .

---

218 - وعن عمود بومبى ومسلات كليوباترا ودير القديس سابا ، انظر الملاحظات عن رحلة أرسينى سوخانوف .

219 - قلعة قايتباى .

مكثت فى الإسكندرية أسبوعاً واحداً ، وبعد ذلك وجدت مركباً تركياً صغيراً ، ودفعت الأجرة وأبحرت عائداً إلى دمياط . ولكننى لم أبحر عن طريق النيل ذا الماء العذب ، بل عن طريق البحر المالح والمر .

ولمدة يومين عانيت الأمرين لأننى لم أستطع أن أتحمل الاهتزازات البحرية : لم أستطع أن آكل ، وتقيأت أكثر من مرة بداية من الإسكندرية حتى دمياط . وعندما وصلت إلى دمياط وجدت الأى "سفينة تركية" ، والتى كان من الممكن أن أبحر فيها إلى بارشام "بر الشام "[220] ، أى إلى الأراضى الدمشقية . وحمدت الرب أن كل شىء تم حسب رغبتى وطلبى، لأنه كانت لدى النية أن أعود من جديد إلى طرابلس ، وإلى المعلم الذى أشرت إليه فى الأعلى، بطلب منه وبوعد منى .

مكثت فى دمياط خمسة عشر يوماً ، وعندما تحركت الأى ؛ سفينة تركية ؛ إلى الأرض السورية ، أى إلى بر الشام ، حيث كانت لها عادة أن تبحر إلى هناك أحياناً مرة ، وأحياناً مرتين فى السنة ، حينئذ ركبت هذه السفينة مرة أخرى ، والتى كنت قد وصلت على متنها إلى دمياط ، لأننى كنت أعرف الربان وباقى البحارة الذين كانوا جميعاً مسيحيين أرثوذكس ، وأخذونى معهم بدون أجرة . وأبحرنا من دمياط فى الثانى والعشرين من سبتمبر فى يوم الثلاثاء قبل منتصف النهار . وقد أبحرنا بأمان حتى المساء والليل والصباح ، وكان عدد السفن الصغيرة والكبيرة فى ذلك الحين خمس وسبعون سفينة .

---

220 - من المحتمل أنه يقصد بيروت .

• إيجناتى دينشين (عام 1769 أو عام 1770)[221] :

وجدت مركباً متجهاً إلى مصر، وقد كان قاصداً مدينة دمييت (دمياط) آنذاك، ووصلت إلى ذلك المكان بأمان. وهناك وجدت مركباً عربياً آخراً وأبحرت فى النيل. وفى اليوم السادس وصلت إلى مصر (القاهرة)، وما إن رآنى الناس - أنا الغريب - بدأوا يسألوننى: من أين، وأين كنت ؟ ؛ وقلت أننى جئت من جبل آثوس، وقادونى إلى أسقف جبل سيناء الذى سألنى أيضاً من أين أنا وإلى أين أذهب ؟ . أجبته بأننى أريد الذهاب إلى جبل سيناء. وقال قداسته بأننى لا أستطيع أن أذهب إلى هناك بأى وسيلة كانت، لأن العرب البرابرة احتلوا كل الأماكن وسيسلبوننى كل شىء بالقوة. مكثت فى ذلك المكان ثلاثة أسابيع، ثم مضيت قدماً. ووصلت إلى مدينة آراكيت "رشيد" التى تقع بجانب البحر على النيل، حيث قضيت أكثر من أسبوعين، ومرضت بالحمى. واستعددت للموت، وتناولت الأسرار المقدسة، ولكنى تحسنت والحمد لله، وسافرت، ووصلت إلى الإسكندرية، ووصلت إلى دير القديس سابا. وأخبرنى اليونانيون أن البطريرك يوجد هنا، ورأيت قداسته، ونلت البركة، وسألنى من أى البلاد أنا وأين كنت ؟ . وقلت له أننى روسى، وكنت فى القدس. ولقد تعجب كثيراً من تطوافى. وأخذنى إلى مصر "القاهرة"، ومكثت عنده ستة أشهر، وسجدت للمكان المقدس حيث عاشت أم الإله مريم المباركة، والصبى المبارك السيد المسيح، ويوسف الذين هربوا من هيرودس.

هناك مغارة ودير يعتنى بهما المسيحيون الأقباط[222]. ويوجد أيضاً ديرنا الأرثوذكسى للشهيد العظيم جيورجى (مار جرجس) فى مقر البطريركية، وكنيسة صانع المعجزات نيقولاس، ولا يوجد شىء آخر[223]. مدينة مصر (القاهرة) كبيرة لدرجة أنها أكبر مرتين من القسطنطينية. ويوجد فيها 24 ألف شارع و7 مليون شخص. ويقولون أن المساجد العربية تبلغ أكثر من 20 ألفاً. وقد تعجبت جداً من كثرة سكانها. ولا يوجد هناك شتاء، والحرارة عظيمة جداً. ولم أستطع أن أتحمل حرارة الشمس، واضطررت إلى العودة إلى الإسكندرية. وهناك ملاحظات جديرة بالذكر أن النيل يفيض ثم ينقص، ويزرعون الحبوب، ويوجد محصول وفير، وعندما يزيد النيل فقط إلى النصف، فإن المحصول يقل، ويزرعون الحقول فى شهر فبراير عندما يكون عندنا الشتاء فى أوجه. بعد أن تحملت العوز والحرارة الشديدة، أخذت البركة من البطريرك، ووجدت سفينة مبحرة من سيميرنا، وركبت فيها وأبحرت. وبعد بعض الوقت وصلنا إلى الأرخبيل وإلى جزيرة باتموس < ... >

---

221 - نشر فى إصدار : وصف رحلة الأب إيجناتى دينشين - مجموعة الفلسطينى الأرثوذكسى - الإصدار 36 - سان بطرسبورج - عام 1891، صفحة 22 - 24، قام بالترجمة ى. ف. فيودوروفا. تاريخ زيارة مصر تقريبى حيث أن دينشين طاف من 1766 إلى 1776 مبيناً فى مذكراته تسلسل للرحلة. يذكر المؤلف أنه بعد مصر عاش فى باروسما، حيث تواجد فى ذلك الوقت الأسطول الروسى. أول رحلة أرخبيل حدثت فى (أعوام 1769 - 1774). وبعد ذلك عاش دينشين لبعض السنوات فى آثوس.

222 - دينشين زار مغارة العائلة المقدسة فى القاهرة القديمة.

223 - المؤلف اختلط عليه الأمر حيث من المحتمل أنه كتب هذا من الذاكرة.. الدير الأرثوذكسى للقديس جيورجى (مار جرجس) يوجد فى القاهرة القديمة، ومقر البطريركية مع كنيسة القديس نيقولاس يتواجدان فى منطقة الحمزاوى.

- الأرشمندريت قنسطنطين (عام 1795)[224] :

الإسكندرية القديمة :

بنيت الإسكندرية القديمة ، وتميزت بكل بهاء الفخامة الباهرة للإسكندر المقدونى. وكم كانت مسرحاً لتحولات كبيرة ! . وكم حدث لها من أوجه الخراب من جراء حسنها ! . ولم يعد ممكناً فى الوقت الراهن أن ننالها مجدداً . ولعل الشواهد الوحيدة على وجودها هى الموقع والميناء وبعض الآثار .

يوجد فى الإسكندرية ميناءان ألا وهما القديم "الغربى" والجديد "الشرقى"، وبالتسمية القديمة الأفريقى والآسيوى . ويتبع الأول الأتراك ، ويشترك الأوروبيون فى الآخر . ويدافع عن مدخل الميناء الجديد قلعتان بنيتا على طراز تركى قبيح ، وكلتاهما لا تسترعيان الاهتمام إلا قليلاً ، غير أنهما ذائعتى الصيت من جراء أنهما تشغلان مكان المبانى القديمة الرائعة .

تسمى القلعة الأولى من هذه القلاع المذكورة الفاريلون الكبير (الفنار الكبير)[225]. ويوجد فى منتصفها برج ذو مصباح يبعث الضوء للسفن كل ليلة . وهذه القلعة بنيت على جزيرة فاروى "فاروس" . ومساحتها من الاتساع بحيث أنه لو كان هناك بقايا لعجيبة الدنيا التى بناها بطليموس ، فإنه يمكن افتراض أنها مطمورة هناك[226] . وهذه القلعة المقابلة له (أو الفاريلون الصغير) لا تقدم أية شواهد لتلك المكتبة الشهيرة ، والتى من حيث ندرة كتبها وتفوقها اعتبرت الكنز الثمين للعالم .

وتتصل كلا الجزيرتين بالأرض عن طريق سد الميناء . وسد جزيرة فارو (س) يمتد حوالى فرسخ ، وجزء منه مبنى بالطوب ، والجزء الآخر من الحجر المنحوت ، ومن تحت أقبيته القوطية ينساب البحر . ومن غير المحتمل أن العرب أو الأتراك كانوا هم أوائل المخترعين لمثل هذا المبنى اللافت للنظر[227] . والبقايا غير الكبيرة لأطلال هذا السد بسبب الإصلاحات

---

224 - نشر فى إصدار : الأرشمندريت قنسطنطين ـ الإسكندرية القديمة . رحلة الأرشمندريت للدير الكييفى الكاترينى واليونانى قنسطنطين . موسكو ، عام 1803 م ، صفحة 2 ـ 44. الكاتب على ما يبدو كان يونانياً حيث أنه مع النص الروسى بالتوازى ، يوجد نص يونانى على صفحات مبهمة . الدير الكييفى ـ الكاترينى أسس فى عام 1748 على مقاطعة أوصى بها اليونانى ستاماتى لأسقف سيناء يفجينى بجانب الكنيسة ، ووقع فى ملك الدير السيناوى ، والذى عين هناك أرشمندريت ـ انظر الحاج الكييفى ، أو دليل الأديرة والكنائس الكييفية ـ كييف ـ عام 1849 م صفحة 109 . ورد النص لمؤلفه طبقاً للهجاء الحديث والتنقيط .

225 - فاريلون ـ الفنار .

226 - يقصد فنار فاروس ، أحد عجائب الدنيا السبع فى العالم القديم . قلعة قايتباى يسميها المؤلف "فاريلون الكبير" بنيت بالفعل فى مكان فنار فاروس .

227 - بنى الجسر بالفعل أثناء عهد البطالمة ، لكى يُوصل الوقود إلى فنار فاروس .

فى العهود المختلفة قد غيرته تماماً ، واختفت بالكامل كل معالم هذا الأثر الجميل . ويؤدى سد آخر إلى الفاريلون (الفنار) الصغير ، وفيما عدا هذين البرجين غير الكبيرين الذين يستطيعان الصمود عند الضرورة ، ليس له أى ميزة أخرى . والمدخل نفسه المؤدى إلى الميناء خطر ، بسبب الأحجار الموجودة داخل الماء وفوقه ، ولتفاديها تبعث السفن الملاحين المستكشفين إلى الميناء .

وكم هو رائع ذلك الانطباع الذى تحصل عليه عندما تقترب من الميناء بفضل ذلك التنوع الذى تراه ، وامتزاج الآثار القديمة بالحديثة ! . ترى صف طويل من الأبراج العالية ذات الأسوار المتهدمة والمتلاصقة ، وعلى مقربة منه توجد مسلة عالية محاطة بأطلال المبانى القريبة ، وهناك أيضاً يوجد العديد من الأبراج .

وتتميز الإسكندرية الجديدة بمساجدها . وعلى مسافة فى الجزء الشمالى للمدينة يوجد عمود بومبى ، ذلك الأثر القديم ، وكذلك بعض الأكوام مثل التلال للأنقاض القديمة ، والتى تمثل منظراً مؤثراً للخراب . وأخيراً يقلص كل متعة الشخص الفضولى ذلك المبنى الكبير ذو الأضلاع الأربعة لمستودع البارود المتصل بالسد الكبير .

وعند الوصول إلى الميناء فإن محبى الآثار يشاهدون قبل كل شىء مسلة كليوباترا . والطريق إليها يمتد عبر أطلال مبانى عظيمة . وعندما تنظر إلى هذا الأثر القديم ، وإلى المسلة الأخرى القابعة بجوارها والمطمورة فى الأرض بشكل كامل بفعل الزمن يصاب القلب بالحزن . ومسلة كليوباترا تعد دليلاً كافياً على أن قصر الملكة الشهيرة فى التاريخ ، والمعروف أيضاً بقصر القيصر ، كان يوجد فى ذلك المكان[228] . ومع ذلك لا يُرى فيما عدا تلك المسلتين أى بقايا لذلك المبنى العظيم .

توجد مسلة كليوباترا فى منتصف المدينة الجديدة تقريباً . ويقع الفاريلون (الفنار) الصغير إلى اليسار من البحر . وعلى الرغم من أن جزءاً من قاعدتها غاص فى الأرض فإن ارتفاعها يبلغ 28 قدم تقريباً .

يوجد بين الميناء والمسلة سور حجرى يعد سياجاً لهذا الأثر ، وهو مهدم الآن ، وارتفاعه يقارب قاعدة المسلة . وتوجد فى أطلال السور من جهة البحر كمية كبيرة من الحطام المعمارى المختلف ، والذى من خلاله يمكننا أن نحكم بأنه ينتمى لأحد المبانى العظيمة[229] . يتكون هذا الحطام من أنواع عديدة من المرمر والجرانيت وحجر قديم ذو لون أخضر . ومن جهة اليابسة توجد أرض فضاء منقورة بعناية ، وفيما يبدو أنه تم فرز كل حبة غبار وبدون شك بدوافع مغرضة .

---

228 - المؤلف غير محق ، قصر كليوباترا ـ وتقريباً كل الحى الملكى فى ذلك الوقت ـ بسبب تشوه لقشرة الأرض غطس فى قاع الميناء الشرقى . هذا ما أظهرته أبحاث علماء الآثار تحت الماء فى عام 1990 م .

229 - من المحتمل هنا : بقايا معبد بنته كليوباترا على شرف مارك أنتونى . من المعروف أن الإمبراطور أغسطس أقام المسلات فى العام (14 ق.م) بجانب هذا المعبد .

وتتكون المسلة من حجر جرانيتى واحد ذى أربعة أضلاع . وقد حفرت كتابة هيروغليفية[230] على جميع جوانب هذا الحجر . ومازالت الحروف كاملة على اثنين من جوانبها ، وعلى الجانبين الأخريين محيت بفعل الزمن . وعلى ما يبدو ، فمن المدهش أن القياصرة الرومان الذين كانوا يجمعون كل ما هو نادر لروما (عاصمة العالم فى ذلك الوقت) ، لم ينقلوا هذه المسلة قبل كل شىء ، وربما أن الوجهين المشوهين والتالفين بفعل الزمن ساعدا على أن تبقى هذه المسلة فى مكانها .

ويرجح بعض المؤرخين أن هاتين المسلتين المشار إليهما كانتا موجودتين فى قصور كليوباترا نفسها ، مع عدم الذكر فى أى مكان بالذات كانتا موجودتين فيه . ومع ذلك، وبدون شك فإن هذين الأثرين أقدم من الإسكندرية ، ومأخوذين من مكان ما فى مصر[231] ، حيث أنه قبل وجودهما كان استعمال وأهمية الكتابة الهيروغليفية قد اندثرا[232] .

ومن المسلة إلى الفنار الصغير على امتداد شاطئ البحر توجد أطلال صالات أعمدة مهدمة، وقباب ، وقنوات مائية ، وهى فى حالة من الاختلاط والفوضى ، حتى أنه لا يمكن تخيل الملامح الحقيقية لشكل المبنى السابق . يمكن الافتراض فقط بأن هذه الأجزاء كانت تشكل شيئاً كاملاً وأنيقاً . وفضول الرحالة كان يمكن أن يمتد إلى أبعد من ذلك ، لأطلال المكتبة البطلمية الشهيرة ، لو لم يمنع ذلك جهل ووسواس حامية الفنار الصغير. حيث كان يسمح فقط بمشاهدة الأبراج البيضاوية الكبيرة والسياج القائم بينها ، والذى يعد جزءاً من السور حول مدينة الإسكندرية القديمة ، ولكن هل كان السور الأول قائم أم أنه بُنى فيما بعد ؟ ؛ عن ذلك سأطرح بعض التصورات .

هناك أبراج كالمتاريس مختلفة الأحجام والأشكال ، بعضها دائرى ، والبعض الآخر ذو أربعة أضلاع ، وبناؤهما غير صحيح على الإطلاق ، إذ يمكن القول بأنها مسوخ من الناحية المعمارية .

فالتكوين الداخلى للأبراج يتوافق مع الفوضى فى شكلها الخارجى : بعض الأبراج لها سلم مزدوج وسلم حجرى يؤدى إلى الأعلى ، وفى الأبراج الأخرى لا يوجد مدخل غير فتحة ضيقة فى قبو ، وللوصول إليه ينبغى التسلق على سلم نقال ، وترتكز قباب كل الطوابق بدون سيميترية (تناسق) ، ففى مكان ما ترتكز على عمود واحد ، وفى مكان آخر على الكثير من الأعمدة ، وفى مكان ثالث على عماد كبير رباعى الأضلاع . وتنتشر المزاغل فى كل محيطات الأبراج ، ومن فتحات الصفوف السفلية للمزاغل ترى حطاماً

---

230 - الحرف الهيروغليفى هو علامة كتابة مجهولة ومعناه مجازى . واستخدم المصريون القدماء هذه الحروف فى الأعمال الخاصة بالدين والعلم والفنون (ملاحظة الكاتب) .

231 - المسلات أعدت وأقيمت فى هيلوبولس بأمر من الفرعون تحتمس الثالث حوالى 1450 قبل الميلاد ، والكتابة عليها أضافها الفرعون رمسيس الثانى بعد مرور مائتى عام ، وتحكى عن انتصاراته الحربية .

232 - غير صحيح ـ استخدمت الكتابة الهيروغليفية حتى القرن الرابع الميلادى . وكانت آخر كتابة هيروغليفية على أحد معابد جزيرة فيلة بالقرب من أسوان عام 394 ميلادية .

وسيقان أعمدة مرمرية فى وضع المدافع المصوبة . كل هذه المبانى تم بناؤها فى صورة رديئة بأحجار من النوع الرملى المنحوت .

الحوائط بين الأبراج كالأبراج مختلفة وبالية ومحطمة ، ويبلغ ارتفاعها فى مكان ما 40 قدم[233] وفى مكان آخر 50 قدم ، وسُمكها 20 قدم أو أقل . مثل هذا السُمك قادر على صد الضربات القوية لآلة الكَبْش ، ذاك العملاق القديم الذى كانوا يكسرون به الأسوار ، أو على الأقل كان من الممكن أن تكون شاهدة على قدمها ، وأنها قائمة منذ بداية بناء الإسكندرية القديمة ، التى اشتهرت فى التاريخ باتساع حدودها . وثانياً ، هذا الاستخدام العشوائى للمواد الثمينة ، وذلك الخلط الذى لا يرى فيه أى ذوق أصيل وصائب دليل على أنه ليس من عصر الإسكندر والبطالمة أو الرومان بسبب الشكل الخشن وغير اللائق الذى اتُخذت منه الأشياء ، وخلافَ لذلك فهو يمكن أن يكون إلى حد بعيد على الطريقة الإسلامية أو البربرية .

الأعمدة القائمة هناك بالفعل سكندرية أصيلة ، أو أُخذت من قصر كليوباترا ، فلو كانت من منف لتضمنت كتابة هيروغليفية ، والتى لا ترى لا على الأعمدة ، ولا على الأضلاع الأربعة المرمرية المتناثرة بعشوائية . ومن كل هذا يتبين أن المسلمين إزاء خراب الإسكندرية[234] القديمة أقاموا سياجاً حول أنفسهم بعيداً عن المساحة الأولى بقدر ما دعت الضرورة لتحصينهم وأمنهم والتيسرات الكبيرة لتجارتهم .

لا يوجد الآن فى داخل المدينة شىء آخر غير أكوام الأنقاض ، وثلاثة أديرة ، وبعض الحدائق والمساجد ، وخزانات المياه المدخرة لسد احتياجات المدينة .

الدير الأول المكرس لاسم القديس سابا فى حالة طيبة ، ويتبع بطريرك الإسكندرية، ويقوم على أمره رئيس الدير حيث يعد المعبد الوحيد للقاطنين والقادمين من المسيحيين اليونانيين . ويوجد فيه مبنى جانبى صغير فى الجهة اليسرى للقديسة الشهيدة العذراء كاترينا ، حيث يُحتفظ بجزء من المرمر الذى قطع عليه رأس هذه القديسة .

يوجد دير آخر كاثوليكى على اسم القديسة كاترينا يقوم على أمره رئيس الدير مع إخوانه الرهبان الكبوشيين . ويوجد دير ثالث قبطى للإنجيلى مارك (مرقس) تحت رعاية رهبان هذه الطائفة ، وفيه منبر خشبى ، وطبقاً لأساطيرهم فإن ذاك هو المنبر الذى من فوقه بشر بالديانة .

يوجد بين الأديرة اليونانية والكاثوليكية مسجد ضخم نصفه خالى مبنى على الطراز القديم الرائع ، وطبقاً للرأى العام فإنه كان فى وقت ما كنيسة الإبراشية الرئيسية على اسم القديس يوحنا الرحيم[235] .

233 - ا قدم = 30.48 سم .

234 - وهذا تدعمه إحدى الكتابات القديمة الموجودة على حجر بعض البوابات (ملاحظة الكاتب) .

235 - إيوان الرحيم (مات حوالى عام 619 م) ، وهو بطريرك الإسكندرية الأرثوذكسى الذى اشتهر بأعماله الخيرية .

وعلى مسافة ليست بعيدة عن دير القديس سابا توجد حتى الآن بقايا قصر القديسة الأميرة كاترينا . وبعدها يوجد تلان عاليان من الحطام سحقهما الباحثون عن الكنوز لدرجة أنهما الآن يكونان ارتفاعات مذهلة من الغبار . وأحياناً يغسل المطر الحجارة المنقوشة ، والمعروفة باسم الأنتيكات[236] أو أشياء مماثلة ، ونادراً ما يتم العثور فيهما على شيء .

ولقد قدم المسلمون إلى الإسكندرية كما قدم القوط والبربر إلى إيطاليا وروما ، وانتزعوا الأحجار من الخواتم بنصل الحديد ، وأخذوا ذهب الخواتم ، وتركوا أحجارها . وهذا يمكن أن نراه فى كثير من الأنتيكات التى يتم العثور عليها حتى اليوم .

يوجد فى الطريق المؤدى إلى بوابات بومبى[237] ست من الأعمدة الجرانيتية قائمة ، وغير معروف هل كانت تشغل جانبى هذا الشارع الطويل ، أم أنها كانت تشكل بهو أعمدة على النمط القديم ، وهى جميعها بدون زخرفة وبدون تيجان ، وماذا يمنعنا من حل اللغز؟؛ هل هى أنماط لفن عمارة ما أم أنها صنعت على الطريقة المصرية ؟ ؛ السطح الخارجى لها أملس ، وفى الأسفل هى أكثر سمكاً وأرق فى الأعلى ، وعلى الرغم من أن الجزء الثالث قد غاص تقريباً فى الأرض ، مع ذلك يبدو أن جميعها فى الحجم سواء . وعلى أية حال ، فإنها تشغل مقاماً عالياً بين معالم الإسكندرية . وعلى مسافة نصف فرسخ من بوابات بومبى يطل عمود بومبى من مكان عالٍ . ومن هناك يترائى للعين منظرين رائعين ، المنظر الأول للإسكندرية ، والآخر للوادى الممتد بطول نهر النيل ، ويحيط بالخليتش[238] "الخليج" المترجم والترعة التى حفرت شمال روزيتا "رشيد" لإمداد الإسكندرية بالماء . ومن حيث الصنع فإن عمود بومبى فى الحقيقة ليس مصرياً ، غير أنه صنع من المرمر المصرى . ويتكون هذا العملاق المدهش من ثلاثة أجزاء فقط من حجر واحد من المرمر . والقاعدة مصنوعة من حجر رمادى ذو طبيعة صخرية ، والجزء الأوسط جرانيت وردى[239] ، والتاج أو القمة مصنوع من مرمر فريد . ويبلغ ارتفاع هذا العمود 53 قدماً ، وقطره 14 قدماً[240] .

يفوق هذا الأثر من حيث الضخامة والتناسب والجمال المدهش كل ما يوجد فى النمط الكورنثى[241] . وظن رجل عربى أنه توجد مجوهرات تحت قاعدة عمود بومبى ، وإزاء رغبته فى الاستيلاء عليها ، أراد أن ينسفه بالبارود ، ولكن لكونه غير متخصص فى هذا المجال،

---

236 - الأنتيكات : الأشياء القديمة .

237 - هذه الأبواب ليس لها مسمى ، ولذلك سأسمح لنفسى أن أسميها بوابات بومبى بسبب وجودها قريباً من العمود (ملاحظة المؤلف) .

238 - خليتش - يبدو أنها تشويه للكلمة العربية (خليج) .

239 - فى رأى البعض هذه الأعمدة القديمة صنعوها من المعدن المنصهر ، وليس عن طريق الصقل (ملاحظة المؤلف) .

240 - المؤلف يقلل من ارتفاع العمود (16.15 متر بدلاً من 27 متر) ، ويزيد فى سُمكه (4.27 بدلاً من 2.7) .

241 - النمط الكورثنى أحد ثلاثة أنماط كورثنية يونانية ، والتى تكون مليئة بالنقوش . عادة قطر العمود عشرة أمثال ما هو موجود فى الارتفاع ، والذى يوجد أيضاً فى عمود بومبى .

فإن العمود لم يقع وإنما خلع من تحته أربعة من الحجارة ، وبقى الجزء الرابع من أساس العمود سليماً ، وكذلك الوسط والجهات الثلاث الأخرى . وكشفت المحاولة الفاشلة لهذا الهمجى عن الأحجار التى يرتكز عليها العمود ، الأمر الذى أدى إلى إسعاد الفضوليين فقط. ويتميز من بينها الحجر الأبيض الشرقى الذى نقشت عليه بالكامل علامات هيروغليفية ، وحجر آخر صقلى (أصغر) مع خليط قرمزى ، غير أن الكتابة الهيروغليفية قد زالت عنه .

وفى رأى الكثير من الرحالة والقاطنين هناك أن هذا العمود يرتكز بتوازن مدهش على الحجر الأوسط . وإذا اجتزت فرسخين من المكان الذى يوجد فيه عمود بومبى عبر الأرض المكشوفة والرحبة فسترى على الجانب الأيسر الخليتش "الخليج" ، وقناة كليوباترا ، وأشجار متنوعة ، أغلبها من النخيل الذى يلقى بظلاله عليه . وهناك قرى كاملة للبدو الرحل أو العرب الأفارقة الرحل تعيش فى فقر مدقع ، ويسكن هؤلاء العشش مثل الطيور المحلقة ، ومكوثهم فى مكان ما يعتمد على خصوبة الأرض التى يقيمون عليها . وعندما تضن الطبيعة فى منح خيراتها ، فإنهم يذهبون للبحث عن خصب جديد . تلك هى حرية الحياة ونعمة فقرهم ، فلو كانوا أغنياء لكانوا تابعين .

ونعرف من التاريخ أن سير السفن من القاهرة إلى الإسكندرية عبر البوغاز ومصب نهر النيل غير آمن ، وبغرقها تلحق بالتجارة خسائر فادحة ، هذا أولاً . وثانياً ، النقص التام للمياه العذبة أو التى يستعملها الكافة كانت السبب فى وجود القناة المذكورة ، وبسبب عدم وجود بطانة حجرية من الناحيتين ، أصبحت القناة مثل الحفرة القذرة ، ويمر الماء من خلالها ضعيفاً إلى خزانات المياه . وحرم كساد التجارة والخراب التام للإسكندرية سكانها من إمكانية الاحتفاظ بهذه القناة النافعة فى حالتها الأولى عندما كانت تملئ عدد غير عادى من الآبار[242] التى بقى منها ستة آبار فقط . والطوب الذى استخدم فى بناء هذه الآبار قد تم إعداده من مادة خاصة لا تسرب الماء ، وكان القدماء يدهنون بهذه المادة كل خزانات المياه ، وأماكن التدفئة ، والحمامات العامة القديمة التى بناها بعض الأباطرة فى روما والقسطنطينية .

ويؤكد اختلاف أنواع الأعمدة التى ترتكز عليها القباب فوق الآبار ، ووجود الذوق القوطى أو الإسلامى فيها أنها ليست فى شكلها الأول ، ولكن كما قيل آنفاً عن الإسكندرية . وعندما تم تخريبها واقتضت الحاجة إلى تجديد البعض منها ، فإنها جمعت من مواد وأجزاء مختلفة ، ولم يُسعَ إلى عمل شيء شبيه بما كانت عليه قبلاً . وحيث أن هذه الآبار كانت خزانات للمياه بدون تنظيف دورى واجب ، فيتم سحب الماء منها بواسطة مضخات مائية تصب فى قرب جلدية كبيرة صممت خصيصاً لهذا الغرض ، و يحمل على الجمال أو على الحمير إلى الإسكندرية الجديدة لبيعه .

وتم تدمير الكثير من الآبار بسبب ذاك العمل المرهق والنفقات الباهظة المؤدية للإفلاس وعديمة الجدوى من أجل تنظيفها ، حيث أن كمية المياه تفوق حد الحاجة للسكان

---

242 - فى الواقع هذه صهاريج لتخزين الماء وليست آبار .

القليلين الآن فى المدينة الجديدة ، مما أدى إلى ركودها وفسادها وتعفنها ، ومن ثم أدى ذلك إلى انتشار العدوى . وكان لغلق القناة وعدم جريان تيار الماء فيها عواقب وخيمة بالفعل .

والآن فى معرض نقاشنا عن المدينة القائمة فى داخل حدودها يتبقى أن نتكلم عن بوابتين ، وهما اللتان يوجد بينهما وبين الإسكندرية الجديدة ميدان فسيح يستخدم كمنتزه مسائى عام للأوروبيين القاطنين هناك .

- بوابات روزيتا "رشيد" الأخرى[243] :

الآثار المحيطة بالإسكندرية

يحوى الميناء القديم الذى سمى فى وقت ما بالأفريقى ، والواقع فى جزيرة فاروى «فاروس» ، قلعة غير كبيرة على البرزخ فى مواجهة الفاريلون "الفنار" المتصل بالجزيرة .

تعد الآثار القريبة من سياج الإسكندرية مغارات جنائزية ، وممرات تحت الأرض ، ومساجد ، وحمامات إلى آخره . ويظهر شكل وتكوين المغارات فيما كانت تستخدم به، فقد كان الفضاء فى كل منها مخصص لدفن صفين من الجثث البشرية التى حفر لها فى الحجر ، ولها من القدم ما لأطلال الإسكندرية بوجه عام . وهى تشغل مسافة كبيرة بامتداد شاطئ البحر . وفتحت يد الطمع الضارية جميع هذه المقابر ، والآن جميعها خاوية ولا يوجد فيها شىء مغر للطامعين .

تعد الشواطئ الساحلية خلوة طيبة وملاذاً للاسترخاء ، وتشكل الصخور الضخمة الناتئة من الشاطئ ، والشقوق الكئيبة منظراً موحشاً للمغارات الطبيعية . زيادة على ذلك ، فقد تم نحت معابد كاملة فى الصخور لسهولة ذلك الموقع الطبيعى والأحجار اللينة . وكانوا يستخدمونها كأحواض استحمام وملجأ للسفن الصغيرة أثناء العاصفة . ولكى تشاهد الميناء بأفضل طريقة ممكنة ينبغى النظر من مكان ظليل فى أعلى هذه المغارات حيث لا تنفذ الشمس هناك أبداً ، وحيث ترى ولا تُرى .

يوجد على بعد خطوات من الشاطئ فى مواجهة شبه الجزيرة التى كونت خليجاً معبداً تحت الأرض ، والذى يدخلونه منحنين عبر فتحة ضيقة . ويؤدى هذا الطريق المنخفض الكئيب تحت الأرض المضاء بالمشاعل إلى صالة كبيرة فيها السقف والحوائط مستوية وملساء ، والأرضية مغطاة بالرمل وبكل أنواع القاذورات من الفئران الطائرة والأشياء الكريهة الأخرى ، غير أن هذا لم يعد معبداً الآن . ويؤدى معبر آخر تحت الأرض إلى معبد دائرى بسقف مقبب له أربعة أبواب متقابلة . والأبواب مزينة بكورنيش ، وعلى واجهة كل واحد منها رُسم هلال . واحد من تلك الأبواب مفتوح ، والأبواب الثلاثة الأخرى هى تجاويف فى الحائط أسفل مستوى الأرضية ، ويحتوى كل واحد منها على مكان واحد منحوت فى الحجر ، والآن هو خاو ، وكان - فيما يبدو - فى سالف الأزمان قبراً لأحد الوجهاء أو لملك ما . وهذا مجرد تخمين حيث أنه لا توجد أية كتابة دالة على ذلك ، فكل التأكيدات بهذا الشأن تبقى مجرد افتراضات .

---

243 - البوابات الروزتية توجد فى ناحية روزيتا (التسمية الأوروبية لرشيد) إلى الشرق من المدينة .

والممر الذى يؤدى فيما يبدو إلى حُجرة أخرى تحت الأرض حصين ومنيع لأى مجرب شجاع، لأنه انهار بسبب القِدم ، وهذا يحدث بالطبع مع المشار إليها آنفاً ، والذى يجعل الممر المؤدى إليها من وقت لآخر أضيق أو أقصر[244] .

وبالقرب من البحر على قمة منحدر صخرى ، يوجد حفر عميقة رباعية الأضلاع ذات حوائط عمودية ، يبلغ عمقها بالنظر 60 قدماً تقريباً ، وعرضها 20 قدماً . ولكن أصابتها القاذورات ، ومُلئت حتى أنه بالكاد ترى الفتحة التى فى أسفلها ، والتى بدون شك تؤدى إلى مغارة ما تحت الأرض . ومن غير المعروف متى ولأى غرض كان قد تم إنشاؤها .

وكان يشغل هذا المكان فى وجود الإسكندرية فورشتات[245] ، وسمى المدفن الكبير أى مدينة الموتى . وكانت تزينه الحدائق والمواد الملائمة للمقابر .

وإذ لم أنتهى من الوصف الكامل ، أقدم بعض الآراء بخصوص القضايا المثارة بشكل مباشر : من أين أخذت وأحضرت مثل تلك الكمية الرائعة من المرمر والجرانيت لبناء الإسكندرية ؟ ؛ وأين تلاشت بعد خرابها ؟

لم يكن هناك من داع أن نبحث بعيداً ، فالذى ـ إن جاز التعبير ـ تحت أيدينا كان يوجد فى أنقاض منف ، ومن هذه الأنقاض ، كما من رفات العنقاء ولدت الإسكندرية [246*] . وهذا أغلب الظن ، ذلك أن تلك العاصمة القديمة لمصر تعد مكاناً مفتوحاً تشغل مساحتها مسيرة ثلاث ساعات راكباً . هناك فى كل مكان توجد الآثار من بقايا الجرانيت ، والمحفور عليها كتابات هيروغليفية وأشكال عديدة مبعثرة ، بالإضافة إلى الكتل الحجرية الضخمة . من المحتمل ، وبدون هذه الطريقة ، لم تكن الإسكندرية لتصل إلى تلك الحالة من الأناقة والكمال المتنوع مثل ما كانت فى أفضل فترة فى تاريخها .

وسيقول البعض ألم يكن فى وسع الإسكندر الأكبر ، البطل الكريم ، أن يدمر المدينة الشهيرة (منف) فقط لكى يبنى منها مدينة أخرى تحمل اسمه ؟ فى الحقيقة ، كان هذا لا يناسب إنسان عظيم مثله . غير أن الحالة التى كانت عليها مدينة منف إبان الإسكندر كانت تبرر هذه المسلك . ذلك أنه عندما دخل مصر ، كانت المعابد والديانة فى منف قد أطيح بهما ، وأبعد الكهنة إلى الصحراء ، ومعبوداتهم أخذها قمبيز كسرى فارس[247] .

---

244 - المؤلف ـ على الأرجح ـ يصف المدفن اليونانى الكبير .

245 - فورشتات (الأصوب فورستادت) ضاحية .

246 - * « كما من رفات العنقاء ولدت الإسكندرية » المؤلف يريد بهذه العبارة أن يقول أن الإسكندرية ولدت من أنقاض منف ، كما تولد عنقاء جديدة من رماد عنقاء ميتة ومحترقة طبقاً للأسطورة "المترجم" .

247 - استنتاجات المؤلف مبنية على معلومات المصادر القديمة المتناثرة ، وغير الصحيحة فى أغلب الأحوال . ذلك أن الفرس تعاملوا باحترام مع عقيدة المصريين ، ويؤيد ذلك المعابد القديمة التى بنيت أثناء حكمهم ، ومنف بدأت فى الأفول التدريجى بعد بناء الإسكندرية ، وبقيت فعلياً حتى الفتح العربى .

وهكذا ، فإن الإسكندر وخلفاؤه أخذوا أحجاراً من مبانى ومعابد منف غير مدنسين إياها، ولم يبدِ الشعب المصرى أى سخط أو كره تجاههم من جراء أن أطلال معابدهم وبسببهم هم أنفسهم بالاستخدام غير المناسب كانت بالفعل لا يعتد بها ، وقد تم استخدامها فى بناء معابد أخرى كانت حتماً ستعاد فيها عبادتهم القديمة .

ونتساءل الآن : كيف تم نقل هذه المواد الكثيرة ؟

حتماً ساعد فى ذلك نهر النيل وقناة كليوباترا . والفهم الطبيعى ذاته يؤدى إلى الاعتقاد بأن هذه القناة كانت قائمة عند وضع أساس الإسكندرية ، فقد كانت ضرورية لأن موقعها ليس به ماء خاص صالح للشرب ، وكانت تأخذه فقط من هذه القناة .

ومن غير المحتمل كذلك ، أنهم كانوا يسافرون للحصول على الماء من مصب النهر ذلك لأنه - أولاً - عندما يصب النيل فى البحر ينشر فى نفسه ولمسافة بعيدة الملوحة الملازمة للبحر ، وهذا يجعل الماء غير صالح للاستخدام . ومثل تلك السفرة (الذهاب والإياب) لا تستغرق أقل من أسبوعين ، لذلك على الأرجح نفترض أن القناة حفرت أولاً وقبل كل شىء فى الإسكندرية ، ولم تكن لتوصيل المياه فقط ، ولكنها كانت أيضاً للملاحة . على كل حال ، كان يقوم بالغرض أنبوب موصل للمياه ، ولكنه كان بالفعل ممتداً من القناة إلى المدينة ، وكان للقناة تيار مباشر إلى البحر بجانب الإسكندرية .

وأما بخصوص أن القناة سميت تيمناً باسم كليوباترا ، فهذا ليس دليلاً على أنها هى التى حفرتها . فلربما كانت أعمال الترميم والنزهات والاحتفالات التى أجرتها تلك الملكة الشهيرة فى عهدها هو الذى أعطى القناة اسمها . هذه هى الآراء المختلفة للعديد من الرحالة .

وفى رأى الشخصى فإن هذه القناة قديمة قدم الإسكندرية ، إذ أن الشواهد تؤكد أن التجارة فى مصر كانت تمتد مع تقلبات الزمن بامتداد نهر النيل مثلها مثل صولجان الفراعنة . وفى البداية كانت على أيدى الفراعنة القدماء فى تيبايادا[248] ، ثم على يد سنوسرت القوى الذى شق قنوات مفيدة فى منف[249] ، وختاماً على يد الإسكندر المقدونى باتخاذه وسائل نافعة عند الكسوف الكامل وآخر بريق لصولجان وتجارة منف ، وذهابهما (الصولجان والتجارة) إلى المدينة الجديدة - مدينة الإسكندرية - التى بناها بنفسه على شاطئ البحر . ولا توجد فى خرائب الإسكندرية ، فيما عدا المسلات والأساسات المرمرية وعمود بومبى ، أية كتابات هيروغليفية على أى شىء ، والتى كانت حتماً تزين كل عمود وكل جزء من أى مبنى فى منف . وذلك يرجع إلى أن اليونانيين إزاء عدم امتلاكهم للثروات والكنوز المصرية ، وإزاء عثورهم مع ذلك على ذوق عمارتهم المختلط بالفوضى المبهمة فقد ابتعدوا عنه كلية . وفى عصر الإسكندر المقدونى وخلفاؤه اقتبس اليونانيون من مصر الأسس الأولية لفن العمارة ، ولكنهم بإعطائه شكلاً مختلفاً وأكثر جمالاً ،

---

248 - تيبايادا (فيفايادا) هى مصر العليا مع عاصمتها فى طيبيس .
* (فيفا) يقصد بها كلمة طيبة ، الاسم القديم للأقصر عند الإغريق والرومان (المترجم) .
249 - المؤلف فيما يبدو يقصد الفرعون سنوسرت "سيزوستريس" (1880 - 1874 قبل الميلاد) والذى بنى أثناء حكمه فى واحة الفيوم غير البعيدة عن منف منظومة كبيرة للرى .

وبتشكيل أنماط أخرى لذلك الفن ، والتى كانت أسهل وأجمل وأكمل تقريباً ، فقد تم عبادة أولئك المخترعين الأوائل لهذا الفن .

واعتقد الإسكندر الأكبر كونه ميال لعادات وطنه ، وللكبرياء الفطرى للإنسان ، وإزاء سعيه للتفوق فى كل أعماله عن كل من سبقوه أنه من غير اللائق له أن يتخلق بعادات الممالك التى غزاها . فلقد بنى الإسكندرية على طراز إغريقى خالص ، حيث أن طراز العمارة اليونانية كان أرفع وأرق إلى حد بعيد ، فى حين أن العمارة المصرية كانت أغلظ وأضخم ، أى من الأخيرة إلى الأولى كان من الممكن التحول .

سعى اليونانيون إلى إزالة الكتابات الهيروغليفية من على المبانى الخاصة جداً ، ناظرين إليها بقلب غير صافٍ كرموز لأسرار الدين والعلم ، والذين كانوا يعتقدون أنهم هم أنفسهم المخترعون الأوائل لهما ، ولكنهم لم يفهموا معانى تلك الرموز . وهذا ما أزعج طموحهم .

وبالطبع فمن حيث السيميترية (التماثل) لا يمكن مقارنة العمود الهيروغليفى بالعمود الكورنثى الرائع .

وهكذا يمكن القول أن منف كانت بمعنى ما محجراً للإسكندرية ، ونتساءل الآن : أين اختفت الأشياء ضخمة البنيان لأطلال الإسكندرية ؟

لا يمكننا قول شىء محدد عن هذا ، ولكن يمكننا الافتراض أنها غاصت فى الأرض لمسافة عميقة مثل ما حدث عند تدمير روما القديمة حيث جعل هذا أرض مدينة روما أكثر علواً من ذى قبل .

علاوة على ذلك ، على مدى قرون عديدة ـ وإلى الآن ـ تحمل بقايا الأطلال بلا توقف على المراكب إلى أوروبا عن طريق الإنجليز والفرنسيين وغيرهم .

عمود بومبى العظيم ذلك العملاق شاهق الارتفاع الذى استطاعت القوة البشرية إنشائه وإهداء الصيت لمحبى الرفعة الباهرة هو أول وآخر شىء يشاهده جميع القادمين عبر البحر إلى الإسكندرية والمغادرين للشاطئ ، ولا يعرف لماذا يسمى هكذا .

من المعروف أن يوليوس قيصر قد رثى موت بومبى (القائد الشهير) ، ولكن هذا غير كاف لإثبات أن هذا الأثر قد خصصه له يوليوس قيصر أو مجلس الشيوخ الرومانى . وصمت المؤرخون القدماء بهذا الخصوص عجيب ، وكل الآراء عن هذا لكثير من الرحالة الحاليين ـ خاصة السيد سافارو[250] ، الذى سماه لسبب مجهول عمود الإسكندر سيفيرا ـ لهى مجرد افتراضات. إن طراز هذا العمود كورنثى ، ومن حيث فخامة وأناقة صنعه فإن هذا الطراز بالمقارنة مع الأخريين كان استثنائياً ، واستخدم من قبل اليونانيين بعد الإسكندر المقدونى لتشييد الجزء الأكبر من المعابد والآثار . هذا يشهد بأن هذا العمود صنع بالتأكيد فى عهد البطالمة الذين سعوا بشكل خاص إلى تزيين الإسكندرية (عاصمتهم) بالعلوم والمبانى والمعالم

250 - سفارى ، (كلود إتيين 1750 ـ 1788) رحالة فرنسى ومستشرق . عاش فى مصر فى (أعوام 1776 ـ 1781) ، ومؤلف كتاب « Lettres sur l'Egypte " خطابات من مصر (1788 ـ 1789) .

الأثرية . وأقول أنه قد تم تجديده معتبراً أنه لم يكن هكذا فى بداية الأمر ، وأنه صنع من جديد فى الشكل الحالى . وإن الكتابة الظاهرة بالكاد على القاعدة من الجهة الغربية قد يمكنها أن توضح تاريخه لو كان الزمن المدمر قد رحم على الأقل بعض ملامحه[251] .

ولا يمكن القول بيقين أين وفى أى مكان على وجه الخصوص كان يوجد قبر الإسكندر الأكبر والسرابيوم والموسيوم ... إلى آخره ، وسعى إلى حل هذه المعضلة بدون جدوى كثير من الرحالة قبلى ، وخاصة الإنجليز الذين يتصفون بالشجاعة وعدم التوانى فى بلوغ هدفهم ، وكونهم أكثر الناس الذين يكرسون أنفسهم لاكتشاف الآثار .

وفى رأيى نوردين[252] ، وبعض الرحالة الآخرين كان الموسيوم يوجد فى مكان الفاريلون (الفنار) الصغير ، ولكن من الممكن أن نفترض أيضاً أنه كان يقع بين الفاريلون "الفنار" وقصر كليوباترا ، لأن كل الشاطئ البحرى هناك كان مغطى بأطلال المبانى الضخمة المبعثرة .

وكان قبر الإسكندر الأكبر ، قبر المتوفى البارز ! مكان رفات المنتصر على الكون قائماً حتى القرن الخامس عشر[253] ، والآن هو فى مكان غير معروف ، واختفت ذكراه من الأساطير الشعبية . ولم يعد السرابيوم كذلك موجوداً ، ربما تكون بعض بقاياه مدفونة تحت الكميات الهائلة من التراب الذى تحولت إليه مثل تلك الأعمال العظيمة من صنع البشر . وقد لونت المسلة وعمود بومبى الناجيين هذه اللوحة الكئيبة ، وكانا كشاهد الضريح فوق الأطلال العظيمة الجديرة بالإجلال .

أهذه أنتِ يا إسكندرية ؟ ؛ تساءلت إذ أجد نفسى بين الأشياء الحزينة لهذا الخراب . أهذه أنتِ أيتها المدينة الجالسة على عرش الحكمة والعلم والاحتفالات ، وكل ما هو جميل ، وكل ما له من تأثير على سعادة الكائنات الحية ؟ ؛ هل هذه أنتِ التى كان اسمها مدوياً فى أرجاء المعمورة ؟ لا ، إننى لا أعرفكِ ! لا أعرفكِ فى هذا الرفات ، الذى يشبه العظام المتحللة لشخص ميت ، والذى وضعت عليه يد الزمان القوية التى لا تكل بصمتها بعمق كبير .

من يريد أن يرى انهيار هذا المأوى الأرضى ، ويرى النموذج الكئيب ، وفاتر الهمة والمحتضر فى أقصى صورة مؤلمة للحزن ، ويدخل تحت ظلال نهاية العالم المادى ، فليأتِ إلى هذه الخرائب الحزينة ، والتى ثبتت عليها الكآبة عرشها حيث هى فى حداد عميق ، وفى تاجها من شجر

---

251 - الكتابة على القاعدة تقول : « إلى الإمبراطور العادل والإله الحامى للإسكندرية دقلديانوس الذى لا يقهر - باستوموس حاكم مصر « . أقيم العمود حوالى عام 297 م . وحسب آراء الباحثين المعاصرين أخذ العمود من معبد السيرابيوم الذى بنى فى القرن الثالث قبل الميلاد انظر
.Egypt . Eyewitness travel Guide . London , 2007, p. . 242
لذلك لم يخطئ المؤلف عندما أكد أن هذا العمود صنع فى عصر البطالمة .

252 - لم ننجح فى الحصول على معلومات عنه .

253 - غير صحيح فقبر الإسكندر اختفى قبل هذا بوقت كبير فى نهاية القرن الرابع . ربما قد دمر من قبل تسونامى أو زلزال عام 365 أو من قِبل المسيحيين بعد أن حرم الإمبراطور فيودوس الوثنية فى عام 391 . انظر : Saunders Nicholas I . Alexander's Tomb. Cairo, 2006, p.104

السرو ، وفى كآبة دائمة ورهيبة تئن فوق وعاء الدمار الشامل ، فليأتِ إلى هذا المعبد المظلم كل متأمل ، وكل قلب يسيطر عليه الموت مع تبجيل مرتعش ينطرح على حجر بارد أمام الروح الخالقة التى لا يُدرك كنهها ، وتائهاً فى الشعور بعدم وجود حدود له ، ويصب فى مجارى الدموع إدراكه الحى بالضآلة أمامه ، والاعتراف ببطلان كل ما هو أرضى .

الإسكندرية الجديدة :

الإسكندرية الجديدة ليست أكثر من يتيم حقيقى فقير ورث عن أبيه اسمه العظيم فقط . فحدودها التى كانت فى وقت ما فسيحة ، انحصرت فقط فى برزخ غير كبير بين الميناءين ، وبدلاً من المعابد العظيمة توجد مساجد بسيطة ، وفى مكان المبانى الحقيقية والمزخرفة والشامخة توجد مسوخ العمارة[254] . وتحولت نجاحات التجارة الرائعة وغنى أهلها إلى أقصى درجات الفقر . ويوجد ميناء وحيد يُستخدم لتفريغ البضائع . وعاصمة القياصرة تحولت إلى مسكن كئيب للسجناء ، ودار للبشرية المضطهدة . وعاصمة الحكمة تحولت إلى عاصمة الجهل والهمجية . وأخيراً ، إنها ليست بعنقاء ولدت من رفاتها ، ولكن نسل غريب ومتوحش للطين الخالد تجسد بفعل التأثير وخيم العاقبة لقوانين الشرق[255] .

254 - الفرنسى سونينى الذى زار الإسكندرية فى عام 1780 م ذكر أن سكان المدينة لم يزيدوا عن خمسة آلاف ، وليس هناك مبنى عام واحد ، وليس هناك مبنى سكنى يلفت نظر الرحالة ، انظر : رحلة السيد سونينى فى مصر العليا والسفلى مع وصف البلد والعادات والتقاليد والديانة والسكان الأصليين . نقلاً عن الفرنسى . موسكو . 1809 م صفحة 93 .

255 - استعاض المترجم بكلمة الشرق عوضاً عن كلمة استخدمها المؤلف تمس نواميس العقيدة الإسلامية حيث لم يرَ لها من مبرر .

- **كيربرونيكوف (عام 1820)[256] :**

فى الأول من ديسمبر وصلنا : من سيناء : إلى المدينة المصرية (القاهرة) ، وبعد أن اجتزنا شطراً منها دخلنا إلى المقر السيناوى ، واستقبلنا رئيس الدير مع الأخوة بلطف ، وقادونا عبر الشارع إلى مقر الدير الخالية غرفه المواجه للمقر الرئيسى . وكنا نذهب طوال فترة إقامتنا إلى المائدة لتناول الغداء والعشاء . وأحياناً كانوا يعدون لنا مائدة خاصة من السمك والخضروات . ولم يعد يوجد كنيسة فى هذا المقر منذ وقت طويل ، ولكن يوجد كنيسة صغيرة تقام فيها الخدمة الدينية يومياً .

مدينة القاهرة واسعة جداً ، وكل المبانى فيها مبنية من الحجر . وهى تخضع لحكم الباشا مجمت (محمد) على باشا[257] . والتجارة فيها رائجة ، والممرات التجارية فيها كثيرة جداً (لذلك عدم معرفتك بهذه الممرات ، تجعلك عرضة للتوهان) . والمبانى الجميلة كثيرة. وتصنع المنتجات بأنواعها . ويبلغ عدد سكان مدينة القاهرة 300 ألف تقريباً . والمساجد كما قالوا لنا تسعمائة تقريباً ، والأسواق فى جميع أنحاء المدينة كافية ، ومن كثرة الناس تستطيع المرور بصعوبة ، ويوجد فى السوق الكبير ازدحام رهيب ، وهذا الزحام ناتج عن ضيق الشوارع. ويباع الخبز بسعر معقول ، وثمن اللحم والسمك والأرز ليس غالياً. والفول والبلح وكل أنواع الخضروات كثيرة ، ونتيجة لفيضان النيل تعطى الأرض محصولين فى العام .نهر النيل ، كما يقولون ، يفيض فى أوائل يوليو ، ويبقى الماء حتى منتصف أغسطس، ويزرعون الحبوب عندما ينحسر الماء ، ويحصدون فى أواخر شهر فبراير . والحقيقة يحدث عندهم التالى : فى نفس الوقت فى مكان ما يحصدون الحبوب ، وفى مكان آخر تبدأ الحبوب فى النضج ، وفى أماكن أخرى يبدأون فى بذر البذور . ذلك أنه حيث يكون المكان مرتفعاً ينحدر الماء بسرعة، وحيث يكون منخفضاً يبقى ويتأخر ، وهكذا إلى آخره بالتدريج ، على حسب بقاء الماء فى الحقول مدة قصيرة أو طويلة . والمحصول الثانى المكون من العدس والفول وما شابه ، ينضج أواخر يونيو ، و يحصدونه أيضاً فى الوقت ذاته .

المطر فى مصر نادر الحدوث ، حتى أنه أثناء وجودنا فى القاهرة أمطرت مرة واحدة ، وهذا يحدث نادراً حتى أن ذلك يعد معجزة . وفيضان النيل يحدث بنسب متفاوتة إذ يمتد إلى خمسة فراسخ فى مكان ، وإلى ستة فى أماكن أخرى ، أزيد أو أقل . وكلما كان المكان مستو ، يكون فيضان الماء أكثر . وتلك الأرض التى يغمرها الماء تتميز بالخصوبة . وفى أماكن أخرى يوجد الرمل والأحجار الصغيرة فى كل مكان . على جانبى الشوارع يقف العرب فى الأسواق مع خيولهم وحميرهم عوضاً عن عربات الركوب الخفيفة . وإن كنت ترغب فى الذهاب إلى أى مكان ، فإنه يجب عليك أن تمتطى حصاناً له سرج ، و يجرى صاحب الحيوان فى الخلف ،

256 - نشر فى إصدار : رحلة للأماكن المقدسة التى توجد فى أوروبا وآسيا وأفريقيا التى قام بها فى (أعوام 1820 ـ 1821) ساكن قرية بافلوفا كيربرونيكوف . موسكو . عام 1824 ـ صفحة 126 ـ 139 ، والنص أورده المؤلف طبقاً للتهجئة الحديثة والتنقيط .

257 - محمد (فى التقاليد الروسية مجمت أو مخمت) علىَ باشا ـ حاكم مصر فى (أعوام 1805 ـ 1848) .

ويصيح : « أفسحوا الطريق! ». وعندهم كذلك طريقة غريبة لبيع اللبن ! وعلى ما يبدو ، فإنه لا يمكن الاحتفاظ به طازجاً بسبب المناخ الحار ، وهم لا يبيعونه فى الآنية كما يحدث عندنا. بل يجوب البائعون الشوارع مع الماعز ، ويسألون فى البيوت عمن يريد اللبن وكم يريدون ، وهناك فقط يحلبون . ويواصلون فعل ذلك الأمر من بيت فالثانى فالثالث ، وهكذا دواليك حتى لا يظل هناك قطرة لبن يحلبونها . ويطيع الحيوان المسكين إزاء هذه الحالة صاحبه بصبر .

فى أحد أيام وجودنا فى القاهرة استأجرنا خيولاً ، وذهبنا إلى القاهرة القديمة ، والتى لا تبعد عن القاهرة الجديدة بأكثر من فرسخين . وتقريباً فإن هذا الفاصل "بين المدينتين" تشغله الحدائق . وبينهما توجد قباب حجرية عالية على مثال الكوبرى ، والتى يتدفق الماء خلالها من النهر[258] . ويوجد فى القاهرة القديمة وإلى الآن مبانٍ غير قليلة ، وتشرف بعض أحيائها على النيل مباشرة ، ولكن كل التجارة والحكم يتواجدان فى القاهرة الجديدة . وعندما يفيض نهر النيل ، تتزود جميع صهاريج أو آبار القاهرة الجديدة بالماء للعام القادم ، لأنه فى ذلك الوقت كان يمكن حمل الماء من مكان قريب من النيل ، والذى شقت منه قناة تمر عبر بعض أحياء مدينة القاهرة الجديدة .

فى القاهرة القديمة زرنا أولاً الكنيسة المسيحية التى توجد فى مقر بطريرك الإسكندرية[259]، والذى لا يقيم فى الإسكندرية ، وإنما يقيم فى القاهرة . ولم يكن البطريرك الحالى فى ذلك الوقت فى القاهرة ، فلقد رحل منذ عامين إلى موطنه جزيرة باتمو[260] . والكنيسة مكرسة للشهيد العظيم جيورجى (مار جرجس) ، وفيها توجد خلف المشربية الحديدية على حائط الكنيسة كتابة ما خطها بيده الشهيد العظيم ، وعلى المشربية عُلقت أيقونة صغيرة لهذا القديس . وغير بعيد عن المشربية يوجد عمود قائم، عليه سلسلة يربطون فيها الذين يعانون من الأمراض ، وبفضل صلواته يحصلون على الشفاء . وبعد أن صلينا ذهبنا إلى كنيسة أخرى لا تبعد كثيراً عن هذه . وهذه الكنيسة ضخمة ، ولكنها بالية بالفعل ، ولا يوجد لها سقف . وعندما يقيمون فيها القداس الإلهى (الليتورجيا) ، يحضرون معهم كل ما يلزم لأدائه . ومنها ذهبنا إلى كنيسة قبطية توجد على مسافة ليست ببعيدة . وفى داخلها مغارة دخلنا إليها وفيها قسمين ، يوجد فى واحد منهما بئر ليس فيه ماء . وأكد لنا القاطنون هناك أنه فى هذا المكان مكثت السيده العذراء مع الطفل يسوع ويوسف النجار عندما فروا من هيرودس إلى مصر . عدنا من القاهرة القديمة إلى القاهرة الجديدة عبر الكثير من المدافن ، وذهبنا إلى القلعة التى يُحفظ فيها السلاح والبارود[261] ، وهنا تُصك العملة ، وتوجد هنا مكاتب الموظفين وقصر الباشا المصرى . ودخلنا القلعة عبر البوابات ، ورأينا بئراً يسمى بئر يوسف عمقه غير

---

258 - يدور الحديث عن مجرى العيون الذى كان يزود القلعة بالماء .

259 - عدم دقة ـ مقر بطريرك الإسكندرية مع كنيسة القديس نيقولاس يتواجدان فى حى الحمزاوى ، وليس فى القاهرة القديمة حيث تتواجد كنيسة القديس جيورجى (مار جرجس) .

260 - باتمو (نطقها الصحيح باتموس) جزيرة يونانية صغيرة فى جنوب شرق بحر إيجه ـ وتشتهر بالدير الكبير لإيوان التقى ، والذى بنى فى القرن الحادى عشر ، وفى (أعوام 1771 ـ 1774) فى أثناء رحلة الأرخبيل ، وفى باتموس توجد قاعدة حربية للأسطول الروسى .

261 - يقصد قلعة القاهرة .

عادى ، وله أربعة أضلاع ، وهو منحوت فى الأرض الطبيعية الحجرية ، وفى كل حائط أربعة أرشينات "الأرشين مقياس روسى قديم يساوى 71 سم" [المترجم] ، وبجواره خلف الحوائط شق ممر فسيح للثيران والماشية الأخرى ، وعبر هذا الممر دخلنا إلى منتصف البئر. وينفذ الضوء فى هذا المكان عبر النوافذ المنحوت عدد منها فى كل حائط من حوائط البئر، ولكن الضوء فى تلك النوافذ ينزل من أعلى ، وخلف البئر يمر الضوء عبر تلك النوافذ ، وإن كان قليلاً . ويُستخرج الماء من قاع البئر عن طريق ثيران مربوطة فى ساقية ، والتى ربطت عليها كثير من القواديس الفخارية التى تشكل ما يماثل الحلقة ، والتى عندما تغطس تسحب الماء ، ثم يفرغ الماء فى منتصف البئر فى أحواض مصنوعة لذلك الغرض . ومن الأحواض بالضبط بنفس الصورة كما يحدث فى البئر يغترفون الماء ، ويسحبونه للأعلى ، ويقلب فى جرار عميقة كالآبار التى توجد عندنا فى روسيا ، حيث يعلق دلوان أحدهما ينزل للأسفل والآخر يصعد للأعلى . وفوق البئر توجد شجرة كبيرة ذات قرون ، وأوراقها الكثيرة تشبه إلى حد بعيد شجرتنا الروسية الغبيراء[262] ، وهذه الشجرة تضفى جمالاً على المكان وتحمى من أشعة الشمس . ولما خرجنا من البئر ووقفنا قليلاً تحت هذه الشجرة شاهدنا القلعة . ولا يعيش الباشا هنا ، ولكنه يعيش فى داخل المدينة فى السوق الكبير . وبعد أن شاهدنا كل ما هو طريف عدنا إلى المقر .

توجد فى القاهرة اثنتان من الكنائس المسيحية . وفى القاهرة الجديدة توجد كنيسة القديس صانع المعجزات نيقولاس ، والمقر السيناوى بكنيسته الصغيرة . وفى القاهرة القديمة توجد كنيسة الشهيد العظيم جيورجى (مار جرجس) .

رغبت فى الذهاب إلى الناحية الأخرى من النيل ، ومشاهدة الأهرامات القديمة التى تدخل فى عداد عجائب الدنيا السبع . ولم يوافق رفاقى على الذهاب معى إلى هناك . وها أنا وحدى فى الرابعة صباحاً قد دعوت راهباً يستطيع التحدث بالعربية والروسية ، وذهبت معه إلى نائب القنصل الروسى الذى لا يتحدث[263] ولو بكلمة واحدة باليونانية أو بالروسية، ولكنه تحدث معنا عبر الراهب باللغة العربية ، وطلب منى جواز سفرى . وصرحت له برغبتى فى الذهاب إلى الأهرامات . لذلك استأجر لنا حصانين ، ركبناهما وذهبنا . وكان الحوذى العربى يجرى خلفنا، وفى حال انعطافنا إلى شارع آخر ، فإنه يجرى إلى الأمام ويشير لنا إلى الاتجاه الذى يجب أن نسلكه . وبعد أن اجتزنا عبر القاهرة شوارع كثيرة وأسواق ، ودخلنا إلى بساتين دلفنا من خلالها إلى أرض مستوية ومفتوحة قام عليها ابن مجمت (محمد) على باشا[264] بعرض لسلاح الخيالة . ومنها ذهبنا بطول القناة المتفرعة من النيل ، والتى من خلفها كانت تُرى بيوت كثيرة جميلة وماتعة . وبعد أن قدمنا إلى القاهرة القديمة لينقلونا إلى الجانب الآخر ، اشترينا خبزاً وشموعاً لدخول الأهرامات . وحملونا سريعاً إلى الجهة الأخرى من النيل فى مركب شراعى . ونهر النيل ليس واسعاً ، ولكنه قوى كأنهارنا فى الربيع . وعلى ضفة النهر مباشرة ، فى مكان مرتفع ، توجد قرية سألنا فيها السكان عن الطريق، ثم انطلقنا إلى الأمام مبتعدين. ولم يزر الحوذى العربى الأهرامات ولا لمرة واحدة، ولأنه لا يعرف الطريق ، فكثيراً ما كان يضل

262 - فيما يبدو شجرة السنط المنتشرة فى مصر .

263 - وظائف القناصل الروسية فى تلك الفترة كان يقوم بها فى الغالب أجانب .

264 - إبراهيم باشا (1789 ـ 1848) ابن محمد على ، قائد الجيش .

عنه . تبعد الأهرامات عن النيل بمسافة ليست أكثر من خمسة فراسخ . وبعد فيضان النيل يرقد الماء والطين فى الأماكن المنخفضة ، لذلك لففنا حول السد المرتفع الممتد لمسافة خمسة عشر فرسخاً . واجتزنا أربعة قرى وحقول مزروعة بالحبوب . وفى هذا الوقت تفتحت أزهار الفول، وكان القمح أعلى من أربعة أرشينات (الأرشين 71 سم) . وصلنا إلى الأهرامات القائمة فى مكان جاف ومرتفع فالماء لا يغرقها أبداً . والاثنان الكبيران قائمان تقريباً بجانب بعضهما البعض ، والستة الآخرين الأقل فى الحجم من الأولين يبعدون كثيراً جداً[265] . عندما اقتربنا من الهرم رأينا رأساً[266] حجمها مثل الكومة الكبيرة من القش (الحشائش المجففة) ، ومصنوعة من الحجر ، وعيون هذه الرأس وأنفها وفمها وأذناها واضحين . والعرب بكل سذاجة يسمونها رأس الفرعون ، وقالوا لنا أن أحد الإنجليز قد حفر[267] منذ وقت قريب عند هذه الرأس ، ولكنه لم يجد شيئاً مهماً ، لا عملات ولا أى نوع من المجوهرات ، وقد فتح مؤخراً فى هذه الرأس ممراً أرضياً[268] يمتد مباشرة حتى نهر النيل ، يبلغ طوله أربعة أو خمسة فراسخ تقريباً . والآن أصبح هذا الممر بالتقادم فى طى النسيان .

تجمع كثير من العرب من القرية المجاورة من أجل بقشيش أو هدية مالية . ولكن قال لهم الحوذى أننا جئنا من قبل القنصل الروسى ، ولن نعطى أية هدايا . وبعد أن سمعوا هذا ذهبوا جميعاً من حيث أتوا ، ما عدا أربعة ظلوا معنا . وبجانب هذه الرأس ، يوجد كثير من الأبنية[269] الحجرية القديمة ، وبقايا الحجارة المكسورة (الدبش- المترجم) التى نقبها الإنجليزى . واقتربنا من الهرم ذاته ، والذى كان عظيم الارتفاع والعرض ، وهو فى الأسفل كما فى الأعلى مدبب الطرف ، ولكن فوقه مساحة ليست بصغيرة[270] . ولو أن الأحجار لم تكن مرصوصة ، كان من الممكن أن نعتبره جبلاً طبيعياً رائعاً . والأحجار المستخدمة كبيرة جداً ، وهى منحوتة وملساء بدرجة كافية . والأعجب من كل هذا كيف رفعت هذه الأثقال إلى هذا الارتفاع ! . وقادنا العرب إلى الناحية الأخرى من الهرم حيث كانت هناك فتحة أو مدخل قرب الأرض . ويوجد فوق الفتحة فى حائط الهرم حجران كبيران كُتب عليهما بلغات مختلفة إمضاءات كثيرة لأسماء وآباء السائحين الفضوليين الذين شاهدوا الأهرامات . وعرض على العرب أن أكتب شيئاً ما ، ولكنى أشفقت على سكينى ، واعتبرت ذلك غير ذى أهمية ، حيث أنه مكان غير مقدس .

---

265 - بالإضافة إلى الهرمين الكبيرين لخوفو وخفرع فى الجيزة ، يوجد 8 أهرامات ، وليس ستة: هرم منقرع ، وسبعة أهرامات صغيرة للملكات . * الصواب أن فى منطقة الجيزة 3 أهرامات لخوفو وخفرع ومنقرع ، و 6 آخرين للملكات والأقرباء (المترجم) .

266 - أبو الهول ذلك الوحش الذى هزمه أوديب (ملاحظة المؤلف) . عند رؤيته فى الجيزة لرأس أبى الهول تذكر برونيكوف الأسطورة اليونانية القديمة عن الملك أوديب الذى حل لغز الوحش أبو الهول. ولم تكن الرمال قد أزيلت عن التمثال بعد ، لذلك كان يتكلم فقط عن الرأس .

267 - فيما يبدو أن الحديث يدور عن تنظيف صدر أبى الهول ، والذى تم فى عام 1816 م من قبل القنصل العام لبريطانيا العظمى فى مصر هنرى سولت . وترأس العمل الضابط الإيطالى د . ف. كافيجلى .

268 - هذا التأكيد لا يتطابق مع الواقع .

269 - يوجد بين يدى أبو الهول معبد خاص به ، وهو مهدم جداً . وكذلك يوجد المعبد السفلى للمجموعة الجنائزية لهرم خفرع ، وهو أيضاً مهدم جداً .

270 - كان هذا هرم خوفو ، والذى سقطت قمته فى القدم مكونة رصيفاً .

بعد أن أوقدنا النار بدأنا فى الهبوط إلى الأسفل من خلال فتحة فى داخل الهرم . والأحجار من الأعلى صغيرة وعميقة ، ومن الجوانب وتحت الأقدام كبيرة وملساء وملتصقة ببعضها البعض بطريقة فذة ، حتى أن شكلها يوحى كما لو أن كل هذا صنع من حجر واحد . وعلاوة على ذلك ، فهى ملتصقة بعضها ببعض بتلك الدرجة من المتانة حتى ، فيما يبدو، أنها لن تنفصل أبداً. ونزلنا للأسفل كما فى السرداب ، وبعد ذلك صعدنا لأعلى الهرم عبر ممرات غير مستقيمة ، وأحجار سقطت من أماكنها منذ وقت بعيد . وعبر منعطفات كثيرة وصلنا إلى غرفة ذات حجرات مصنوعة من المرمر ، وهى تسع من أربعين إلى خمسين شخصاً . ما تقوله هناك يكون له طنين ، وصدى الكلمة يتكرر . والضوء فى الغرف ينفذ من جانب هرم صغير، وهذه الغرفة (والتى لم أستطع أن أتبينها بالكامل) توجد تقريباً فى منتصف الارتفاع .

دعانا العرب لتسلق قمة الهرم ولكننا لم نذهب ، لأن اليوم كان قد شارف على الانتهاء . ولم نشأ أن نبيت فى الطريق . ويوجد ممر خارجى لقمة الهرم عبر زواياه . وبعد أن خرجنا من هناك لم نذهب إلى الأهرامات الأخرى ، وتوجهنا إلى القاهرة من غير إبطاء . ونصحنا العرب بأن نتلافى الالتفاف البعيد بالسفر عبر الطريق القديم ، وأخذونا من الأهرامات عبر طريق مستقيم للقاهرة. وقد حملونا على أيديهم عبر الماء والطين ثلاث مرات ، ولهذا فإننا استطعنا بمجهود شاق أن نتحاسب وإياهم مالياً . وبواسطة مركب شراعى عبر النهر تؤازره ريح مواتية ، وصلنا سريعاً إلى المعدية ، وكان لم يزل هناك ضوء . وأعطيناهم أجراً على جهودهم واحد ليف . وعندما وصلنا إلى القاهرة القديمة ، كان قد حل الظلام ، ووصلنا أخيراً إلى القنصل فى القاهرة الجديدة فى الساعة الثانية ليلاً .ومن عند القنصل إلى المقر اجتزنا فى الليل الكثير من الممرات التجارية ، وبالفعل السير ليلاً فى القاهرة خطر جداً .

فى يوم الأحد استمعنا للصلاة الصباحية عدة ساعات فى الكنيسة الصغيرة التى توجد فى المقر . وفى يوم الاثنين - فى اليوم السادس من الشهر - ذهبنا إلى القداس الإلهى (الليتورجيا) فى كنيسة القديس نيقولاس . وفى أثناء الليتورجيا كان هناك الكثير من العرب واليونانيين الوافدين . وقرأوا أعمال الرسل والإنجيل باللغتين اليونانية والعربية. وبعد أن سمعنا الليتورجيا، رجعنا إلى المقر حيث تناولنا وجبة الغداء ، وبدأنا الاستعداد للرحيل . ودعانا رئيس الدير جميعاً فى قلايته ، وأعطى كل منا حسب استطاعته صدقة لتدعيم الدير . وفى السابع من ديسمبر فى الصباح الباكر جاء العرب مع جمالهم إلى المقر . واتفقنا معهم ليحملونا من القاهرة إلى غزة ، وحصلوا على 50 ليف من كل واحد منا نظير نقلهم لنا . وفى الساعة الثالثة عصراً خرجنا من القاهرة وسافرنا ، ولكن ليس من الطريق الذى أتينا منه قبلاً (السويس إلى القاهرة) ، ولكن عبر طريق آخر يقع بالقرب من النيل . ووصلنا إلى إحدى القرى التى تبعد عن القاهرة مسافة عشرين فرسخاً عبر أشجار النخيل والحقول والأبراج ، وهناك قضينا ليلتنا . ومن هذه المدينة كانت الطريق وعرة ، وسافرنا عبر الرمال، ولم نرَ أية آثار للطريق . إلا أننا وجدنا فى مكان ما شجيرة ، وعندها أضرمنا النار وقضينا ليلتنا . وجدنا الماء فى الآبار بعد يومين أو ثلاثة ، ولكنه كان مالحاً ، ولم نر أى قرية فى أى مكان . وفى اليوم السابع عشر من الشهر استطعنا بالكاد أن نصل إلى غزة < ... >

***

الفصل الثالث



الفصل الثالث :

عن ما حكاه الرحالة :

عندما تبدأ من فارسونوفى وتنتهى عند كيربرونيكوف بطريقة متعاقبة ، مطلعاً على نصوص الرحلات ، فإنك ستكتشف ظاهرتين . أولاً ، هذه النصوص بها إطناب كبير . وثانياً ، المعلومات المتضمنة فيها عن مصر دقيقة . والظاهرة الأولى مرتبطة بتطور الأدب الروسى ، والثانية مرتبطة بالتراكم المتوالى للمعلومات عن بلد النيل . وسنحاول باختصار أن نلخص ما استطاع مواطنونا أن يعرفوا عن مصر فى مطلع القرن التاسع عشر من مذكرات الحجاج الروس والمواطنين .

• الطبيعة والمناخ :

زار القاهرة تقريباً كل مؤلفى الرحلات . بعضهم جاء عن طريق النيل من رشيد أو دمياط ، والبعض الآخر عن طريق اليابسة من فلسطين . والأواخر كانوا مضطرين لعبور الصحراء فى شمال شبه جزيرة سيناء ، « والطريق إلى مصر "من فلسطين" مرهقة ووعرة مثل بحر الرمال ، ومن الصعب اجتيازها على ظهور الخيل أو سيراً على الأقدام . حيث يسافرون عبر هذه الطريق على الجمال » كما أشار فاسيلى جاجارا . «لا يوجد ماء فى هذه الطريق ، وإنما يوجد فى الترع فقط . وهذا الماء غير صالح للشرب لأنه مالح جداً وشديد المرارة ، لذلك يأخذون معهم الماء العذب فى قِرب جلدية محمولة على الجمال » .

قام كيربرونيكوف ، على العكس ، باجتياز الطريق من القاهرة إلى فلسطين ، وعلى الجمل أيضاً ، وأيضاً عبر الصحراء « فى السابع من ديسمبر فى الصباح الباكر جاء العرب مع جمالهم إلى المقر . واتفقنا معهم ليحملونا من القاهرة إلى غزة ، وحصلوا على 50 ليف من كل واحد منا نظير نقلهم لنا . وفى الساعة الثالثة عصراً خرجنا من القاهرة وسافرنا ، ولكن ليس من الطريق الذى أتينا منه قبلاً (السويس إلى القاهرة) ، ولكن عبر طريق آخر يقع بالقرب من النيل . ووصلنا إلى إحدى القرى التى تبعد عن القاهرة مسافة عشرين فرسخاً عبر أشجار النخيل والحقول والأبراج ، وهناك قضينا ليلتنا . ومن هذه المدينة كانت الطريق وعرة ، وسافرنا عبر الرمال ، ولم نرَ أية آثار للطريق . إلا أننا وجدنا فى مكان ما شجيرة ، وعندها أضرمنا النار وقضينا ليلتنا . وجدنا الماء فى الآبار بعد يومين أو ثلاثة ، ولكنه كان مالحاً ، ولم نرَ أى قرية فى أى مكان . وفى اليوم السابع عشر من الشهر استطعنا بالكاد أن نصل إلى غزة » .

الطريق من السويس إلى القاهرة التى ذكرها كيربرونيكوف كانت كذلك عبر الصحراء . وكان يطرقها أولئك الذين عزموا على الحج إلى الأماكن المقدسة فى سيناء: وكانت المسافة من السويس إلى دير سانت كاترين تستغرق قرابة أسبوع فى الطريق على ظهر الجمل . وأحياناً يوفق الحجاج منذ البداية فى أن يبحروا من السويس إلى الطور ، ومن هناك إلى الدير حيث يقضون فى الطريق ثلاثة أيام « كاملة » .

قال إيبوليت فيشينسكى : « عندما وصلت القافلة الملكية بالقمح انطلقنا ... حتى ميناء سوفيز "السويس" . وقد اجتزنا تلك الطريق التى أخرج موسى عبرها الشعب اليهودى من مصر ، وهذه الطريق باقية حتى يومنا هذا ، وتابعنا سيرنا فى هذه الطريق التى لم يكن فيها عشب أو ماء أو شجر . وهكذا سرنا يومين وليلتين . وفى النهار كان السير غير ممكن من جراء حرارة الشمس الحارقة ، إلا أننا كنا نخرج عندما يحل المغيب ونسير طوال الليل حتى موعد الغداء » .

ولم يكن إيبوليت فيشينسكى هو الوحيد الذى أشار إلى حقيقة أن المناخ فى مصر حار جداً ، بل تقريباً أشار إلى ذلك كل مواطنونا الذين زاروا هذا البلد . كتب فاسيلى جاجارا: «الحرارة غير عادية » ، وأكد هذا أرسينى سوخانوف : « فى القاهرة الجو حار للغاية ، والمطر لا يسقط أبداً ، والثلج والجليد غير معروفان » . وقال مكارى وسيليفيورست : «حرارة الشمس مفرطة » ، وكتب إيجناتى دينشين : « لا يوجد هناك شتاء ، والقيظ شديد جداً ، لم أتحمل حرارة الشمس ، واضطررت إلى العودة ؛ من القاهرة ؛ إلى الإسكندرية » .

ولقد ذكر مواطنونا أن الحرارة هى الرفيق الوفى للصحراء ، ولكن بالإضافة إلى الرمل ، توجد خضرة ليست قليلة فى مصر بفضل النيل .

- **النيل :**

بالفعل أورد كل مواطنونا عن النيل هذه المعلومات وغيرها ، إذ لم يستطع أى منهم أن يتجاهل هذا النهر حيث أنه الشريان الرئيسى للنقل فى البلاد . ذكر فارسونوفى مؤلف أول رحلة : « يجرى نهر النيل العظيم ذو المجرى الذهبى من الجنوب إلى الشمال ، ويصب فى البحر المتوسط على مشارف داميت "دمياط" » . وعن أن للنيل فرع آخر ، فإنه على ما يبدو لم يكن على دراية بذلك .

ولكى يحصل القارئ على تصور عن قياس نهر النيل ، فإن مؤلفى الرحلات قارنوه بالأنهار الروسية . كتب فاسيلى جاجارا بعد أن أوضح مقدماً أن جيون هو الاسم اليونانى للنيل : « ذلك النهر جيون يساوى فى القياس نهر الفولجا » ، وكذلك قارن النيل بالفولجا إيوان لوكيانوف . وأورد أرسينى سوخانوف مقارنة أخرى مع النيل . ذكر أن « الشواطئ على ضفتى النهر مستوية ، وتتداخل المياه مع الشواطئ . وعرض النيل كعرض نهر أوكا عند مدينة سيربوخوف أو عند ضاحية مدينة كولومنا تقريباً ، وفى بعض الأماكن يتجاوزه». والحقيقة أن سوخانوف وصف أحد فرعى النيل فقط ، وهو الغربى ، والذى أبحر خلاله من رشيد إلى القاهرة . وبناءً على ذلك ، بالمقارنة مع النهر يكون النيل أقل من الفولجا ، وذلك معروف جداً للكثيرين من أبناء وطنه .

وإذا كان فارسونوفى كتب عن النيل كنهر بدون دلتا ، فإن الراهب إيونا قد أحصى للنيل ثلاثة أفرع كاملة ، قال : « مدينة دمياط تقع على المصب الثالث لنهر النيل . والمصب الأول يوجد على مشارف الإسكندرية ، والثانى على مشارف رشيد ، والثالث على مشارف دمياط » . وعن « المصب الأول » سمع إيونا فقط ، حيث أنه لم يزر الإسكندرية . إذ اعتبر القناة التى شقت من النيل إلى الإسكندرية هى ذلك المصب .

وبمعرفة تامة للأمر حكى عن النيل المؤلف المجهول لمخطوطة « وصف الإمبراطورية التركية » . وهذا مفهوم حيث أنه فى واقع الأمر كان ضابطاً . ومذكراته عامة تشبه تقارير رجل المخابرات . ذكر المؤلف المجهول : « وفى غرب القاهرة ، عند المرسى على شاطئ ذلك النهر المصرى ، توجد قرية فى مكان ذى طبيعة خاصة . ويطلق على هذا المكان «بولاق » . ويستغرق السفر من بولاق إلى المجرى السفلى لنهر النيل مسافة نصف يوم ، حيث يتفرع النهر إلى فرعين ، فالفرع الأول (أو الأيمن) يمتد إلى دمياط ، والفرع الثانى (أو الأيسر) يصل إلى رشيد . ويستغرق السفر من مكان تفرع النهر حتى رشيد مسافة يوم ونصف اليوم ، ونفس تلك المدة من مكان تفرع النهر إلى دمياط » .

وأبحر إيوان لوكيانوف فى كلا فرعى النيل . وعند توجهه من رشيد إلى دمياط ، كتب إيوان :

« فى اليوم السابع عشر من أغسطس ركبنا السفينة ، وذهبنا إلى الأعلى عبر النيل إلى مدينة دمياط (المرسى المصرى الآخر) . ودفع كل واحد منا تالير مقابل هذا النقل . وفى هذا اليوم هبت رياح مواتية حتى منتصف الليل ، وبعد منتصف الليل توقفت . ووقفنا هناك حتى منتصف النهار ، ورأينا على امتداد النهر عدد كبير من المدن العربية ، وتبعد كل مدينة عن الأخرى حوالى فرسخين تقريباً ، وهى نفس المسافة بين القرى . وكل المبانى مبنية من الحجر ، والقرى جميلة جداً . والأرض بالقرب من النيل سوداء وممهدة كما لو أنها صنعت خصيصاً بهذا الشكل ، بما يعنى أنه حتى البيض يمكن دحرجته . والناس كثيرون جداً . ومصر كلها تروى بماء النهر . وعندما تنظر من المركب تجد حولك السماء والماء . وحيث يكون الشاطئ عالياً فإنهم يرفعون الماء بواسطة الثيران . والسواقى صنعت مثل الطواحين وفيها ربطت الأوانى التى سرعان ما تمتلئ بالماء . والناس كثيرون جداً . وفى مكان ما يستخدم الناس قفف مجدولة . ويوجد أشياء كثيرة فى الأرض المصرية . ويمكن القول أن هذه الأرض بالنسبة للأتراك منجم ذهب ! ، وكثير من السلع المصرية تذهب إلى القسطنطينية عن طريق السفن ؛ إلى رشيد ؛ . وكلما اتجهت صوب الجنوب (الأعلى) يصير النيل أوسع . وفى الأماكن القريبة من القاهرة يبلغ عرضه خمسة فراسخ تقريباً . ولقد ذهبنا عبر النيل إلى الأعلى (جنوباً) فى ثلاثة أيام ، وعلى مسافة عشرين فرسخاً من القاهرة انعطفنا إلى الفرع الآخر (إلى الأسفل فى اتجاه دمياط) . وهنا من القاهرة يتفرع النيل إلى فرعين : فرع يمتد إلى رشيد ، والثانى يصل إلى دمياط < ... > وعندما انعطفنا إلى الأسفل أبحرنا لمدة ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع وصلنا إلى مدينة دمياط » .

ووصف إيوان لوكيانوف مكملاً المعلومات التى أوردها كل من مكارى وسيليفيورست : « وتزدهر على ضفاف نهر النيل حتى القاهرة حدائق النخيل الكبيرة، ويقولون أنه يوجد بساتين يبلغ عرضها 5 فراسخ ، وفى أماكن أخرى يصل عرضها إلى 10 فراسخ ، وتؤول ملكيتها للسكان المحليين من العرب والأتراك على ضفتى النهر حتى راخيت ؛ رشيد ؛ ، وهى أماكن رطبة ومنخفضة ومزروعة بالقصب بإفراط ، والأرض سوداء وطميية ، وهناك يزرعون كثير من البرينيس ، وبلغتنا جريش الدُخن ؛ الأرز ؛ ، وهو ينمو بكثرة . وإذا احتاجوا إلى الماء ، فإنه يوجد على الشاطئ كثير من الآبار المحفورة ، وعليها سواقى كبيرة تديرها الثيران التى تغذى قنوات الرى بالماء . والبعض يشقون قنوات لأخذ الماء مباشرة من النهر « .

وأخبرنا مواطنونا عن الفيضان السنوى للنيل . قال أرسينى سوخانوف : « يرتفع منسوب المياه من ميلاد القديس يوحنا المعمدان (فى الرابع والعشرين من يونيو بالتقويم القديم) حتى يوم تمجيد الصليب (فى الرابع عشر من سبتمبر بالتقويم الجديد) ، وتبقى المياه وتروى (الشواطئ) فى كلا جانبى النهر » . وعن ذلك يمكننا الحكم بناءً على المقطع الثانى من رحلة إيوان لوكيانوف : « فى الوقت الذى يكون عندنا شتاء يكون الصيف قد

حل فى أثيوبيا العظيمة ، إذ تنتقل الشمس من عندنا إليهم ، ويكون الصيف عندهم فى هذه الأشهر . فى شهر مايو يحل عندهم الشتاء . وعندما تغادر الشمس من عندهم إلينا (فى البلاد الشمالية) يكون لديهم فى شهر مايو ويونيو ويوليو شتاء وصقيع وثلوج كثيفة . وبحلول شهر أغسطس تهطل الأمطار عندهم ، وينتهى فصل الشتاء ، ويتجاوز النهر ضفافه. وفى تلك الفترة تكون المياه عكرة لمدة ثلاثة أشهر ومن ثم لا يتم صيد السمك ، وبمجرد أن تصبح المياه نظيفة فى نوفمبر يبدأون فى الصيد على الفور . ويوجد فى نهر النيل أسماك كثيرة ، وخاصة سمك صرصور البحر ، أما الأسماك الأخرى فهى قليلة » .

وإذا كان إيوان لوكيانوف قد كتب عن تأثير فيضان النيل على صيد الأسماك ، فإن فاسيلى جريجورفيتش - بارسكى أشار إلى أهميته على الزراعة . أشار بارسكى إلى أن « نهر النيل يجلب خيراً كبيراً عندما يفيض كل عام . عندئذ يحفر الناس قنوات وترتوى كل الأراضى المصرية من عذوبة النيل الذى يحوى ماءً عذباً وصحياً للغاية ، ويزرع القصب ذو العصير الحلو على جزر النيل ، ومنه يصنعون السكر . وعندما تشرب الأرض حتى الثمالة وينحسر النهر ، يزرعون القمح والأرز والفول والعدس إلى آخره ، وببركة الرب يعطى محصولاً يطعم كل الجزيرة العربية . وهنا يزرع الأرز بكثرة كما تزرع فى بلادنا حبوب الجاودار " الجاودار أو القمح " . وكل السلع المذكورة فى الأعلى تُحمل من القاهرة إلى البحر المتوسط عبر النيل ، ومن هناك إلى كل البلد التركى وأبعد» .

وعن العلاقة المباشرة بين فيضان النيل والأشغال الزراعية كتب كيربرونيكوف مشيراً إلى أن « نتيجة لفيضان النيل تعطى الأرض محصولين فى العام . ونهر النيل ، كما يقولون ، يفيض فى أوائل يوليو ، ويبقى الماء حتى منتصف أغسطس ، ويزرعون الحبوب عندما ينحسر الماء ، و يحصدون فى أواخر شهر فبراير . والحقيقة يحدث عندهم التالى : فى نفس الوقت فى مكان ما يحصدون الحبوب ، وفى مكان آخر تبدأ الحبوب فى النضج ، وفى أماكن أخرى يبدأون فى بذر البذور . ذلك أنه حيث يكون المكان مرتفعاً ينحدر الماء بسرعة ، وحيث يكون منخفضاً يبقى ويتأخر ، وهكذا إلى آخره بالتدريج ، على حسب بقاء الماء فى الحقول مدة قصيرة أو طويلة . والمحصول الثانى المكون من العدس والفول وما شابه ، ينضج أواخر يونيو ، و يحصدونه أيضاً فى الوقت ذاته » .

واهتم الرحالة الروس بالمكان الذى ينبع منه النيل . يقول فارسونوفى عن ذلك ببساطة : « ينبع من الجنة » . و يذكر إيبوليت فيشينسكى أنه « يتدفق من جنة عدن كالذهب الخالص وأحياناً أصفر ، ومائه عذب ، والسمك فيه لذيذ جداً » . وكتب لاحقاً : « ولقد سألنا العرب المتقدمين فى السن هل يعرف أحد من أين ينبع هذا النهر ؟ قالوا : « يتحتم الذهاب إلى الجبل "إلى الأعلى مع تيار النهر" عبر هذا الماء لمدة 20 يوماً ، وهناك عالياً فوق الصخرة توجد مدينة ، والتى تأخذ المكوس » . ووراء هذه المدينة تسير مسافة يوم ، وهناك توجد جبال عالية ، وصخور حجرية ، وكثير من الوحوش الضارية . وفى الصخور ثعابين وزواحف مخيفة . وهناك أيضاً تقابل زواحف ذوات الأربع أرجل ، ولها ثلاث أو خمس رؤوس أو أكثر ، وإذا تمكنت من إنسان ووجدته تأكله ، والمضى قدماً غير ممكن ، ومن تحلى بالشجاعة

فإنه لا يعود » . والمصريون فى ذلك الوقت لم يكونوا يعرفون من أين ينبع النيل ، حيث كانوا يعرفون وادى النيل فقط حتى « المدينة التى على الصخرة ، والتى تأخذ المكوس (أى حتى أسوان) » .

والأقرب إلى الحقيقة معلومات فاسيلى جريجورفيتش ـ بارسكى : « ينبع النيل من بحيرة أو حفرة تسمى زائير ، والتى توجد فى خابيسى ، وعندما تبدأ هذه الحفرة فى الغليان يتضاعف الماء ، حينئذٍ يفيض النيل بشدة على ضفافه ، و يجلب فوائد كثيرة للقاطنين بجواره » . وليس واضحاً رغم هذا أين توجد خابيسى هذه ، ولماذا تبدأ الحفرة فى الغليان .

- عالم الحيوان :

توجد فى مصر حيوانات لا توجد فى روسيا ، وكثير من الرحالة أفاضوا بإسهاب فى وصفها. وجذبت التماسيح التى كانت حينئذ توجد فى النيل بوفرة انتباههم . وقال فارسونوفى أنه « رأى فى مصر وحش ضار » ، والحقيقة أنه لم يحدد ما هو . وكان أول من وصفه بإيجاز هو فاسيلى جاجارا الذى قال :

« وفى مصر يوجد وحش مائى فى نهر النيل يسمى التمساح ، رأسه كرأس الضفدعة وعيونه مثل عيون الإنسان ، ولديه 4 أقدام طول كل واحدة منها أكبر قليلاً من البياد (الشبر) ، أما جسد وأعضاء التمساح مثلها مثل جسد وأعضاء الإنسان ، وعموده الفقرى فى الظهر كما عند الإنسان ، والذيل يشبه ذيل القرموط . والتمساح يلهو مع أنثاه على الشاطئ ، وعندما يرى إنسان يطارده ، وحين يدركه يلتهمه . ويقوم العرب بصيد التماسيح بطريقة ماكرة ، و يحضرونها إلى الباشا فى القلعة » . ووصف أرسينى سوخانوف التمساح فى السمات العامة ، قال : « يوجد فى نهر النيل حيوان ضار يسمى التمساح ، وهو يشبه السحلية غير أنه كبير وقوى ، ولديه أربعة أرجل ، وجذعه مثل جذع السحلية ، ويوجد على جلده حراشف تشبه حراشف الأسماك، إلا أن لونها مزيج من الأصفر والأخضر ، وهى عنده أكثر صلابة ، والفم كبير ، والرأس طويل والأسنان كبيرة . ولقد رأيت فى فناء صيدلى من البندقية تمساحاً ميتاً ومجففاً ، أما التمساح الحى فقد رأيته ، إذ يبيعون الصغير وفمه مربوط لكى لا يلتهم أحداً » . واعتقد فاسيلى جريجورفيتش أن التماسيح توجد فقط فى أعالى النيل بعيداً عن القاهرة، قال الحاج الروسى : « إنها مثل السحالى ، ولها أربعة أرجل ، ولكنها ضخمة مثل أسماك الهوسو والحفش ، وتستطيع أن تعيش فى الماء، وعلى اليابسة . وتقضى بعض الوقت فى الماء ، ثم تزحف إلى الشاطئ بين سيقان قصب السكر وتأكله ، وهناك تستريح، وإذا وجدت إنساناً فإنها تفترسه» .

يوجد فى نصوص الرحلات وصفاً للنعام ، ولكن بدرجة أقل من وصف التمساح . وكان هذا الطائر ولكثير من المصريين أنفسهم شيئاً مدهشاً ، حيث أنه كان يوجد فقط فى أقصى جنوب البلاد . وكانوا يقتنونها كشىء عجيب من أجل اللهو ، قال أرسينى سوخانوف : " يوجد فى مدينة رشيد طائر النعام ، ويبلغ طوله حتى صدر الإنسان ، ويصل حتى كتف الشخص متوسط الطول ، وعندما يرفع رأسه يكون طوله مثل الأرجاماك (المهر) ، ورأسه غير كبيرة ، وأنفه إوزى ليس كبيرا وليس جميلاً ، وأرجله عارية وليست جميلة جداً ، فيها أصبع كبير ، وآخر غير كبير من الخارج . وللأصبع الكبير ظفر كبير ، وللصغير فغير معلوم . ولا يوجد ريش ابتداء من الرأس حتى الحوصلة بل زغب أبيض وأصفر. ويوجد ريش أسود قصير ليس له مثيل على الصدر حتى السرة ، وعلى الظهر حتى الذيل ، وأيضاً على الأجنحة . ويغطيه الريش الناعم من القدم حتى الذيل ، أما من الأعلى بجوار الذيل فخال من الريش ، ونادراً ما يوجد ريش فى هذا المكان ، ولون جلده أحمر مع أبيض . وتتغذى النعامة على الشجر والأحجار والحديد ، وأيضاً الحبوب ، وتسير مع الأشخاص فى الشوارع غير أنها لا تتعارك ولا تطير ، والريش على الأجنحة ليس بطويل،

وإنما هو غاية فى القصر". من الواضح أن العجوز أرسينى تعجب جداً من هذا الطائر العجيب، وأمعن النظر فيه طويلاً لكى يصفه بالتفصيل ، ولكنه لم يتجنب فى روايته الخرافات عن أن النعام يأكل الأحجار والحديد . وعن النعام فى رشيد نوه أيضاً الشماس إيونا الذى زار هذه المدينة فى نفس السنة التى زارها أرسينى سوخانوف . وقد سماه سترافوكاميل (أى الطائر - الجمل) ، وأوضح " سترافو" باليونانية طائر ، و " كاميل" الجمل . ووصف إيونا النعام بجملة واحدة قصيرة : " طائر مثل الجمل ، وكبير جداً ، وحافره بأصبعين" . والحقيقة أن رحلة الشماس إيونا كانت فى مجملها قصيرة جداً .

ومن المحتمل أنهم كانوا يربطون طيور النعام فى رشيد ، لأنه قد ذكرها فى رحلته كل من مكارى وسيليفيورست الذين زاراها بعد أكثر من نصف قرن من زيارة أرسينى سوخانوف والشماس إيونا . قال مكارى وسيليفيورست : " فى هذه المدينة "رشيد" رأينا طائرين كبيرين يسميان بالنعام . ولهذين الطائرين أجنحة جلدية ، غير أنهما لا يستطيعان الطيران ، وريشهما أشعث مثل ريش الدجاجة ، ولديهما أقدام كبيرة ، والحافر مثل حافر التوفارين (الحمار باللغة السلافية القديمة - المترجم) وهو "دابة النقل والأحمال"، والرقبة طويلة ، والرأس صغير كرأس الإوز أو البط ، وإذا ما شاكسه أحد ، فإنه يضربه بحافره " . وشاهد آندرى إيجناتيف نعامتين ولكن ليس فى رشيد ، وإنما فى القاهرة " فى قصر الباشا" أى من المحتمل فى القلعة . وقد وصفهما بإيجاز : " لديهما ريش أسود على الظهر، وقليل جداً أسفل المؤخرة ، والأجنحة بيضاء ، والرقبة والأرجل عاريين كما عند الجمل، والطول كطول مهر عمره عام واحد " . وأضاف أيضاً أنه " عندما عدنا من هناك ، رأينا جلود هذين الطائرين مع الريش معروضين للبيع فى ممر تجارى " . فيما يبدو، أن هاتين النعامتين رآهما فى القلعة إيبوليت فيشينسكى الذى زار القاهرة بعد عام من زيارة آندرى إيجناتيف . وقد وصفهما بإسهاب .

واندهش إيوان لوكيانوف من البعوض : " وعلى امتداد نهر النيل حتى القاهرة يوجد ذلك البعوض الذى لا أجد ما أقوله عنه ، فبدون ستارة سواء صيفاً أو شتاءً لا تستطيع أن تنام ليلة واحدة . وعندما وصلنا قام هذا البعوض بلدغنا لدرجة أن وجوهنا أصبحت كوجوه السكارى ، وكأنما أصبنا أيضاً بحب الشباب ولم نعرف بعضنا البعض"[271] .

---

271 جدير بالذكر أنه منذ مائتى سنة مضت اشتكى من البعوض ف . إى . شاليابين الذى زار مصر كسائح فى عام 1903 . وسأورد فقرة من كتاب رفيقه ن . أ . سوكولوف رحلة ف . إى . شاليابين فى إفريقيا (موسكو . عام 1914) :

« فى أول ليلة فى الفندق (فى القاهرة) داهمنا البعوض « العقوبات المصرية» .

وكل النوافذ فى غرف الفندق تغلق بستائر معدنية ، والسراير محاطة بالستائر التى تماثل الشاش عندنا ، وبدا لنا نحن الشماليون أن هذا حارا وخانق . وكانت النوافذ مفتوحة ، والستائر حول السراير سحبت بسرعة ، واضجعنا لننام . وبعد عدة فواصل من النوم انهالت من غرفنا صيحات وشتائم على البعوض ، وقال ف . إى فيما بعد : « بعوضنا الروسى أكثر نبلاً وأصالة من هذا البعوض المحلى ، فهو يهاجم مباشرة بدون أى خداع ، ومحذراً بطنين عال عند الهجوم المرتقب . أما هذا البعوض المحلى فغادر ودنىء ، فهو يهاجم خلسة ثم يوخزك كالدبوس ، وبالفعل فإن الجسم يتورم من لدغ البعوض، ولدغه ضار جداً ، ويبقى أثره وقتاً طويلاً . واضطررت أن أشعل النار وأطرده حتى آخر بعوضة» ، وأنغلق « وقد قررنا أن الاختناق والحرارة أفضل من وخز الدبابيس المستمرة ! » .

- الناس :

فى الرحلات لم يذكر سكان مصر ولو بكلمة واحدة . وجاء ذكرهم أحياناً على سبيل المثال عند كل من مكارى وسيليفيورست بإيجاز شديد : « العرب والأتراك» . وذكر أيضاً فاسيلى بازنياكوف وتريفون كوربينكوف الغجر الذين كانوا يعيشون فى مصر القديمة . وخصص المؤلف المجهول فى مخطوطة « وصف الإمبراطورية التركية» للمصريين فقرة كاملة ، ولكن اهتمامه بالسكان المحليين كونه ضابطاً كان اهتماما خاصاً . كتب المؤلف المجهول : « وجميع سكان القاهرة ، وكل المقاطعة المصرية (مصر) ، عرب . أما ما يخص الشأن الحربى ، فإنهم لا يحسنون استخدام الأسلحة النارية لأنهم وجلون وجبناء . ولقد كانوا فقط يقاتلون بالرمح على ظهر الحصان . ونادراً ما يكون عند المصريين والعرب خوذ ودروع ، غير أنه لديهم الكثير من دروع اليد . لذلك فإن اعتماد القاهرة كله على قلعتها . وأظهرت الحرب أن المصريين سيئون فى المعارك ، وهم كذلك بالفعل » .

وكان أول انطباع لإيوان لوكيانوف عن المصريين سيئاً جداً . يتذكر إيوان : « وعندما هبطنا إلى الشاطئ ورأينا الشعب العربى أصابنا الذعر . فمن غير المألوف رؤية أشخاص كهؤلاء ، فهم كالوحوش تماماً ، وعلى ما يبدو يريدون أن يلتهموك . وآخرون يسيرون عرايا كما ولدتهم أمهاتهم ، وكلهم دميمون فمنهم الأحدب ، والأحول ، وذو الأنف المعوج ، والفم المعوج والأعمى . ولغتهم خشنة كنبح الكلاب » .

من المستبعد أن نقبل وصفه حرفياً ، لاسيما أن المؤلف قال لاحقاً : « ولكن عندما أمعنا النظر أصبحوا مألوفين لنا ، دائماً ما يكون الأمر هكذا فى البداية . كل أمر فى بدايته يبدو بشعاً ، وبعد ذلك تعتاد عليه ويصبح كل شىء مألوفاً : فعندما وصلنا إلى بارلييفشين " قائد القوازق الأوكرانية باليى" ، فإن هؤلاء القوزاق بدوا لنا كالشياطين، وعندما وصلنا إلى الأتراك فإننا قد فقدنا عقلنا تماما : « إنهم حقاً شياطين ! » . وعندما عرفنا الأتراك عن قرب أصبحوا بالنسبة لنا كالروس » . ومع ذلك ، بالنسبة لإيوان لوكيانوف فإن المصريين لم يصبحوا بالنسبة إليه كالروس: «وعندما وصلنا إلى مصر ورأينا العرب ، فإننا تكلمنا فيما بيننا « إنهم شياطين حقيقيون! » ، ولكن عندما عرفناهم عن قرب فالأمر سيان ، كنا نخشاهم كما نخشى الشياطين ! ، وهؤلاء الناس لا يختلفون عن الشياطين فى طباعهم ، وسلوكهم ، وتصرفاتهم ، واندفاعهم . وتسرى عنهم الشائعات فى كل أرجاء الدنيا أنهم أناس طيبون ، ولكنهم شياطين جيدون » .

المصريون لم ينالوا أيضاً إعجاب إيبوليت فيشينسكى ، فقد أكد أنه « فى مصر الناس سيئون ، والعرب سود البشرة ويمشون عرايا ، ونساؤهم عديمات الحياء ، وهن لا يسرن بل يقفزن فقط وعيونهن مداعبة وعابثة » . وفى مكان آخر من الرحلة أعطى فيشينسكى

من جديد وصفاً سيئاً للمصريين : « وفى مصر يسير الأتراك مرتدين ملابس جيدة ، وزوجاتهم كذلك . أما العرب فغير ذلك ، فلو كان أحدهم غنياً ، فإنه يتغطى بعباءة مزركشة ، أما الباقون فكلهم يسيرون عراة . وهم أشرار للغاية ، فلو أنك قابلت أحدهم بمفردك فإنه ينهب ما معك ، وإذا بدأت بالمقاومة فإنه يضربك ، وليس عليه أى قصاص ، فهؤلاء الناس ملاعين » .

كيف نفسر رد الفعل هذا تجاه المصريين من قبل كل من إيوان لوكيانوف وإيبوليت فيشينسكى ؟ ؛ أرجح أن ذلك يرجع بصورة رئيسية إلى أن كل من الحاجين الروسيين كانا رجلين ذوى رتب دينية ، وبالنسبة إليهم لم يكن المصريين مجرد غرباء ، وإنما أصحاب دين معادى بدرجة كبيرة . بالإضافة إلى ذلك فإن الحجاج خالطوا اليونانيين الأرثوذكس لا غير ، الذين كان لهم مع المصريين صدامات من حين لآخر ، وليس مع المسلمين فقط ، ولكن مع المسيحيين الأقباط . وعن الأواخر تتضمن الرحلات معلومات قليلة ، وفى كثير من الأحيان غير صحيحة .

سمى فاسيلى بوزنياكوف الأقباط مهرطقين ، وقال عنهم لاحقاً الآتى : « يوجد عند الأقباط فى الكنائس أيقونات ، ومذبح ، وليس عندهم تعميد ، وهم يختتنون طبقاً للعهد القديم » . ولم يسمِّ تريفون كوربينكوف الأقباط بالمهرطقين ، ولكن كرر فى وصفهم عبارة بوزنياكوف كلمة بكلمة تقريباً : « يوجد عند الأقباط فى الكنائس أيقونات ، ومذبح ، وليس عندهم تقديس أو تعميد ، والأقباط يختتنون طبقاً للعهد القديم » . وسمى إيبوليت فيشينسكى الأقباط فى البداية النسطوريين ، وبعد ذلك محطمى الأيقونات . ولا هذا ولا ذاك - كما تم الإشارة إليه فى حواشى ترجمة نصوص الرحلات - يطابق الواقع .

وأكثر من كتب منهم عن الأقباط بإسهاب فاسيلى جريجورفيتش - بارسكى . قال بارسكى : « مازال يعيش هناك بعض المسيحيين المهرطقين الذين يسمون الأقباط ، أى أنهم المختتنون الذين يرسمون علامة الصليب و يختتنون ، ويتمسكون بكثير من الهرطقات الأخرى . وهم كثيرون فى القاهرة ، وكنائسهم ليست قليلة . ولهم بطريركهم الخاص . وهم وبطريركهم يعدون أنفسهم أرثوذكس ، ويقومون بالدعاية أن بطريركهم جدير بكرسى الإسكندرية . ولا يعدون البطريرك اليونانى ، وكل من معه أرثوذكس » . وبالنسبة لجريجورفيتش - بارسكى وبوزنياكوف فالأقباط الذين انفصلوا عن الكنيسة اليونانية فى منتصف القرن الخامس كانوا مهرطقين ، ولكنهما وصفوهم وصفاً صادقاً فى المجمل .

• الاقتصاد :

لم يهتم أبناء وطننا بالنشاط الاقتصادى للمصريين بشكل خاص . ولكن أثناء طوافهم فى البلاد ، لم يستطيعوا إلا أن يلاحظوه ، ومن وقت لآخر وصفوه . وكان هذا يخص الزراعة بشكل رئيسى ، والتى لا تشبه إلى حد كبير الزراعة الروسية . قال فاسيلى جاجارا : «يزرعون فى مصر الحبوب المختلفة ، التى يبذرونها قبل أسبوعين من صيام فيليبوف "عيد الميلاد" . والحبوب وثمار أخرى تنضج بحلول عيد ميلاد المسيح وعيد الغطاس . وآخر محصول ينضج فى عيد المسلينيتسا (أسبوع المرافع أو السمن) . وينمو القمح ، والشعير، وجريش الدخن بصورة جيدة ، لأنه عندما يفيض نهر جيون (النيل) فى المروج والحقول تبقى المياه لمدة طويلة وتروى الأرض ، وتنمو الحبوب . والأرض هناك ذات تربة سوداء » .

أشار إيبوليت فيشينسكى إلى أن المطر « لا يسقط هناك أبداً ، والندى قليل . وما يزرع فى الحقل سواء كان الجودار أو البساتين يروى جميعه بمياه الترع. فقد تم شق ترع من النيل تتدفق فيها المياه ، ووضعت أعلاها سواقى تسحب الثيران بواسطتها المياه ، وتصبها فى القنوات ، ومنها تتفرق المياه إلى أماكن الزراعة ، وتروى كل شىء . وعندما تنخفض المياه تقوم الثيران بسحبها ، وما إن تبدأ المياه فى الزيادة ، فإن القنوات تمتلئ تلقائياً فى كل مكان . ولما ينخفض مستوى الماء فإنهم يزرعون فى هذه الأرض ما يشاءون . والأرض تطرح محصولاً وفيراً ، إذ يجمعون الثمار مرتين فى العام ، وهناك الكثير من أشجار النخيل ، وكأنهم يعيشون فى غابات البلح » .

لفت فاسيلى جاجارا الأنظار إلى المحصول الزراعى غير المعروف للشخص الروسى ، وهو قصب السكر . قال فاسيلى جاجارا : « فى مصر يزرع قصب السكر ، ومنه يصنعون السكر . ويزرعون قصب السكر بجذوره قرب البحر . ويبلغ ارتفاعه واحد بياد (شبر) . وتحته ينثرون فضلات الحمام ، ويرشون الجذور بالعسل الأسود . وإذا نمى قصب السكر وأخرج الثمر ، فإنهم يرشونه بمحلول سكرى "ماء محلى بالعسل" . وعندما ينضج قصب السكر ، فإنهم يأكلونه مثل شهد العسل » .

وكانت المفرخة فى مصر شيئاً غير مألوف لأبناء وطننا ، والتى بواسطتها ـ كما أشار ـ فاسيلى جاجارا « تولد الأفراخ بدون حاجه أو مساعدة من الأمهات » ، حكى فاسيلى جاجارا أنه « يوجد فى القرى المصرية بيوت طينية بداخلها أفران . وفى كل بيت يوجد اثنى عشر فرناً ، وعلى كل فرن صناديق يضعون فى كل منها حوالى 6000 بيضة ، ويرشون فى هذه الأفران روث الخيل المغربل المجروش ، ثم يوقدون الفرن وتظل النار فيه مشتعلة باستمرار، فمن الضرورى أن يكون دافئاً دائماً ، ولا ينقطع عنه الدخان أبداً . وعندئذ تولد الأفراخ فى المفرخة بدون أمهات ، إذ أنه فى اليوم الثانى عشر تقوم الأفراخ بأنفسها بالنقر والخروج من القشرة » .

وليس هناك ثقة فى أن جاجارا قد وصف هذه العملية بشكل متطابق ، خاصة وأن إيبوليت فيشينسكى قد أعطى وصفاً مغايراً بعض الشىء عن عمل المفرخة . ذكر إيبوليت أنه « يتم حفر حفرة ، وهى من الأعلى واسعة ومن الأسفل ضيقة ، وفيها يضعون البيض . وتحت تلك الحفرة يقيمون فرناً يضعون الروث فى داخله ، ومن الأعلى ينثرون عليه الروث ، وتوقد النار فى الداخل ، وتؤازرها حرارة الشمس من الخارج ، وهكذا تفقس الأفراخ . وفى اليوم الثالث ، يفتحون الفرن و يختارون البيض الذى ستفقس منه الأفراخ ، ومن جديد يكسونه بالروث ويدفئونه ويبقونه حتى اليوم التاسع . وتأخذ ربة المنزل ذلك البيض الذى يبدأ فى التصدع كما لو أنه على النار ، وتكسر القشرة عنه مساعدة بذلك الأفراخ على الخروج من البيض » . وأضاف إيبوليت فيشينسكى أن « مثل هذه الأفران التى تنتج فيها الأفراخ كثيرة جداً عند العرب ، وتجارة الأفراخ هى أيضاً حرفتهم » .

وقد ذكر كثير من رحالتنا فى مذكراتهم أن التجارة فى مصر رائجة . عن ذلك كتب فاسيلى جريجورفيتش : « يوجد فى القاهرة ميدان فسيح جداً ، أو بازار ، أو سوق يتجمع فيه كل يوم عدد غفير من الناس لا يحصى . وهنا الحوانيت التجارية متلاصقة جداً . والحقيقة أن المدينة كلها مليئة بالأسواق : ففى الأسفل فى كل الشوارع توجد حوانيت تجارية ، وفى الأعلى غرف عالية بعضها فوق بعض < ... > والخبز والميرون والجبن والزيتون والقهوة ، وكل المنتجات الغذائية تباع بسعر زهيد . أما الخمر والخمر المصنوع فى المنزل سعرهما غالٍ ، لأنه لا يتم إنتاجهما هناك ، وإنما يؤتى بهما عن طريق البحر المتوسط » .

وبدوره ذكر كيربرونيكوف أن « التجارة فيها "فى القاهرة" رائجة ، والممرات التجارية رائجة جداً (حتى أنك إذا كنت لا تعرفها ، تكون عرضة للتوهان) < ... > والأسواق توجد بشكل كافٍ فى كل أرجاء المدينة . ومن كثرة الناس تستطيع المرور بالكاد . وفى السوق الكبير أقصى درجات الزحام ، وهذا الزحام ينشأ من ضيق الشوارع . والخبز يباع بسعر مناسب ، وتباع اللحوم والأسماك والأرز بسعر رخيص ، والفول ، والعدس ، والبلح والخضروات توجد بكثرة ... « . وأما أرسينى سوخانوف فقد ذكر أن « أغلى شىء فى القاهرة هو الحطب ، وكل أنواع الأخشاب » .

وذكر بعض المؤلفين أن مصر أقامت تجارة رائجة مع الدول الأخرى . قال إيبوليت فيشينسكى فى وصفه للسويس : « وهناك على البحر الأحمر يوجد ميناء بحرى حيث ترسو سفنٌ من كل أرجاء المعمورة ، وإحدى السلع الواردة إلى هناك كانت القهوة » . وحيث أن القهوة لا تزرع فى روسيا ، فإن فيشينسكى قرر أن يحكى للقراء عنها . ومع ذلك ، فقد قال ذلك نقلاً عن آخرين حيث أن القهوة لا تزرع فى مصر أيضاً ، أشار الحاج الروسى: « يحكون أن شجرة البن بلحائها وورقها تشبه شجرة الكرز ، والثمار تنمو فى أجولة ، وتحت الشجر يبقون الأرض نظيفة . وعندما يزدهر المحصول ، فإن الفروع تنثنى مباشرة حتى الأرض و يجعلون لها دعامة ، وعندما تنضج الثمار يهزون الشجرة ، و يجففون الثمار المجموعة فى الشمس . وبعد ذلك يقشرون حبوب البن من المنتصف ، ويبيعون الحبوب النظيفة ، ويسحقون القشرة ويشربونها ، ويقومون بتبخير الحبوب النظيفة ، لكى لا تُخرج ثـماراً فى البلاد الأخرى » .

• القاهرة :

فى الرحلات المبكرة جداً وصفت مصر بإيجاز . ذكر فارسونوفى أن « مدينة مصر "القاهرة" مدينة كبيرة وقائمة فى أرض مستوية على سفح جبل ، و يجرى بجوارها نهر من الجنة ، هو نهر النيل ذو المجرى الذهبى ، والاسم الآخر للنهر هو جيون . ويبلغ عرض المدينة ميلين ، أما طولها فيبلغ اثنى عشر ميلاً » .

وإذا كانت معلومة فارسونوفى صحيحة تماماً ، فإن النصوص الثلاثة التالية زمنياً تتضمن أرقاماً خيالية تصف قياسات القاهرة ، يقول التاجر فاسيلى : « القاهرة مدينة كبيرة جداً ، ويوجد فيها 14 ألف شارع ، ولكل شارع بوابتان ، ومزغلان لضرب السهام، وحارسان يشعلان الزيت فى الشمعدان . وفى بعض الشوارع يوجد 15 ألف منزل ، وفى شوارع أخرى حتى 18 ألف فناء » . ويقول م . ج . مصيور ـ مونيخين : « القاهرة مدينة عظيمة إذ يوجد فيها 14 ألف مسجد . وكل مسجد يحتوى على 100 عمود حجرى ، ويصعد على العمود حتى مائة شخص ، وخمسون شخص يؤذنون (للصلاة) . ويوجد فى القاهرة أيضاً 14 ألف خان ، وكل خان يسع حتى 300 تاجر . وفى القاهرة يوجد 14 ألف شارع ، وفى كل شارع 14 فناء » . ويقول الأب جريجورى : « فى مصر "القاهرة" يوجد 14 ألف شارع ، وفى كل شارع 14 ألف فناء حجرى » .

جدير بالذكر أنه فى النصوص الثلاثة ورد الرقم « 14 ألف » الذى يختص بعدد الشوارع، والأفنية ، والمساجد ، والخانات . من المحتمل أن هذا الرقم كان يستخدم كمرادف لشىء كبير لا يقاس .

والرحلات المتأخرة عن ذلك تتضمن بالفعل معلومات أكثر إسهاباً وأكثر صدقاً عن القاهرة .

ذكر فاسيلى جاجارا : « عندما تقترب من القاهرة يظهر أمامك ما يشبه الغابة المعتمة ، تلك هى أبراج الأجراس للمسلمين (منارات) مساجدهم » . وقال لاحقاً : « وذاك النهر ، النيل ، يقع على مسافة ثلاثة أميال من القاهرة . و يجلب العرب الماء للمدينة ويبيعونه فى القاهرة. يجلبون الماء على الجمال والبغال فى قرب جلدية ، ويبيعونه بالرحال والأباريق » .

ويؤكد أرسينى سوخانوف أن « القاهرة مكان كبير ومزدحم بالسكان مثل القسطنطينية ، غير أنه من الصعب أن ندرك أيهما أكبر ، فكلتاهما كبيرتان ومزدحمتان بالسكان وغنيتان . وفى القاهرة المبانى مبنية من الحجر . وتقع المدينة ذاتها بالقرب من النهر على مسافة فرسخ واحد من النيل ، أما الضواحى والقرى فتقع على ضفة نهر النيل ذاتها . وخصيصاً من أجل الفيضان عندما يخرج النهر عن ضفافه تم بناء أخدود حجرى كبير كما لو أن نهراً كبيراً يتدفق . وعلى ضفة ذاك النهر ـ على الجدار الحجرى ـ وضعت علامات ينظرون إليها لمعرفة مدى ارتفاع وانخفاض منسوب المياه ، و يحددون هل

ستكون الغلال رخيصة أم غالية فى ذلك العام » . إن مقياس النيل الذى وصفه سوخانوف يوجد فى الحافة الجنوبية لجزيرة الروضة حتى الآن .

وحكى بالتفصيل عن عاصمة القاهرة المؤلف المجهول لمخطوطة « وصف الإمبراطورية التركية » : « تسرى شائعة مصدرها الناس أنه يبلغ عدد كل الخانات والبيوت فى القاهرة 25 ألفاً . < ... > وحول كل الضاحية لمدينة القاهرة على امتداد كل الأسوار توجد بوابات للدخول ، وأبواب كبيرة وصغيرة يقدر عددها بثمانية وعشرين . وفى الداخل فى أقصى ضاحية المدينة من الجانب الغربى على امتداد ذلك النهر المصرى ، ما إن تدخل المدينة عبر البوابات الكبيرة لبولاق - التى تطل على الشرق ، يبدو ولأول وهلة أن أكثر من نصف ضاحية المدينة تشغلها المزارع والحقول . والنصف الآخر الأقل لضاحية تلك المدينة بجانب السور الشرقى يتكون من البيوت السكنية ، ومن الجهة الشمالية لسور المدينة حتى السور الجنوبى ، توجد بيوت سكنية تتشابك كسلسلة على شكل شريط واسع وطويل . وعلى هذا النحو تكون كل المبانى السكنية . والأفنية مع البيوت متشابكة بإحكام، حيث أنها تشكل كتلة كبيرة . والشوارع ضيقة فى كل الأحياء السكنية. بالإضافة إلى ذلك فتلك الشوارع يربطها عدد كبير من الحارات شديدة الظلمة ، أو الممتدة بين البيوت . والأحياء السكينة مزدحمة جداً بالسكان » .

وأشار فاسيلى جريجورفيتش أن « القاهرة تتكون من أربعة أحياء مختلفة ؛ الاسم الأول هو مصر حيث يعيش كل الناس وتوجد الأسواق < ... > والاسم الثانى هو القلعة أو القصر الذى يوجد منعزلاً فى مكان عال يسمى كالى (القلعة) < ... > ومصر القديمة " القاهرة القديمة" هو الاسم الثالث لمصر < ... > والمكان الرابع يسمى ؛ بولاق ؛ الذى يقع منعزلاً غير بعيد عن المدينة على حافة الشاطئ النهرى » .

وأشرك جريجورفيتش - بارسكى القراء بالعديد من الملاحظات الطريفة عن حياة القاهريين . قال جريجورفيتش - بارسكى : « يوجد فى أعلى كل البيوت المصرية أعمدة كأعمدة المداخن تهب فيها الريح ، وتنفذ إلى جميع غرف المبنى حتى إلى القاع ، وتعطى القاطنين فيه برودة معتدلة . وفى القاهرة يكون هذا ضرورياً ، لأنه وبسبب ضيق الشوارع وعلو المبانى ، فإن الهواء لا يمكنه أن يسرى داخل البيوت ، وكان من غير الممكن أن يعيش فيها الناس بسبب حرارة الشمس » . ومثل تلك الهوايات الفريدة تم استخدامها على شواطئ الخليج الفارسى حتى منتصف القرن العشرين ، غير أنه ربُط فى الأعمدة قماش مثل الشاش ، والذى من جراء اهتزازه يتهوى البيت . من المحتمل أن هذه التقنية استخدمها المصريون أيضاً ، غير أن المؤلف لم يذكر شىء عن القماش .

وهذه ملاحظة أخرى . فقد ذكر جريجورفيتش - بارسكى أنه « يباع الماء فى مصر على الرغم من مجاورة النهر . فالذين يعيشون فى البيوت الواقعة على ضفاف النهر يجلبون الماء بأنفسهم ، أما الذين يعيشون بعيداً فلا يستطيعون الذهاب كل يوم إلى النهر . ولذلك يوجد أناس متخصصون هم بائعو الماء (السقاة) الذين يغترفون الماء من النهر بواسطة قرب

جلدية ، ويضعونها على الجمال ، ويجلبونها إلى المدينة ويبيعونها . ولا يوجد مصدر آخر للشرب لأن هذه البلد مالحة . وعلى الرغم من وجود آبار فى كل فناء ، فالماء الذى فيها مالح تغسل به الآنية فقط . وفى القاهرة توجد قناة شقت من النيل يصل ماؤها إلى المدينة أثناء الفيضان ، وحينئذ يباع الماء بسعر زهيد . وتوجد خزانات فى الكثير من أفنية بيوت السادة، أى حفر صنعت على مثال الآبار . ويملؤنها بالماء الذى يشترونه ويشربون منها طوال العام » .

والقلعة دائماً ما كانت تلفت انتباه الرحالة الروس القادمين إلى القاهرة ، والتى تقع فى جانب ليس ببعيد عن المدينة الرئيسية فى ذيل جبل المقطم . قال فاسيلى جاجارا أنه « يوجد فى القاهرة قلعة وحيدة على جبل عال حيث يعيش الباشا التركى » . ووصف المؤلف المجهول لمخطوطة « وصف الإمبراطورية التركية » القلعة بدقة عسكرية . قال المؤلف المجهول : « وفى الزاوية الجنوبية ، أمام تلك الضاحية على الجبل الشرقى ، توجد أيضاً القلعة الصغيرة الثانية . وهى منفصلة عن تلك الضاحية للمدينة العظيمة . تعتبر القلعة الخاصة بهذه المدينة الصغيرة صلبة وحصينة بأسوارها وناسها ومدافعها . وفيها كثير من المدافع الكبيرة والصغيرة . ويعيش فيها الباشا المصرى مع خدمه وحشمه ، ويدافع عن مصر (القاهرة) بأكملها . وفى حالة الهجوم أثناء الحرب يستطيع أن يدفع العدو عن الجدار الشرقى لضاحية المدينة الكبيرة من ناحية الجبل من تلك المدينة الصغيرة ، ويستطيع أيضاً أن يدافع عن السور الجنوبى لضاحية المدينة من المدينة الصغيرة حتى نهر النيل » .

وقد وصف مواطنونا المبانى داخل القلعة ذاكرين كقاعدة عامة أنه قد عاش هناك يوسف الجميل (النبى يوسف بن يعقوب) . وجذب انتباههم بطريقة خاصة المبنى ذو الهندسة المائية المعقدة ، والذى من خلاله كانت القلعة تتزود بالماء والمسمى « بئر يوسف». أشار آندرى إيجناتيف إلى أنه « عندما عدنا من هناك ؛ من القاهرة القديمة ؛ ذهبنا إلى برج حيث يوجد ثيران ترفع الماء الوارد من النيل : وعندما يرفعون الماء من البئر الأول السفلى ، والذى يبلغ عمقه 40 ساجين ، ينساب الماء عبر ميزاب إلى البئر الآخر العلوى ، ومنه يرفعون الماء أيضاً لمسافة 8 ساجين إلى الميزاب العلوى » ، وقد أكد أنه فى السابق كان يوجد فى قاع البئر الزنزانة التى عاش فيها النبى يوسف .

وعن هذا كتب أيضاً إيبوليت فيشينسكى . فقد ذكر « وفى القصر توجهنا إلى زنزانة يوسف الجميل ، والتى يهبطون إليها عبر 200 سلمة . وهناك يوجد ستة أزواج من الثيران تقوم برفع الماء إلى الجبل ، ومن هناك إلى حيث كان يوسف محبوساً فى زنزانته يلزم الهبوط 200 سلمة أخرى . ويصل الماء إلى البئر بواسطة قنوات متصلة بالنيل . وإلى القاع حيث كان يوسف محبوساً يتوجب الهبوط 400 سلمة ».

وبإسهاب وصف فاسيلى جريجورفيتش - بارسكى « بئر يوسف » ، وأرفق وصفه بصورة. « وفى داخل كالى "القلعة" يتواجد بئر يوسف . لقد زرته وفحصته ، وتصويره بدقة ووصفه كما هو فى الحقيقة كان من الصعوبة بمكان ، لأنه لم يتسنَ لى أن أرى مثل هذا الشىء فى أى مكان آخر . وهذا البئر بنى بعقل أريب ونصيحة حكيمة، لأنه عند حفره كان

ينبغى إعمال الدهاء ، حيث أنه يقع بأكمله تحت الأرض ، ولا يرى منه أى شىء . ولكن للعقل الأريب أصف وأرسم هكذا : ليس للبئر مدخل يؤدى إلى داخل المبنى ، لأنه قد حفر فى الأرض الطبيعية أو فى الحجر اللين . والبئر ذو أربعة أضلاع ، وهى متساوية فى العرض والطول ، ويبلغ قياس كل منها أربعة ساجين ، وهو عميق بدون قياس . وحول هذا البئر حفر طريق مثل الشارع أو المغارة . وفى السابق كان الطريق يصل إلى القاع ، لكن الآن حتى المنتصف فقط ، وفى حوائط البئر نحتت نوافذ للإضاءة ، ولكنها فى العمق توصل ضوءاً أقل ، ويجب أن تهبط بشعلة نار كما فعلت أنا . والعمال هناك يجلبون للأسفل ثيران ويربطونها فى ساقية مصنوعة بطريقة ذكية ، وبواسطتها يرفعون الماء من قاع البئر حتى منتصفه حيث يصب فى حوض ، ومنه يُرفع إلى قمة البئر بواسطة ثيران أخرى مربوطة أيضاً فى ساقية . ويسحبون الماء لخارج البئر عن طريق قواديس معلقة بالحبال ، وغير ذلك لا يمكن الحصول على الماء من مرة واحدة بسبب العمق الكبير ، إذ أنه من الثيران العليا إلى الثيران الثانية ينبغى الهبوط 200 سلمة كما عددتها بنفسى ، ومن هناك بالكاد يُرى الماء . ويقول العاملون هناك أنه للهبوط إلى القاع يبقى أكثر من نصف الطريق . والماء فى البئر ليس عذباً ، ولكنه ليس بشديد الملوحة ، ولذلك فى حالة الضرورة يمكن شربه من غير ضرر » .

تعجب كيربرونيكوف أيضاً من « بئر يوسف » ، فقد أكد أن « عمقه غير عادى ، وله أربعة أضلاع ، وهو منحوت فى الأرض الطبيعية الحجرية ، وفى كل حائط أربعة أرشينات "الأرشين مقياس روسى قديم يساوى 71 سم" المترجم . وبجواره خلف الحوائط شق ممر فسيح للثيران والماشية الأخرى ، وعبر هذا الممر دخلنا إلى منتصف البئر . وينفذ الضوء فى هذا المكان عبر النوافذ المنحوت عدد منها فى كل حائط من حوائط البئر ، ولكن الضوء فى تلك النوافذ ينزل من أعلى ، وخلف البئر يمر الضوء عبر تلك النوافذ ، وإن كان قليلاً . ويُستخرج الماء من قاع البئر عن طريق ثيران مربوطة فى ساقية ، والتى ربطت عليها كثير من القواديس الفخارية التى تشكل ما يماثل الحلقة ، والتى عندما تغطس تسحب الماء ، ثم يفرغ الماء فى منتصف البئر فى أحواض مصنوعة لذلك الغرض . ومن الأحواض بالضبط بنفس الصورة كما يحدث فى البئر يغترفون الماء ، ويسحبونه للأعلى ، ويقلب فى جرار عميقة كالآبار التى توجد عندنا فى روسيا ، حيث يعلق دلوان أحدهما ينزل للأسفل والآخر يصعد للأعلى » .

- الإسكندرية :

زار بعض مواطنينا الإسكندرية . وكان أول من وصفها أرسينى سوخانوف ، وأشار إلى أن « الإسكندرية مدينة ذات مبان مدهشة . ولا توجد أى مدينة تشبهها فى زينتها . الآن أصبحت هذه المدينة خاوية على عروشها ، وكان يعيش فيها عدد قليل من الناس عند دخولنا إليها . والمدينة فارغة من الداخل ، فقد انهارت جميع المنازل . وهنا يوجد بيت والد الشهيدة العظيمة كاترينا . البيوت الكبيرة مثل الجبال ، والمبنية من الطوب الأحمر انهارت جميعها ، ولكن مازالت بعض القباب قائمة < ... > وفى الإسكندرية يوجد عدد لا يحصى من الأعمدة الحجرية المرمرية العالية والمتوسطة والصغيرة ، والتى صنع كل واحد منها من حجر واحد ، فضلاً عن الأعمدة المستديرة . وتندفع مياه البحر الأبيض المتوسط حتى سور المدينة نفسه ، حيث توجد بوابات كبيرة تؤدى إلى البحر < ... > لا يوجد نهر فى مدينة الإسكندرية ، غير أنه فى وقت الفيضان تتدفق المياه فى روافد من النيل إلى الإسكندرية ، ومن هذه الروافد تصل المياه للمدينة عن طريق أنبوب يملئ جميع الآبار المبنية فى الأرض ، ويعيش سكان المدينة على هذه المياه مدة عام كامل < ... > وعلى مسافة فرسخ واحد فى شمال الإسكندرية توجد على قمة حجرية - فى البحر - قلعة غير كبيرة مليئة بالقصور . وفيها يعيش والى الإسكندرية . والبحر بالجوار - كأنك على جزيرة - ومن البحر يمتد إلى الشاطئ جسر حجرى ، وفى مقابل الجسر على الشاطئ توجد المدينة . وعلى امتداد الطريق من هذه القلعة حتى مدينة الإسكندرية القديمة توجد جميع الساحات والقصور . والأسواق هنا مختلفة ، ونادراً ما تكون متقابلة لأن المكان هنا منبسط وفسيح . ومرسى السفن هنا أكبر وأفضل ، وتأتى إلى هنا الجاليونات الكبيرة (السفن الحربية والتجارية الكبرى) ، والسفن القادمة إلى مصر من مختلف الأقطار . كلها تقف هنا ولا تذهب للأسفل مع تيار النهر ، حيث أن المياه ضحلة هناك » .

حكى المؤلف المجهول لمخطوطة « وصف الإمبراطورية التركية » عن الإسكندرية بإيجاز وبطريقة عسكرية ، فقد ذكر : « تلك الإسكندرية السابقة تهدمت كلها وأصبحت خاوية . وفى مكان جديد أنشئت مدينة وسميت الإسكندرية ، ليس بها أية قلعة ، وتقع بالقرب من البحر فى مكان منبسط بجوار تلك المدينة الخالية القديمة من الناحية الغربية . وهى تشبه القرية من ناحية الشكل ، والمساكن قليلة جداً . وعلى شاطئ البحر ، عند انعطاف الخليج بالقرب من ميناء السفن على القمة الحجرية ، أقيم برج حجرى كبير فى مكان منبسط نصب فيه من القمة إلى القاعدة الكثير من المدافع الكبيرة والصغيرة مصوبة باتجاه الضواحى . وهذا البرج كبير مثل القلعة ، ويحمى الإسكندرية من جهة البحر » .

زار مكارى وسيليفيورست الإسكندرية مرتين - المرة الأولى كانت فى طريقهما للأرض المقدسة ، وبعد ذلك فى أثناء عودتهما إلى الوطن . وقد أوضحا أن « الإسكندرية

كانت مدينة كبيرة وجميلة أسسها الملك الإسكندر المقدونى . ولم يبقَ من تلك المدينة حالياً إلا القليل ، توجد فقط بعض الأجزاء قائمة ، والمدينة كلها خاوية ومهدمة القصور . وللمدينة سورين شاهقى الارتفاع مبنيين من الحجر ، وبينهما يوجد ممر يمكن لعربتين متقابلتين أن تسيرا خلاله . وعلى شاطئ البحر ، حيث ميناء السفن ، لم يبقَ غير عدد قليل من الناس . وغير بعيد عن الميناء توجد قلعة . وفى القلعة والمدينة يعيش العرب وحدهم » .

رجح كل من مكارى وسيليفيورست أن « الإسكندرية كانت أجمل بكثير من القسطنطينية » . وبعد أن ذكرا أنه يعيش فقط فى المدينة البوسورمانيون (المسلمون) وهم (العرب والأتراك) وكثير من اليهود فقد أشركا القراء معهما فى الملاحظة التالية : « جميع البيوت مبنية من الحجر ومن الطوب ، ولا توجد أقبية حجرية ، وفى الممرات لا توجد بوابات أو مزاليج ، ولا يوجد قضبان حديدية على نوافذ البيوت . وبدلاً من الأقبية الحجرية يضعون عوارض رباعية الجوانب ، وعليها يضعون ألواح خشبية . وبعد ذلك ، يخلطون التراب مع الجير مع الرماد ، ويدهنون من الأعلى ، وهذا هو السقف عندهم . والأرض فى جميع أنحاء الإسكندرية رملية . والنوافذ أحجامها كبيرة ، وذات مشربيات خشبية ، وتغلق من الداخل » .

خصص فاسيلى جريجورفيتش ـ بارسكى فى رحلته فصلاً كاملاً عن الإسكندرية. وبعد أن ذُكر بأن « الإسكندرية كانت فيما مضى مدينة عظيمة وقوية وشهيرة ، حيث حكم هناك الملوك القدامى » ، أكد هو والرحالة السابقون أن « المدينة الآن خاوية ومهدمة لدرجة أنه بالكاد يمكنك تخمين أنه كان يوجد هنا فيما قبل مدينة ، فهى أشبه بالقرية أو الضاحية ، لأن كل أسوارها سقطت وتهدمت ، ولا يزمع أحد أن يبنى أسواراً جديدة ، غير أن بقايا الأسوار مازالت قائمة ، وفى كثير من الأماكن يوجد مزاغل لضرب السهام ، وبوابتان تغلقان بالليل ، وهما البوابتان الجنوبية والشرقية اللتان تقعا من جهة اليابسة ، وأما البوابات التى من جهة البحر فقد سقطت . وفى داخل المدينة القديمة مبانٍ قليلة ، ولكن يوجد خارج حدودها على شاطئ البحر كثير من الساحات الجديدة والقصور والبيوت بديعة الصنع من الحجر الأبيض ، ويوجد هناك أيضاً سوق كبير فيه الكثير من الممرات التجارية حيث تباع سلع عديدة . ويعيش هناك صفوة المجتمع » .

أشرك جريجورفيتش ـ بارسكى القراء فى هذه الملاحظة الطريفة إذ ذكر أنه « بالقرب من دير القديس سابا يوجد تل غير طبيعى المنشأ ، وقد نشأ هذا التل من الردم الكثير عبر سنوات عديدة فكل يوم يحفر العرب الأرض وينخلونها ، و يجدون ذهباً قليلاً وأحياناً فضة وصدف أو أحجاراً كريمة ، بالإضافة إلى أختام قديمة وأشياء أخرى » . وهكذا كان معاصرو الحجاج الروس يملئون ميزانيتهم على حساب الإغريق والرومان ، الأمر الذى تحسر له الأثريون فيما بعد لأكثر من مرة .

أشار أيضاً أرسينى سوخانوف عن أن الإسكندرية تتزود بالماء الذى يملئ الخزانات العديدة تحت الأرض أثناء فيضان النيل .

اعتبر كل من مكارى وسيليفيورست هذه الخزانات مدينة كاملة تحت الأرض . وكتب أيضاً فاسيلى جريجورفيتش ـ بارسكى عن « المدينة الثانية تحت الأرض » ولكنه حكى بوضوح عن الغرض منها : « إن الآبار الكثيرة مثل المعابد ذات الأعمدة والفجوات ، والتى تمتلئ من النيل كل صيف ، ويأخذون منها الماء للشرب ورى الحدائق وللاحتياجات الإنسانية الأخرى . وأعلى مدينة رشيد من القرية التى تسمى فيفا (ربما يقصد مدينة فوه ـ المترجم) يتفرع جزء من النيل ، و يجرى بعيداً عبر الأراضى و يجتاز الإسكندرية من الجانب الجنوبى ، ويصب فى البحر . وهذا الجزء من النيل غير طبيعى المنشأ . و يحكى الناس أن الملك الإسكندر المقدونى شق هذه القناة ، وبطنها بالأحجار ، وأوصل المياه إلى هنا ، لأن الماء الآخر كان مالحاً » .

وذكر جريجورفيتش ـ بارسكى أيضاً أن الإسكندرية : « تستقبل سفناً كثيرة ومتنوعة . وفيها ميناءين كبيرين ؛ أحدهما فى الجهة الشرقية (أصغر من الآخر) ، ومخصص للفرنسيين ، والإنجليز والفلاميين ، وأهل البندقية ، والميناء الثانى كبير ويقع فى الجهة الغربية ، حيث توجد فقط السفن التركية واليونانية ، وهو هادئ وصامت . وبينها ـ وعلى أرض لسان دقيق وممتد داخل إلى البحر ـ توجد قلعة ذات بناء جميل ومتين ، وهى مبنية من حجر صلد ، ومسلح بالمدافع للدفاع عنه ضد القراصنة والأعداء الآخرين الذين يمكن أن يهاجموه . ويوجد فى القلعة عمود واحد عالٍ ذو مصباح أو فانوس ، والذى يضاء كل ليلة ليرشد السفن القادمة (أو التى انحرفت عن المسار) إلى الطريق الصحيح» . ولم يقل أى من مواطنينا فى مذكراته شيئاً عن وجود الفنار فى قلعة قايتباى قبل ذلك .

وقد خصص الأرشمندريت قنسطنطين للإسكندرية كتاباً كاملاً ليس بالكبير. وقد فحص هذه المدينة بعمق فى بحثه عن بقايا العظمة الماضية . والكتاب يتضمن العديد من المعلومات الواقعية . وقال الأرشمندريت قنسطنطين مثل فاسيلى جريجورفيتش الذى كان هناك قبله بوقت قليل أنه يوجد ميناءين فى الإسكندرية ، وهما القديم "الغربى" ، والحديث " الشرقى" . والأخير يستخدمه الأوروبيون . وكان وصف السد الذى يربط الشاطئ بجزيرة فاروس من قبل المؤلف طريفاً : « يمتد حوالى الفرسخ ، وجزء منه مبنى بالطوب ، والجزء الآخر بالحجر المنحوت ، وتحت الأقبية القوطية ينساب البحر » . وعن تلك الأقبية القوطية السالفة للجسر لا يوجد شىء بالفعل ، إذ أنه تحول إلى جزء من اليابسة . ووصف المؤلف حالة القناة ذات الماء العذب التى شقت من النيل ، وكانت تزود الإسكندرية بالماء أثناء الفيضان : « وإذ لم يكن يوجد بطانة حجرية من الجهتين ، فإنها أصبحت مثل الأخدود غير النظيف تمرر الماء من خلالها فى ضعف إلى خزان الماء » .

والأرشمندريت قنسطنطين هو أول من كتب عن وجود مدينة الموتى اليونانية فى الإسكندرية . بعد أن تعرف مؤلف كتاب « الإسكندرية القديمة » على أطلال المدينة، حاول أن يتخيل كيف بنيت هذه المدينة فى زمن ما ، ومن أين حصلوا على الخامات . وقد خصص فصلاً غير كبير عن الإسكندرية المعاصرة له . فقد كتب : « الإسكندرية الجديدة ليست أكثر من يتيم حقيقى فقير ورث عن أبيه اسمه العظيم فقط . فحدودها التى كانت فى وقت ما فسيحة ، انحصرت فقط فى برزخ غير كبير بين الميناءين ، وبدلاً من المعابد العظيمة توجد مساجد بسيطة ، وفى مكان المبانى الحقيقية والمزخرفة والشامخة توجد مسوخ من العمارة . وتحولت نجاحات التجارة الرائعة وغنى أهلها إلى أقصى درجات الفقر ... »

- المدن الأخرى :

وصل معظم الرحالة الروس إلى مصر عن طريق البحر ، ونزلوا أولاً فى واحد من الميناءين عند مصب نهر النيل ، وهما رشيد ودمياط . وعن هاتين المدينتين تركوا كتابات مختصرة .

ذكر الشماس إيونا أن مدينة رشيد تقع على بعد 15 فرسخاً من البحر : « هنا يوجد الكثير من النخيل ، وجريش الدخن " الأرز "، وقصب السكر والثمار الحلوة . ولقد مكثت فى هذه المدينة 12 يوماً . وتبلغ المسافة من هنا إلى الإسكندرية العظيمة 30 فرسخاً . وفى هذه المدينة (رشيد) يجمع عجائز بطريركية أورشليم الصدقة من السفن من أجل قبر الرب بكنيسة القيامة ، ويشترون المؤن مثل السكر ، والشمع ، والسمك ، ويرسلونها إلى أورشليم » .

قال الكاتب المجهول لمخطوطة « وصف الإمبراطورية التركية » عن هذه المدينة الآتى: « تقع مدينة رشيد على الضفة الغربية أو اليسرى لذلك النهر المصرى ، وتعد رشيد قرية كبيرة ، ولا توجد بها أية قلعة ، وتبلغ المسافة من البحر إلى رشيد ثلاث ساعات سفر ، وجميع سكان رشيد عرب . وتبلغ المسافة من رشيد إلى الإسكندرية ساعة سفر عبر البحر » .

وصف رشيد بطريقة أخرى تماماً إيوان لوكيانوف : « مدينة رشيد جميلة جداً ، والميناء كبير . وتبلغ المسافة من مصب النهر إلى رشيد حوالى 10 فراسخ . والمبانى فيها أحسن من مبانى القسطنطينية < ... > وفى رشيد على امتداد النيل توجد حدائق و نخل كثير ، والبلح ليس غالى الثمن : واحد رطل من البلح يساوى كوبيكا واحداً » . ونقلاً عن المؤلف ففى رشيد يوجد مقران لبطريركى الإسكندرية وأورشليم .

وأكثر وصف تفصيلى لرشيد كتبه جريجورفيتش ـ بارسكى . قال الحاج الروسى أن « رشيد ليست قلعة محاطة بسور ، ولكنها مكان صغير حيث يوجد فيها كثير من الناس، ومبانيها كالمبانى التى فى المدينة . وتقع على نهر النيل على مسافة اثنى عشر ميلاً من شاطئ البحر فى مكان منبسط فى منتهى الروعة . ويوجد بها كثير من أشجار الحدائق ، مثل التين وأشجار الخوخ والليمون ، والأغلب الأعم أشجار النخيل ، وهى كثيرة لا تحصى ، فهى كالغابة خضراء صيفاً وشتاءً ، لأن هذه الأشجار لا تلقى أوراقها أبداً ، ومنها يصنع الأثيوبيون "العرب" سلال وحبال وأقفاص أخرى للأغراض التجارية » .

وأعجبت مدينة رشيد جريجورفيتش ـ بارسكى . فقد ذكر أنه « البيوت فى رشيد عالية وجميلة جداً ، لأن فيها ـ كما فى القصور ـ كثير من النوافذ الصغيرة والكبيرة، والتى من خلالها ترى البيوت من الداخل كأنها شِباك ، وتهب فيها الريح من جميع الجهات. والمبانى هناك غير مبنية من الحجر ، ولكنها تبنى من الطوب المحروق فى الفرن لصعوبة

العثور على الأحجار هناك ، إذ لا يوجد هناك أية جبال ، والأرض مستوية ولينة فى كل مكان كما فى البلاد الروسية . ويعيش هناك أناس ذوى قوميات وديانات مختلفة ، مثل : اليونانيين ، والروم ، والأرمن ، والأقباط ، واليهود ، والأتراك والعرب . وتوجد هناك كنيستان مسيحيتان فقط ، إحداهما يونانية تتبع بطريرك الإسكندرية والدير الرومى "الكاثوليكى" بكنيسته ، وما تبقى مساجد تركية » .

وعن ميناء رشيد ذكر جريجورفيتش الآتى : « يوجد ميناء كبير وغنى حيث تأتى إليه من القاهرة عبر النيل جميع السلع التجارية ، ومن هنا يحملونها إلى البلاد الأخرى . وعبر اليابس ، وعبر الماء يأتى إلى هنا تجار من كل الأقطار ؛ من عموم الأناضول ، ومن البحر الأحمر والأبيض ، ومن البندقية ، ومن عموم إيطاليا . وهنا يشترون البن والأرز والكتان والبلح وأقمشة متنوعة وأشياء أخرى غالية الثمن واردة من الهند . والسفن الكبيرة لا تأتى إلى هنا ، حيث تأتى فقط السفن الصغيرة لضحالة المياه . ولهذا السبب تحمل السفن الصغيرة البضائع التجارية من هناك إلى الإسكندرية ، والتى تقع على الميناء البحرى ، ومن الإسكندرية تحملها سفن كبيرة إلى البلاد الأخرى » .

أفاد جريجورفيتش ـ بارسكى مواصلاً موضوع التجارة : « فى رشيد ثمن المخبوزات وكل أنواع الطعام ليس غالياً فيما عدا الخمر التى لا تُصنع هناك ، وإنما تجلب من الدول الأخرى من أجل المسيحيين واليهود . ولا يشرب الأتراك والأثيوبيون "العرب" الخمر طبقاً لتعاليم دينهم ، لكن يشربها البعض خفية ممن لا يلتزمون بتعاليم دينهم . ولا يوجد هناك آبار أو عيون للشرب ، والناس كلهم يجلبون الماء من النيل ويشربونه ، وإذا حفروا آباراً يجدون الماء مالحاً ، والذى يكون صالحاً فقط لغسل الأوانى » .

ونادراً ما تذكر مدينة دمياط فى نصوص الرحلات . وأفاد الكاتب المجهول لمخطوطة « وصف الإمبراطورية التركية » عن دمياط بإيجاز : « يستغرق الإبحار من القاهرة إلى المجرى السفلى للنهر المصرى عند مدينة دمياط ثلاثة أيام . وتقع مدينة دمياط على الضفة الشرقية لنهر النيل ، وتعد قرية كبيرة ، ولا يوجد بها قلعة . وجميع سكان مدينة دمياط عرب ، وتعداد سكانها قليل » . وكتب إيوان لوكيانوف عن دمياط بإيجاز « والميناء فى دمياط مكان جميل ، وهو أكبر بقليل من الميناء فى رشيد ، والمبانى كذلك » . أفاد أيضاً عن وجود « مقر لدير سيناء » فى دمياط . وأشار أيضاً كل من آندرى إيجناتيف وإيبوليت فيشينسكى عن مقر لدير سيناء فى هذه المدينة . والأخير وصف بإيجاز هذه المدينة : « تقع على ضفتى نهر النيل ، وبينهما يجرى النهر . والبيوت كبيرة (ثلاثة طوابق فى الارتفاع) . والحوائط مبنية بالطوب ، وليست من الحجر . ولا يوجد أى سور أو أسقف للبيوت، لأن المطر لا يسقط هناك أبداً ، والندى قليل » . وأفاد أيضاً فيشينسكى بأنه « يوجد فى دمياط كنيسة القديس الشهيد مار جرجس ، وتتبع قداسة البطريرك جيراسيم » .

وفى بعض النصوص يوجد ذكر موجز عن مدينة أبو قير على شاطئ البحر الأبيض المتوسط . أفاد الكاتب المجهول لمخطوطة « وصف الإمبراطورية التركية » أنه « فى نفس

هذا الطريق " المؤدى إلى رشيد" ، وعلى مسافة ثلاث ساعات سفر إلى الإسكندرية توجد مدينة صغيرة على شاطئ البحر . وهى تسمى باكر "أبو قير" . وهى قلعة جيدة مزودة بمدافع كثيرة . وكل السكان هناك عرب ... والسكان قليلون » .

ومن جراء الطقس غير المواتى اضطرت السفينة التى أبحر عليها كل من مكارى وسيليفيورست من الإسكندرية إلى رشيد أن تتوقف فى أبو قير . وقد أفادا : « قضينا ليلتنا بجانب تلك المدينة بالقرب من الميناء فى هذا اللسان البحرى . وهذا الخور أفضل من الخور السكندرى . وأولئك الذين ذهبوا إلى المدينة لشراء الحاجيات والطعام ، لم يجدوا شيئاً على الإطلاق ، لا الحاجيات ولا الطعام ولا الماء فالمدينة فقيرة جداً ، وقليلة السكان » .

وتقلبات الطقس جلبت إلى أبو قير أيضاً فاسيلى جريجورفيتش ، فقد ذكر أنه « مكان قبيح وفقير فى كل شىء لأنه يتواجد فى الرمال حيث لا ينبت أى شىء غير البلح بكميات هائلة ، و يجدل العرب من سعف نخيله بإتقان سلال جميلة ، ويبيعونها فى بلاد أخرى . ولا يتواجد هناك المسيحيون ، إذ يعيش هناك الأجاريانى فقط " المسلمون" » .

وأولئك الذين توجهوا من مواطنينا من القاهرة إلى دير سيناء ، وصلوا أولاً إلى السويس . أفاد إيبوليت فيشينسكى أن « مدينة سوفيز "السويس" تقع فى مفترق طرق على البحر. ويمتد خليج من البحر الأحمر حول مدينة سوفيز "السويس" ، ويرتفع مستوى الماء هناك من منتصف الليل حتى منتصف النهار ، وينخفض من منتصف النهار حتى منتصف الليل . وحين ينحسر الماء ، يترسب الملح فيقومون بجمعه . وقد تم إقامة الحواجز هناك فى البحر . وعند مدخل المدينة يوجد برج واحد فقط . وغير بعيد عن البرج يوجد سوق ، وكل شىء متوفر هناك . وفى هذه المدينة لا يحرثون ، ولا يزرعون ، وليس هناك حقول فى أى مكان، ولا يوجد ماء عذب . إذ تحفر فى العمق بمقدار الركبة فيظهر الماء ، ولكن الماء مالح ولا يمكن شربه . و يجلب الماء العذب من مكان آخر لأن مياه البحر مالحة ، ويباع بثمن غالٍ . وهناك على البحر يقع ميناء بحرى ، حيث ترسو سفنٌ من جميع أنحاء المعمورة » .

ولم يصف فاسيلى جريجورفيتش - بارسكى مدينة السويس نفسها ، ولكن حكى عن دورها فى تجارة ما وراء البحار . « ويعود التجار من الهند فى السفن عبر المحيط ، ويعبرون البحر الأحمر ، و يجلبون إلى سوفيز "السويس" البخور ، والمر ، والفلفل ، والقرفة ، والتوابل، وكذلك الأطباق الصينى الغالية وأشياء ثمينة أخرى . وكذلك يجلبون القهوة التى تزرع فى اليمن على البحر الأحمر . وبهذه الصورة ، تجلب كل السلع عبر البحر الأحمر ، ثم إلى سوفيز " السويس" ، ومن هناك عن طريق اليابسة إلى القاهرة . وبالمقابل يرسلون من القاهرة عبر البحر الأحمر الأرز ، والقمح ، والفول ، والعدس وكل السلع الغذائية ، والتى تكون هناك قليلة » .

- **الآثار المسيحية :**

وحيث أن جميع مواطنينا تقريباً الذين زارا مصر كانوا حجاجاً أو مبعوثين للشئون الكنسية ، فإنهم قد أولوا اهتماماً خاصاً للأماكن المرتبطة بإقامة العائلة المقدسة ، وبالأديرة والكنائس الأرثوذكسية . وتجدر الإشارة إلى أن الأرثوذكسية فى مصر بعد الفتح العربى كانت موجودة بطريقة متواضعة جداً ، فالغالبية العظمى من المصريين كانوا ينتمون إلى الكنيسة القبطية المحلية . وذكر أرسينى سوخانوف أنه « يوجد فى القاهرة 600 مواطن مسيحى من العرب واليونانيين» . وكل الدلائل تشير إلى أنه كان يعنى الأرثوذكس فقط ، فمن غير المحتمل أنه كان يوجد بين اليونانيين أقباط .

وزار كثير من مواطنينا المطرية التى تقع فى مكان غير بعيد عن القاهرة ، والذى حسب التقاليد القبطية أقامت فيه العائلة المقدسة . وكتب فارسونوفى أنه « على مسافة ميلين ونصف من القاهرة يوجد نبع للماء المقدس يسمى " البلسم " . وقد جاء إلى هنا ربنا يسوع المسيح من مدينة أورشليم مع أمه العذراء الطاهرة مريم ويوسف حارسهما . ويوجد فى الجهة الشمالية مكان مقدس ، حيث أقام فيه الرب مختبئاً من الملك هيرودس . وتوجد هناك أيضاً مزرعة للعنب مع كرمات مقدسة يتدفق منهن المرّ فى عيد " كوكولنيتسا " ، وعيد ميلاد " يوحنا المعمدان " , ويقطعون رأس كل كرمة ، و يحنون جميع الكرمات للأرض ويضعون أسفلها آنية ...» .

" يوجد هناك أيضاً حجر من الإردواز جلس عليه ربنا يسوع المسيح . هذا الحجر أصبح مزاراً مقدساً . وتم صنع تابوت خشبى حول هذا الحجر له باب من الناحية الشرقية تنبعث منه رائحة طيبة ، وأمام التابوت المقدس يوجد جرن المعمودية المشيد من الرخام ، حيث يغتسلون فى الماء المقدس ، ويصل الماء فيه حتى صدر الإنسان . وتوجد هناك أيضاً شجرة الجميز التى اختبئ فيها ربنا يسوع المسيح من جنود الملك هيرودس " .

وصف التاجر فاسيلى ذلك المكان بطريقة مغايرة بعض الشىء ، فلقد ذكر أنه " بجوار تلك القرية "المطرية" توجد شجيرة ، وهى شجيرة جميز غير مثمرة . وبحلول المساء فقد اختبأت أم الإله مع الطفل الأبدى ويوسف فى هذه الجميزة عندما هربوا من أورشليم إلى مصر. وشجرة الجميز هذه مازالت تنمو حتى هذا اليوم . وعندما أرادت أم الإله أن تشرب ماء فإنها أخذت الصبى ووضعته على الرمال ، وذهبت إلى قرية حيث قابلت هناك امرأة ، وقالت لها : " أعطنى شربة ماء " ، فأجابتها المرأة : " لا يوجد عندى ماء ، وأنا نفسى أريد أن أشرب و نحن نشرب الماء من نهر النيل " . وعادت أم الإله من حيث أتت ، ووجدت تحت قدمى الصبى ينبوعاً جارياً . وبعد أن روت ظمأها ، عثرت على حجر فوق الرمال ، وغسلت عليه الصبى وملابسه ، ثم أعادته إلى مكانه . وفى هذا المكان نمت أشجار صغيرة ، ومنها يستخلصون الزيت ، ومن يتناول هذا الزيت يشفى سواء كان مسيحياً أو من أصحاب الديانات الأخرى" .

كرر فاسيلى جاجارا (الذى زار المطرية أيضاً) قصة ظهور نبع الماء المقدس ملخصاً إياها على طريقته الخاصة . ولم يذكر شيئاً عن شجرة الجميز والحجر ، وبدلاً من ذلك توقف عند قصة شجرة المر ، ولكنه رفض تأكيد التاجر فاسيلى عن أن الشفاء من الزيت يحدث «لكل الناس من أصحاب الديانات الأخرى» . وذكر جاجارا : « وقد أبرأت هذه الشجرة والزيت كل المسيحيين من المشلولين ، ومرضى الجذام ، والعميان . وذات مرة جاءت امرأة من الكفرة الأتراك ودهنت عينيها ، فذبلت الشجرة فى نفس اللحظة ، وظلت جافة أعواماً عديدة . واشترى الألمان هذه الشجرة ودفعوا مقابلها ثمناً كبيراً ، ونقلوها إلى أرضهم » .

كتب فارسونوفى مثل أرسينى سوخانوف أنه يتواجد فى المطرية تابوت « فيه حجر صغير ذو أربعة أضلاع ، ويبلغ عرضه شبرين ، أما طوله فهو غير معروف لأنه موضوع بين الطوب. وهذا الحجر من المرمر الأبيض (وطبقاً لفارسونوفى فإنه حجر إردوازى ، أى أنه أسود)... ويقولون أنه على هذا الحجر المرمرى الأبيض جلس السيد المسيح « عندما غسلت أمه ملابسه » . ولم يذكر سوخانوف شيئاً عن شجرة الجميز .

جذبت القاهرة القديمة المسيحية ، والتى على أرضها ـ طبقاً للتقاليد القبطية ـ أقامت العائلة المقدسة ، انتباه مواطنينا . وقد ذكر فارسونوفى أنه « يوجد هناك أيضاً مكان مقدس آخر فى القاهرة نفسها ، بالقرب من ميسيور ؛ القاهرة ؛ القديمة ، حيث عاش ربنا يسوع المسيح ، وأمه المقدسة ، ويوسف حارسه » .

خصص فاسيلى بوزنياكوف للقاهرة القديمة الجزء الرئيسى فى وصفه لمصر . قال فاسيلى بوزنياكوف : « يوجد فى القاهرة القديمة كنيسة كبيرة للقديس الشهيد جيورجى (مار جرجس) ودير نسائى . وفى هذه الكنيسة على الجانب الأيسر من الحائط توجد أيقونة الشهيد مار جرجس ، وهى خلف مشربية نحاسية . وبجانب تلك الأيقونة تحدث معجزات كثيرة وشفاءات ، فهى لا تشفى المسيحيين فقط ، بل الأتراك والعرب واللاتينيين، وهى تشفى الجميع بدون انتقاء » .

وقد أوضح بجلاء أن هذه الكنيسة والدير أرثوذكسيين حيث أنه كتب لاحقاً «هناك توجد كنيسة أخرى هى كنيسة أم الإله المقدسة . ويوجد أيضاً فى القاهرة القديمة كنائس مسيحية للشهيدين القديسين سرجيوس وواخس ، وكنيسة رقاد أم الإله ، وكنيسة القديسة الشهيدة باربارا . والآن يسيطر المهرطقون الأقباط على كل الكنائس « . ولم يذكر المؤلف شيئاً عن مغارة العائلة المقدسة ، لكنه كتب التالى : «وفيها " القاهرة القديمة " كان هناك حصن مبنى من الحجر ، ولكنه تهدم ولم يبقَ منه إلا أبوابه . ومن هذه الأبواب دخلت أم الإله المقدسة مع المسيح ، ويوسف من أورشليم » .

وأخبر أيضاً كل من مكارى وسيليفيورست عن الكنيسة الأرثوذكسية للقديس جيورجى (مار جرجس) فى القاهرة القديمة : « يوجد فى الجانب الأيمن للكنيسة أيقونة نحاسية للقديس مار جرجس . وتحدث من هذه الأيقونة بشارات كثيرة وشفاءات ، ليس فقط للمسيحيين ، ولكن أيضاً للأتراك والعرب والشعوب الأخرى والمهرطقين ؛ الأقباط ؛ ،

والكل يذهبون بدون حظر . وتوجد كثير من الكنائس التى يسيطر عليها المهرطقين مثل كنيسة رقاد أم الإله المقدسة ، وكنيسة الشهيدين القديسين سرجيوس وواخس، وكنيسة الشهيدة القديسة باربارا » . وعن مغارة العائلة المقدسة لم يذكرا شيئاً ، حيث أنهما ذكرا فقط البوابات « التى دخلت منها أم الإله المقدسة مع المسيح ، ويوسف من أورشليم » .

كان فاسيلى جاجارا هو أول من وصف مغارة العائلة المقدسة فى القاهرة القديمة . ذكر المؤلف : « توجد تلك الحجرة فى المعبد أسفل المذبح ، وللنزول إليها يجب الهبوط عشرة سلالم، ولا يُنزل إلى هناك بدون شموع إذ أن الغرفة مظلمة . وأنا ـ العبد كثير الذنوب ـ ذهبت خصيصاً إلى مصر القديمة لأشاهد وأصلى حيث عاشت أم الإله مختبئة مع يسوع ويوسف من الملك هيرودس . وقد قدمت عن نفسى وعن ذلك الشخص الذى معى ثمان قطع من النقود ، واشتريت شمعة ، ودخلت إلى الحجرة حيث عاشت هناك أم الإله مع يسوع » .

« كل شىء جميل فى هذه الحجرة فيما عدا أنها مظلمة . وعلى مدار تلك السنوات السبع كانت النار توقد ليلاً ونهاراً بلا توقف ، أى أن زيت الزيتون الخام كان يحترق طوال الوقت، والذى بسببه تسخمت الحوائط والسقف . وقد خصص لأم الإله مكاناً مسوراً ، وكان السور عبارة عن مشربية خشبية هناك ، حيث أقامت أم الإله . وللأساقفة الوافدين للصلاة ، أقيم فى الحائط مكان يمكن لشخص الجلوس فيه . وكانت الغرفة مفروشة بالحصير المصنوع من ألياف القصب ، ومن فوقه وضعت السجاجيد . أما ما يخص اللوح الخشبى الذى تعلم عليه ربنا يسوع المسيح القراءة والكتابة ، فقد دفع الألمان الكثير من الأموال لعدة سنوات ، غير أن الأقباط رفضوا أن يبيعونه لهم ، فقام الألمان بسرقة هذا اللوح وأخذوه معهم » .

وقد وصف آندرى إيجناتيف مغارة العائلة المقدسة وصفاً مغايراً بعض الشىء ، فقد وصفها بالكهف : « يوجد فى كل جانب من جوانب هذا الكهف أربعة أعمدة مرمرية، وورائهم من الناحية اليسرى ، بجانب عمودين ، توجد عوارض صغيرة من شجرة ما بدلاً من الدعامات ، ويقطع منها المسيحيون شرائح ولكن بصعوبة كبيرة . لون تلك الشجرة مثل لون البن ، أما عندنا فلونها شبيه بلون القرنفل . ومهما قطعوا منها ، فإنها لا تنقص . ويقولون كما لو أن هذه الشجرة من فلك نوح » .

كذلك سمى إيبوليت فيشينسكى المغارة كهفاً مشيراً إلى أن الكهف يوجد تحت المذبح على عمق عشرة سلالم ، وأنه أنشئ على مثال الكنيسة . وأكد الكاتب أن «ارتفاعه يبلغ ثلاثة ساجين ، وعرضه أيضاً بنفس المقدار ، وفى كل جانب يوجد أربعة أعمدة مرمرية ، ومن حيث يدخلون و يخرجون يوجد عمودان ، وضعت فوقهما شجرة لونها لون القرنفل . ويمكن أن يأتى إلى هذه الشجرة حتى ألف شخص ، ويقطع كل واحد منهم جزءاً . وتأتى فى الصباح ولا تجد ذلك المكان ، حيث قطعوا بالأمس من تلك الشجرة ، وهى تصبح سفينة الرب الكاملة . والكهف كله مبطن بالمرمر . ويوجد فى المنتصف مقعد حيث كانت العذراء المقدسة مع المسيح ويوسف يجلسون » .

وذكر مواطنونا كثيراً فى مذكراتهم كنيسة القديس نيقولاس فى مقر بطريرك الإسكندرية الأرثوذكسى فى القاهرة ، حيث أنهم فى الغالب أقاموا فى هذا المقر . وأفاد

فارسونوفى : « توجد هناك أيضا كنيسة القديس نيقولاس صانع المعجزات فى وسط القاهرة بالقرب من السوق . . وتعد هذه الكنيسة هى المأوى لجميع الرحالة المسيحيين الأرثوذكس » .

حكى أيضاً عن كنيسة القديس نيقولاس صانع المعجزات الأب جريجورى ، مضيفاً أن بطريرك الإسكندرية يواكيم يقوم بإقامة الخدمة الدينية فيها . وفى مقر بطريرك الإسكندرية أقام كل من مكارى وسيليفيورست مشيرين إلى أنه « توجد هنا فى المقر كنيسة القديس نيقولاس » .

أفاد فاسيلى جريجورفيتش - بارسكى الذى عاش طويلاً فى مقر بطريرك الإسكندرية بأنه يوجد فى القاهرة ثلاث كنائس أرثوذكسية ؛ وهى كنيسة القديس نيقولاس فى المدينة الجديدة ، وكنيسة القديس مار جرجس فى المدينة القديمة ، وكنيسة الجبانة لأم الإله المقدسة . وهذه هى الكنائس اليونانية الموجودة فى القاهرة حتى اليوم ، إلا أنه قد أعيد بنائها .

وكان الحجاج المتجهين إلى دير سانت كاترين يمكثون فى مقر دير سيناء فى القاهرة. وذكر أرسينى سوخانوف أنه هناك « يعيش رئيس الأساقفة السيناوى وكبار السن الصادقين ، وعندهم ثلاثة مقرات للضيافة مبنية من الحجر ، ولدى بطريرك الإسكندرية ثلاثة أيضاً . ويقيم فيها نزلاء من جميع الأديان من التجار وأصحاب الحرف ، ويدفعون مقابل المكان شهرياً ، ويأخذون عن المحل قطعة من فئة الخمسين كوبيكا فى الشهر ، ومن البعض يأخذون اثنين أو ثلاث يفيمكا "نوع من المال" » .

أفاد إيبوليت فيشينسكى الذى أقام فى المقر السيناوى بأن « المقر كبير ، ويعيش هناك ثلاثة رهبان ، و يخدمون جميع النزلاء ، ومقابل ذلك يدفعون لهم ... وعنده " رئيس الأساقفة السيناوى" فى القاهرة أخوة فى الدين (أكثر من 50 شخصاً) ، ولا يوجد عندهم أديرة أو كنائس ، يوجد فقط قلاية مستقلة عوضاً عن الكنيسة الصغيرة . وليس عندهم فى المدينة مزرعة أو بستان خضروات ، كل شىء يشترونه فى مكانه . والمال يأتيهم من الصدقة ، وهم يرسلون إلى المالطيين والفلاحين والفلاميين والفرنسيين ، وكلهم يعطون الصدقة . وحكى رئيس الأساقفة أن عدد الأخوة أكثر من 200 شخص يقومون بجمع الصدقة » .

كان دير القديس سابا هو مقر بطريرك الإسكندرية الأرثوذكسى فى الإسكندرية آنذاك . ولم يستطع رحالتنا الذين زاروا هذه المدينة أن يجوبوه من كل النواحى . ووصف أرسينى سوخانوف الدير هكذا : « ولدير بطريرك الإسكندرية سور شاهق الارتفاع ، ولكن "مساحته" غير كبيرة : ويوجد بداخله كنيسة فقط ، وبجوارها توجد مجموعة من الغرف ، ولا يوجد هناك أى مكان خال . هنا يعيش عجائز بطريركية الإسكندرية. وفى الكنيسة (فى النصف الأول) يقوم بالخدمة شعب البطريركية ، وفى (النصف الثانى) يوجد مذبحين ، وهما البندقى والفرنسى حيث يأتى الرهبان اللاتينيون للخدمة الدينية ، إذ يعيشون خلف الدير . ويوجد هنا عمود حجرى منحوت من المرمر الأبيض، ويوجد بجواره تابوت خشبى له نافذة صغيرة تفتح قليلاً ، وهنا يبجلونه ، ويقولون

أنه الحجر الذى رُبطت فيه الشهيدة القديسة كاترينا عندما كانوا يعذبونها » .

وكذلك يبجل كل من مكارى وسيليفيورست الحجر المقدس فى كنيسة القديس سابا . وقد أشارا إلى أنه « يوجد فى وسط مدينة الإسكندرية مقر قداسة البطريرك ، والذى لا يعيش بجانبه أحد ، كل شىء أصبح خاوياً ... يوجد هنا أيضاً فى الكنيسة الكبيرة، وتحديداً فى الجزء المنفصل عن الكنيسة المكرس للقديسة الشهيدة كاترينا ، عمود غير كبير من المرمر الأبيض ، والذى قطعوا عليه رأس الشهيدة كاترينا . وحتى هذا اليوم يرى الكثيرون على العمود دم الشهيدة العظيمة القديسة . وهنا ينحنى المؤمنون ويقبلونه . وكذلك تعطف علينا الرب بأن نرى دم القديسة الشهيدة كاترينا ، وأن نتلقى البشارة » .

وصف فاسيلى جريجورفيتش ـ بارسكى بالتفصيل دير القديس سابا وكنيسته : « المبنى "الدير" غير كبير ، وحوائطه الأربعة عالية ، وهو مغلق عن العالم الخارجى ، ولا يتميز بالجمال . أما موقع القلايات والمطبخ وحجرة الطعام الذى فى الداخل فهو جميل . والبوابات التى فى الحائط الشرقى مصفحة بالحديد . وكنيسة الدير جميلة ومكسوة بالأحجار والمرمر ، ولها سقف مستو ، وليس لها قبة . والكنيسة كبيرة فى طولها وعرضها وارتفاعها ، وفيها 12 عمود بارتفاعات شاهقة لتدعيمها ، صنع كل واحد منهم من حجر واحد . وتوجد خمسة أعمدة فى الشمال ، وخمسة فى الخلف ، واثنان خلف حامل الأيقونات. وبالإضافة إلى هذه الأعمدة الاثنى عشر ، توجد أيضاً أعمدة صغيرة من المرمر. وفى هذه الكنيسة ثلاثة مذابح : المذبح الأول للقديس سابا ، والثانى للشهيد جيورجى (مار جرجس) ، والثالث خال . والمذبح كبير وجميل ذو غطاء خشبى وقبة ، وهو يرتكز على أربعة أعمدة خشبية . وهو جميل الصنع ، وكرسيه عال ، ومبطن بألواح من المرمر . ويوجد على حامل الأيقونات أيقونات جميلة . ويوجد كذلك ثلاث بوابات ، الملكية والجنوبية والشمالية . ويوجد أيضاً مدخل صغير يؤدى إلى المذبح من الجانب . ويوجد أيضاً كرسى قداسة البطريرك ، وهو منحوت ببراعة ، كما أنه جميل الصنع ، وكذلك الإنبل حيث يقرأ الإنجيل ... ويوجد أيضاً فى الكنيسة خلف الجوقة اليسرى عمود مرمرى أبيض له أربعة أضلاع نُصب فى الأرض ، وعرضه شبران » .

يكمل جريجورفيتش ـ بارسكى : « يحكى الرهبان ورجال الدين أنه على هذا العمود قطعت رأس القديسة الشهيدة كاترينا ، وقد اكتسى بدمها المقدس ، ولذلك يقبله المسيحيون الذين يأتون إلى هناك للعبادة بكل تبجيل . والمعبد جميل جداً، ولكنه مظلم وله نوافذ قليلة ، لأنه يقع فى مكان ضيق بين مبانى القلايات . وطول المعبد 77 قدماً ، وعرضه 66 قدماً ، والارتفاع أقل . وله بعض البوابات الصغيرة من الناحية الشمالية . وتوجد أمام الدير وخلفه حديقتان ، وينمو فيهما عدد قليل من أشجار الزيتون والنخيل والحبوب. وفى الحديقة الكبيرة توجد مستشفى ، والتى يمكث فيها الرهبان من المرضى ، ورجال الدير ، وأحياناً الرحالة حتى الشفاء التام » .

- **الآثار المصرية القديمة :**

لم يهتم رحالتنا بالآثار المصرية القديمة على وجه الخصوص ، ولكنهم إذا ما رأوها فى طريقهم ، فإنهم عادة ما يصفوها . وتلك الرؤية لم تكن كثيرة . وحدثت فى الغالب فى الإسكندرية حيث كانت الآثار على مرمى البصر . على أية حال فقد شاهد فاسيلى جاجارا قبل الآخرين مسلة الفرعون سنوسرت الأول عند عودته من المطرية إلى القاهرة ، وحكى أنه " على مسافة خمسة أميال من القاهرة يوجد حجر ذو أربعة أضلاع ، له قمة مدببة ، وارتفاعه 12 ساجين ، وفى العرض 4 ساجين . والأتراك يسمونه حربة الفرعون ، ومكتوب عليه اسم الفرعون " .

اكتشف أرسينى سوخانوف أثناء زيارته إلى الإسكندرية أنه هناك " يوجد عمود مدهش ذو أربعة أضلاع منحوت من حجر واحد . ويبلغ ارتفاعه 12 ساجين . وعليه نقشت من أعلى إلى أسفل رموز كتابة غير معروفة مثل السيوف والأقواس والأسماك ورؤوس بشرية وأيدى وأقدام وفؤوس ، وبعض الرموز - بل جميعها - غير معروف . ويقولون أن حكمة ما مكتوبة عليه " . وكانت هذه هى المرة الأولى فى الأدب الروسى يقوم فيها مبعوث القيصر أليكسى ميخايلوفيتش بوصف الكتابة الهيروغليفية المصرية القديمة المنقوشة على إحدى تلك المسلات المسماة " إبر كليوباترا " .

رأى فاسيلى جريجورفيتش - بارسكى هذه المسلة أيضا ، وحكى أن " هذا حجر واحد مستقيم ، وغير مستدير كما هى الصفة السائدة للأعمدة ، وهو ذو أضلاع أربعة ، ومدبب من الأعلى . وكل الجوانب لها نفس العرض ، وعليها بعمق أصبعين نقشت صور أو علامات ما رآها الكثيرون ، ولكنهم لم يستطيعوا تفسيرها ، لأنها لا تشبه الكتابة اليهودية أو اليونانية أو اللاتينية أو أى كتابة أخرى ، يوجد فقط رمز واحد يشبه كثيراً الحرف الروسى ж جى ، ولكن الكتابة الأخرى تشبه الطيور والشباك والأصابع أو النقط" . لم يتكاسل جريجورفيتش - بارسكى ، ومما أثار الدهشة فقد أعاد رسم الخط المصرى القديم ، وعند نشر مذكراته ضمنه فى كتابه . وهكذا شاهدوا فى روسيا للمرة الأولى كيف تبدو الكتابة الهيروغليفية المصرية القديمة .

فى الإسكندرية وجه أرسينى سوخانوف اهتمامه أيضاً إلى عمود بومبى شاهق الارتفاع. قال أرسينى سوخانوف : « ويتواجد بالجوار العمود الأكثر إدهاشاً من بين كل الأعمدة ، إذ أن ارتفاعه خمسة عشرة ساجين كأن المخرطة قد خرطته من حجر واحد ذو لون أرجوانى. ويقف كالخازوق الذى لا ينحى أبداً » .

لم يحظَ عمود بومبى بالاهتمام الكافى من جانب فاسيلى جريجورفيتش - بارسكى الذى أشار إلى أنه « غير عادى من حيث الشكل والصنعة » ، وعرف من الأوروبيين أن « طول العمود 122 قدم بشرى ، والقطر 12 قدم ، والعرض كبير بقدر إحاطة اليدين ، احكم

بنفسك ... والعمود يتكون من أربعة أجزاء : الجزء الأول هو رأس العمود "التاج" ، والجزء الثانى العمود نفسه ، وقاعدة العمود تتكون من جزئين . ويقولون أن ساق العمود صنع من حجر واحد ، وطوله 100 قدم ، والرأس 20 قدم ، والقاعدة 2 قدم . ويقول البعض أنه حجر واحد ، والبعض الآخر يقول أنه أجوف من الداخل ، ولكن لا أحد يعرف حقيقة ذلك إذ أنه من غير الممكن تسلقه » . ويذكر كذلك إبر كليوباترا وعمود بومبى الأرشمندريت قنسطنطين مؤلف كتاب كامل صغير عن الإسكندرية ، ولكن وصفه لهذه المعالم الأثرية أقل فى المعلومات من التى ذكرها جريجورفيتش - بارسكى .

فيما يخص الأهرامات ، فقد ذكر كثير من الرحالة وجودها ، غير أن مشاهداتهم اقتصرت على المشاهدة البعيدة من القاهرة ، ولم يكن لديهم فى أغلب الأحوال فكرة واضحة عن الغرض التى أنشئت من أجله . فقد سمى فارسونوفى الأهرامات « مخازن غلال يوسف الجميل » . وأكد فاسيلى جاجارا أن « هذه هى قصور للفرعون بناها اليهود ، وهى كبيرة جداً ومخيفة » ، وكتب أنها « قائمة على جبل واحد ، ولها أربعة أضلاع ، وقممها مثل قمم الأبراج » .

كان أرسينى سوخانوف هو أول من سمى الأهرامات « بالمقابر الفرعونية » ، وقارنها بالجبال إذ قال : « هى عريضة من الأسفل ، ومدببة من الأعلى » . وعلى الرغم من امتلاك فاسيلى جريجورفيتش - بارسكى عقلاً محباً للمعرفة لم يستطع الوصول إلى الأهرامات ، والغرض من إنشائها ، كتب كما اعترف نقلاً عن آخرين : بناها الفراعين « كما يحكى لكى يجعل منها ملاذاً ، إذا فجأة فاض النيل بقوة وأغرق كل البلاد المصرية » .

كان كيربرونيكوف هو الأول والوحيد الذى لم يتكاسل من رحالتنا عن الذهاب من القاهرة إلى الأهرامات . وحدث هذا بالفعل فى عام 1820 م . وقد كتب عن أبى الهول الكبير : « وعندما اقتربنا من الهرم رأينا رأساً كأنه كومة كبيرة من القش مصنوعة من حجر واحد ، والعيون والأنف والفم والأذنان واضحين » . لم يقف برونيكوف عند حد رؤية الأهرامات ، ولكنه تسلق إلى داخل هرم خوفو . وقد حكى برونيكوف : « بعد أن أوقدنا النار ، بدأنا فى الهبوط عبر فتحة إلى الأسفل فى داخل الهرم ، والأحجار من الأعلى حلقية ، ومن الجوانب وتحت الأرجل كبيرة جداً وملساء وملتحمة ببعضها البعض بإتقان، حتى أن شكلها يوحى كما لو أن كل هذا صنع من حجر واحد .

علاوة على ذلك ، فهى ملتحمة بعضها ببعض بتلك الدرجة من المتانة حتى ، فيما يبدو، أنها لن تنفصل أبداً . ونزلنا إلى الأسفل كما ننزل فى السرداب ، ثم صعدنا لأعلى الهرم عبر ممرات غير مستقيمة ، وأحجار سقطت من أماكنها منذ وقت بعيد . وعبر منعطفات كثيرة وصلنا إلى غرفة الدفن ذات الحجرات المصنوعة من المرمر ، وهى تسع من أربعين إلى خمسين شخصاً . وما تقوله هنا يكون له طنيناً ، وصدى الكلمة يتكرر ، وينفذ الضوء فى حجرة الدفن من جانب هرم صغير . وهذه الغرفة (والتى لم أستطع أن أتبينها بالكامل) توجد فى منتصف الارتفاع تقريباً » .

وعرض عليهم سكان تلك المنطقة الذين ينجذبون للسياح (كان مع برونيكوف راهب من اليونانيين المحليين) أن يصعدوا إلى قمة الهرم ، ولكنهم رفضوا « لأن اليوم كان قد شارف على الانتهاء » ، كما أنهم لم يريدوا أن يقضوا ليلتهم فى الطريق . ورفض برونيكوف كتابة اسمه على الهرم بعد أن أوضح ذلك على النحو التالى : « أشفقت على سكينى ، واعتبرت أن ذلك غير ذى أهمية ، لأن هذا المكان ليس مقدساً » . ومن الطريف أن مسألة الغرض من إنشاء الأهرامات قد تفادى الكلام عنها بالصمت .

***

المراجع

المراجع

БИБЛИОГРАФИЯ

- Августин (Никитин), архимандрит. Русские паломники у христианских святынь Египта. СПб. — М., 2003.
- Арабская Республика Египет. Справочник. М., 1990.
- Архимандрит Леонтий. История жизни младшего Григоровича (отрывки) // Путешествия но Востоку в эпоху Екатери- ныН. М., 1995.
- ал-Багдади, ал-Латиф б. Йусуф б. Мухалшад. Тайны средневекового Египта. «Книга уведомления и рассмотрения дел виденных и событий засвидетельствованных на земле Египта» / предисл. и комм. В.В. Наумкина; пер. с арабского В.В. Наум- кина и А.Г. Недвецкого. М., 2004.
- Беляков В.В. «К берегам священным Нила...» Русские в Египте. М., 2003.
- Беляков В.В. Египет вдоль и поперек. Исторический путеводитель. М., 2001, 2004,2008.
- Беляков В В. Египет. Серия путеводителей журнала «Вокруг света». Изд. 5-е. М., 2012.
- Гуминский, Виктор. Египет и Синай глазами русских паломников. Бир://ту\у.рргаУ051аУ1е.пУ0г11тоск) хсНигсЬе8/41563 .Ь1т
- Данциг Б.М. Ближний Восток в русской науке и лигературе (дооктябрьский период). М., 1973.
- Житие и хожение в Иерусалим и Египет казанца Василия Яковлева Гагары. 1634—1637 гг. // Православный палестинский сборник, т. XI, вып. 3-й. СПб., 1891.
- Записки русских путешественников XVI XVII вв. М., 1988.
- Зеленев Е.И. Мусульманский Египет. СПб., 2007.

• Каверин В. Барон Брамбеус. История Осипа Сенковского, журналиста, редакгора «Библиотеки для чтения». М., 1966.

• Карамзин Н.М. История Государства Российского. М., 2002.

• Кириллина С.А. Очарованные странники. Арабо-османский мир глазами российских паломников XVI—XVIII столетий. М., 2010.

• Книга хожений. Записки русских путешественников XI—XV вв. М.. 1984.

• Ковалевский Е.П. Путешествие во внутреннюю Африку. Ч. 1—2. СПб., 1849.

• Ломоносов М.В. Сочинения. М. — Л., 1961.

• Малето Е.И. Антология хожений русских путешественников ХП—XV веков. М., 2005.

• Муравьёв А.Н. Путешествие к святым местам. СПб., 1834.

• На перекрёстках Вечности: мир глазами паломников. М., 2011.

• Описание путешествия отца Игнатия Деншина // Православный палестинский сборник, вып. 36. СПб., 1891.

• Описание Турецкой империи. СПб., 1890.

• Паломник киевский, или Путеводитель по монастырям и церквям киевским. Киев, 1849.

• Паломники-писатели петровского и послепетровского времени или путники во святой град Иерусалим // Чтения в Императорском обществе истории и древностей российских при Московском университете. Кн. 3, отд. V. М., 1873.

• Петровский И. С. Источники сведений о Древнем Египте в России в XI—XVIII веках II Замаровский, Войтех. Их величества пирамиды. М., 1981. Изд. 2-е. М., 1986.

• Пешеходца Василия Григоровича-Барского-Илаки-Албова, уроженца Киевского, монаха Антиохийского, пугсшествие к Святым местам, в Европе, Азии и Африки находящимся, предпринятое в 1723 и оконченное в 1747 году. СПб., 1778.

- Полное собрание русских летописей. Т. 9—10. Патриаршая или Никоновская летопись. М., 1965.
- Попов А.11. Младший Григорович. Новооткрытый паломник по святым местам XVIII века. Кронштадт, 1911.
- Послание царя Ивана Васильевича к александрийскому патриарху Иоакиму с купцом Васильем Позняковым и хождение купца Позднякова в Иерусалим и по иным святым местам. М„ 1884.
- Проскииитарий Арсения Суханова // Православный палестинский сборник, т. VII, вып. 3. СПб., 1889.
- Путешествие господина Сонниния в Верхний и Нижний Египет с описанием страны, нравов, обычаев и религии, природных жителей. С французского. М., 1809.
- Путешествия в Святую землю. М., 1995.
- Путешествие иеромонаха Ипполита Вишенского в Иерусалим, на Синай и Афон (1707—1709). СПб., 1914.
- Путешествие к святым местам, находящимся в Европе, Азии и Африке, совершённое в 1820 и 1821 годах села Павлова жителем Киром Бронниковым. М., 1824.
- Путешествие но Египту и в монастыри святого Антония Великого и преподобного Павла Фивейского в 1850 году архимандрита Порфирия Успенского. СПб., 1856.
- Путешествие по Египту и Нубии в 1834—1835 годах Авраама Норова. Ч. 1—2. СПб., 1840.
- Святое семейство в Египте. Каир, 1999.
- Сказания русского народа, собранные И. Сахаровым. Т. 2. СПб., 1849.
- Странствования Василья Григоровича-Барского по святым местам Востока с 1723 по 1747 год. Ч. 1. СПб., 1885; Ч. 2. СПб., 1886.
- Уманец А. Поездка на Синай с приложением отрывков о Египте и Святой земле. СПб., 1850.
- Хождение архимандрита Агрефенья //11равославный палестинский сборник, вып. 48-й. СПб., 1896.

- Хождение в Святую землю московского священника Иоанна Лукьянова. 1701—1703. М., 2008.
- Хожение гостя Василия в Малую Азию, Египет и Палестину // Православный палестинский сборник, вып. 6_й. СПб., 1884.
- Хожение священноинока Варсонофия ко святому граду Иерусалиму в 1456 и 1461—1462 годах // Православный палестинский сборник, т. 15, вып. 45. СПб., 1896.
- Шахматов А.А. Путешествие М.Г. Мисюря_Мунехина на Восток и Хронограф редакции 1512 г. // Известия Академии
- АИЬаиег М„ Ьип1 Н.С. Ал Еаг1у 81ауошс Рза11ег Ггот Киз. Нагуагс!, 1978.
- ВеНакоу, У1асИтсг. ВугапПпе Сапо // Р1асез т Е§ур1. Сано, Мау—.Типе 1994.
- Едур1. Еуе\укпез§ Тгауе1 ОиЫе. Ьопйоп, 2001.
- КатШ, ЛИ. Сорйс Е§ур1. ШзШгу ап(1 ОииЛе. Сано, 1993.
- МетаЫу.ч, Оно Р.А. ТЬе Но1у РатПу т Е§ур(. Са1го, 1986.
- 5аипс1еп, Мгс/гоЬи 3. А1ехапёег'з ТотЬ. ТЬе Т\уо ТЬоизапё Уеаг ОЬзеззюп 1о Рт<! Йю Ьоз1 Сопяиегог. Сано, 2006.
- 5Нам/, Зап, апА ИккоЬоп, Раи1. ВгШзЬ Мизеит Окйопагу оГ Апс1еп1 Е§ур{. Сако, 1996.
- ТагпапШз 1.5. ТЬе 81ауошс Мапизспр^з ГМзсоуегеё т 1975 а131. Сайеппе'з Мопаз1егу оп Моипملطك 8нш. ТЪе$за1ош1и, 1988.
- Уо1ко$', 01е§ V. Уоуа§еигз Киззез еп Е§урملطكе. Са1ге, 1972.

***

مصر فى عيون الروس من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر

مجموعة الرحلات

تم اعتماده للنشر

من قبل معهد الاستشراق – أكاديمية العلوم الروسية

تم التوقيع 15/ 7 / 2013

أكاديمية العلوم الروسية

معهد الاستشراق

أسس عام 1812

1-7-31 موسكو

شارع روجديستفينكا 12

القسم العلمى للنشر

رئيس القسم أ . ف . سرابين

البريد الالكترونى : ru.irran@lzd

الفهرس

الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث (عن ما حكاه الرحالة)



نبذة عن المؤلف

- فلاديمير فلاديميروفيتش بلياكوف
- المهنة : دكتور العلوم التاريخية، مستشرق - عربى
- التخصص: مصر
- عمل لمدة 15 عام فى مصر منذ عام 1986 حتى نهاية عام 2000 كمحرر فى فى جريدة " برافدا" ومؤخراً فى جريدة " ترودا " . وخلال تلك الفترة كانت المواد التى قام بجمعها أساس لنشاطه العلمى التربوى .
- عمل منذ عام 2002 فى معهد الأستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية . يوجد لدى الزملاء فى القطاع المطبوعات الأرشيفية بقسم تاريخ الشرق ، بالأضافة إلى الخطط الفردية يوجد عمل جماعى مشترك هو - مجلة " الأرشيف الشرقى"،تولى رئاسة تحريرها منذ عام 2002 وتصدر هذه المجلة منذ عام 1998م مرتين سنويا فى شهرى يونيو وديسمبر .
- عمل أيضا أستاذا فى كلية المعلومات العسكرية واللغات الأجنبية فى الجامعة الحربية التابعة لوزارة الدفاع بروسيا الأتحادية فى برنامج " جغرافية مصر ". فى عام 2007 م حصل على لقب " أفضل مدرس بالجامعة العسكرية " كما أنه يلقى محاضرات دورية متخصصة فى جامعة موسكو الحكومية للعلوم الأنسانية عن "الولع المصرى"فى الفنون التعبيرية الروسية والأوروبية الغربية ، ثقافة آسيا الصغرى ، مصر وروسيا فى التماثيل ومقتنيات المتاحف. يعد الموضوع الأساسى لابحاثه هو العلاقات الأنسانية المصرية الروسية قبل الحقبة السوفيتية فى القرائن التاريخية والثقافية، كما أنه كرس اهتمامه دائما بموضوعين أضافيين هم : المشاكل السياسية والأقتصادية - الأجتماعية لمصر الحديثة والمقومات السياحية لهذا البلد.
- البريد الإلكترونى : beliakov2007@yandex.tu



نبذة عن المترجم

- دكتور محمد رياض عبد العظيم غلوش
  أستاذ الأدب الروسى والمقارن
- ولد في القاهرة فى 28 ديسمبر عام 1963
- حصل على ليسانس كلية الألسن جامعة عين شمس قسم اللغات السلافية شعبة اللغة الروسية عام1987
- حصل على دبلوم الترجمة فى كلية الألسن
  جامعة عين شمس بمايعادل درجة الماجستير عام 1990
- حصل على درجة دكتوراه كلية الألسن
  جامعة عين شمس قسم اللغات السلافية شعبة اللغة الروسية فى الأدب الروسى والمقارن بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى عام 2002
- درَّس مادة الأدب الروسى فى كلية الألسن عين شمس
- يعمل مستشارًا للترجمة لدى دار نشر أنباء روسيا
- البريد الإلكترونى : dr.mohamed_riad@yahoo.com

أنباء روسيا
Russia News

د. حسـين الشافعى
رئيس مجلس إدارة
ورئيس تحرير مجلة «أنباء روسيا»
رئيس الجمعية المصرية الروسية للعلوم و الثقافة
يناير 2015

www.russiannewsar.com

رقم الإيداع

2014 / 15424

من إصدارات دار نشر أنباء روسيا

مجلات ..



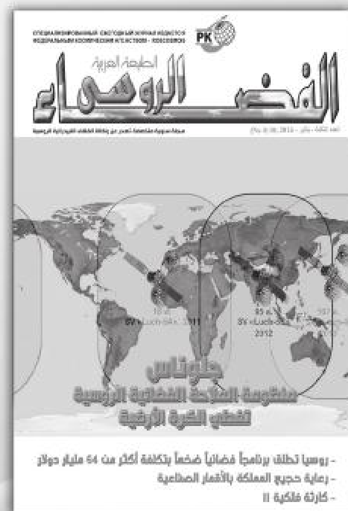




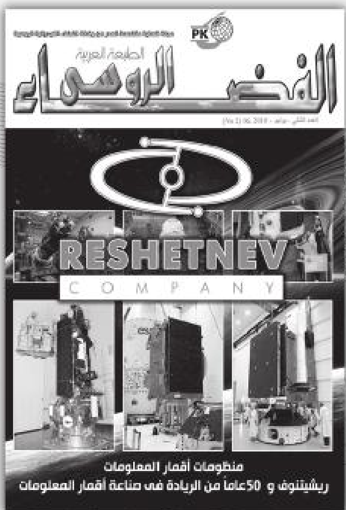








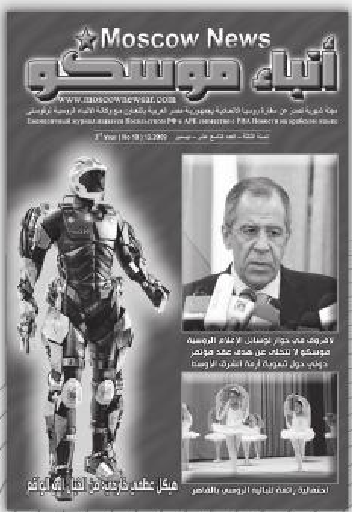


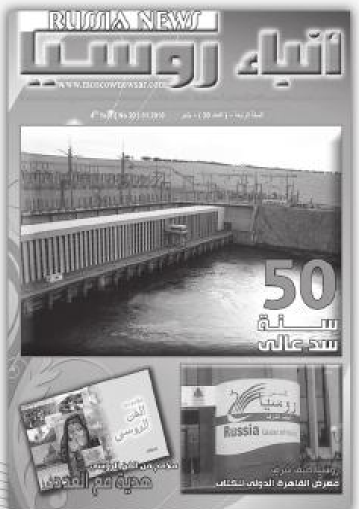


مجلات ..


Moscow News
أنباء موسكو
الرئيس الروسي ديمتري ميدفيديف والرئيس المصري حسني مبارك
و التوقيع على اتفاق الشراكة الإستراتيجية


Moscow News
أنباء موسكو
www.moscownewsar.com


Moscow News
أنباء موسكو
www.moscownewsar.com
لافروف في حوار لوسائل الإعلام الروسية
موسكو لا تتخلى عن هدف عقد مؤتمر
دولي حول تسوية أزمة الشرق الأوسط
احتفالية رائعة للباليه الروسي بالقاهرة


RUSSIA NEWS
أنباء روسيا
www.moscownewsar.com
50
سنة
سد عالي
هدية من العدد
معرض القاهرة الدولي للكتاب


RUSSIA NEWS
أنباء روسيا
www.moscownewsar.com
عيد النصر
9
مايو
65


RUSSIA NEWS
أنباء روسيا
www.moscownewsar.com
موسكو
863
عاماً


RUSSIA NEWS
أنباء روسيا
www.moscownewsar.com
OSCE
KAZAKHSTAN 2010
5
سنوات
أنباء روسيا
LISBONNE


RUSSIA NEWS
أنباء روسيا
25 يناير
ثورة شعب


RUSSIA NEWS
أنباء روسيا
عيد النصر
9
مايو
للانتصار على النازية

من إصدارات دار نشر أنباء روسيا

كتب -





